ملف خاص ب :
الأدب التونسي الحديث

وعدت « الآداب » قراءها بأن تقدم ، بين الحين والحين، اعدادا خاصة عن الآداب العربية الحديثة في الاقطار العربية .

وكانت النية ان نصدر اول عدد من هذه الاعداد خاصا ب « الادب التونسي الحديث » ، بعد ان تم الاتفاق مع « اتحاد الكتاب التونسيين » على ان يؤمن مادة هذا العدد. وقد وفى الاتحاد بوعده مشكورا ، فبعث الينا بمجموعة من الابحاث والقصائد والقصص يجدها القارىء في الصفحات التالية .

وقد آثرنا ان نجعل هذه المادة في « ملف خاص » نضمه الى مادة العدد الاولى التي كانت قد اعدّت وطبعت حين وصلنا البريد التونسي ، ثم اننا آثرنا ان نجعل هذا العدد عددا كبيرا في حجمه لكي يحتفظ بتنوعه وتمثيله لجميع الاقلام العربية . وهذا ما سوف نتبعه كلما توفرت عندنا مادة خاصة بقطر من الاقطار العربية ، نضمها في ملف خاص مع العدد العادي ، بحيث يأتي متنوعا غنيا بكل ابوابه، الى ما يحمله من اضافة في التعريف بادب هذا البلد او ذاك.

ولا بدّ لنا هنا من ملاحظتين :

الاولى : اننا أحببنا ان نشرك « اتحاد الكتّاب التونسيين » الشقيق بمسؤولية الاشراف على التحرير ، لكوننا قد عهدنا اليه في توفير هذه المادة ، فلم نمارس عليها رقابتنا المعتادة . وعلى ذلك ، فان هذا الاتحاد هو المسؤول الاول والاخير عن « قيمة » هذه الابحاث والقصائد والقصص التي ننشرها بحسناتها وسيئاتها .. ويقتضينا الانصاف ان نذكر ان هذه المادة قد هيئت على عجل ، ولعل في ذلك بعض العذر لما قد توحيه من مآخذ .

الثانية : اننا لا نملك طبعا الاّ نخضع هذا الملف الخاص بالادب التونسي لما نخضع له كل مادة تنشر في « الآداب » من نقد . ونعتقد ان اخواننا الادباء التونسيين المشاركين في هذا العدد سيرحبون بكل نقد بنّاء . وحرصا منا على تقييم هذا الملف بشكل موضوعي وعميق ، لا سيما وانها المرة الاولى التي يقدم فيها الادب التونسي على هذا النحو المكثف (ولسنا نقول الشامل ، لان هناك دون ما شك ادباء تونسيين آخرين لم تتح لهم المشاركة هنا ، ونأمل ان نستدرك ذلك في اعدادنا القادمة) ، فاننا سنعهد الى اكثر من ناقد واحد في ابداء الرأي في كل من الدراسات والقصائد والقصص . كما فعلنا في تقييم مادة مؤتمر الادباء العرب الاخير في دمشق .

وبعد ، فان « الآداب » اذ تشكر لاتحاد الكتاب التونسيين ما بذله من جهد (نحن ادرى الناس به) لتأمين هذا الملف ، توضح انها حين تقدمه وتقدم الملفات المماثلة في اعدادها القادمة ، لا تلزم الجهة التي ترسلها باية مطالب او شروط مادية ، خلافا لما هو معروف في الصحف حين تقدم الملفات الخاصة .. ان كل ما نرمي اليه هو توثيق عرى التعاون وتعميق التعارف بين الادباء ، تأكيدا لوحدة الفكر العربي ، في تنوعه ، بسبيل خلق ثقافة فعالة تتجاوب مع تطلعات الامة العربية لبناء كيانها الحضاري الجديد ...

« التحرير »

أطوار الأدب التونسي الحديث

بقلم ابو القاسم محمد كرّو

مقدمة تاريخية :

يمتد عمر الادب الحديث في تونس الى مائة واربعين سنة خلت . وعلى التحديد ، كانت بدايته عام ١٨٣٠ حين شرعت تونس تستيقظ على أزيز المدافع والاحتلال الفرنسي للجزائر .

وما هي الا سنوات قليلة حتى ادرك الجميع ان سبات القرون الوسطى قد انتهى ، وان سلاح العصور الخوالي وكذلك علوم السلف ، التي انحصرت وتجمدت في مجموعة من المعارف الدينية واللغوية ، ومثلها وسائل الحياة والصناعة والزراعة القديمة ، كلها لم تعد قادرة على مجابهة تحديات الحضارة الجديدة ، ومطامع الغزاة المستعمرين .

وكان في طليعة المدركين للاخطار المحدقة ، عدد ضئيل من الادباء والعلماء وبعض الحكام الذين كانت تحركهم ايضا رغبة شخصية في الاستقلال بحكم البلاد .

وكانت تونس في هذا الوقت ولاية عثمانية يتوارث حكمها امراء مستعربون ينحدرون من أصل يوناني ، وقد جدهم الاعلى مع الجيش العثماني في القرن الحادي عشر الهجري ، وكان مؤسس حكمهم في تونس هو الحسين بن علي المتولي عام ١١١٧ هجريا ١٧٠٥ ميلاديا . وقد دعيت هذه الاسرة بالحسينية نسبة اليه ،وتلقب افرادها جميعا بلقب الباي لان رئيسهم كانت كذلك في نظام العثمانيين الذين زحفوا على البلاد بعد صراع عنيف مع الغزاة الاسبانيين في القرن العاشر الهجري حيث كان آخر الامراء الحفصيين قد استسلم لاسبانيا وخضع لحمايتها .

وفي عام ١٨٣٧ تولى عرش تونس الباي احمد الاول ، وكان شجاعا طموحا ، ومتأثرا بالحضارة الاوروبية عن طريق أمة الايطالية الاصل ، فأدرك الاخطار المتربصة بالبلاد بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر والانحلال الذي بدا ينتاب كيان الدولة العثمانية ، وكيف انها لم تحرك ساكنا تجاه سقوط الجزائر ، بينما هي ولاية من ولاياتها .

وكان الشعب العربي في تونس قد أخذ يتعرف على مدى ما بلغته اوروبا من تقدم في العلوم والصناعة نتيجة قرب البلاد التونسية من اوروبا من جهة ، وازدياد عدد التجار والخبراء الاوروبيين في تونس من جهة ثانية ، واتساع العلاقات التجارية والبشرية بين الضفتين من جهة ثالثة .

وكل هذه العوامل كانت الحافز المباشر الذي ساعد على النهوض المبكر واليقظة السريعة في القرن الماضي .

وشرع هذا الباي في القيام باصلاحات كبيرة في البلاد ، كان من اهمها في الناحية الاجتماعية اصداره امرا بالغاء الرقيق وعتق جميع العبيد وغلق اسواقها للابد ، مع فرض عقوبات على كل المخالفين لهذا الامر .

وفي الناحية العلمية تأسيسه لمدرسة باردو الحربية عام ١٨٤٠ فكانت النواة الاولى للتعليم الحديث ، ولكل اصلاح اقتصادي وسياسي وعلمي حدث في العقود الموالية ، وكان من ابرز اساتذتها العالم الاديب محمود قبادو الذي كان من دعاة الاصلاح والاخذ بالحضارة الاوروبية ، فزرع أفكاره في تلاميذه الذين قامت عليهم نهضة تونس في كامل النصف الثاني من القرن الماضي .

وفي طليعة هؤلاء بالخصوص الوزير محمد حسين ، والمصلح الكبير خير الدين باشا .

وفي هذه المدرسة حدث اول لقاح علمي بين الثقافة العربية والثقافة الاوروبية في تونس ، فقد قام عدد من تلامذتها وأساتذتها بترجمة أكثر من أربعين كتابا من الفرنسية والايطالية والتركية الى اللغة العربية .

ولئن كان معظم ما تمت ترجمته كتبا عسكرية ، فان بينها كتبا اخرى ، كما ان تعليم اللغات لطلبتها قد اتاح لهم الاطلاع على ثقافة اوروبا بطريقة مباشرة .

وفي الميدان الاقتصادي ، اسس هذا الباي عدة صناعات حديثة ، وجلب عددا من المصانع ، كان معظمها خاصا بصناعة السفن والاسلحة العصرية ، حيث كان يعمل على بناء جيش قوي واسطول حربي بلغت قطعه اثنتي عشرة باخرة وبارجة كبيرة .

وهذا الباي هو اول من خاطب الخلافة باللغة العربية،اشعارا لها باستقلاله عنها ، وكانت اللغة التركية هي السائدة في المراسلات الرسمية ، وقد أتاح هذا للغة العربية ان تمارس سيادتها الثقافية لا في العلاقات الخارجية فقط ، بل في التعليم والادارة المحلية كذلك .

واذا كان هذا الباي قد أرهق مالية البلاد بنفقاته الحربية وباسرافه في انشاء مدينة المحمدية ، التي كان يحلم بجعلها فرساي تونس ، فانه قد وضع أسسا قوية للنهضة الحديثة في تونس لا يمكن لمؤرخ أو باحث نزيه أن يغفلها أو يقلل من شأنها .

وعندما توفي هذا الباي عام ١٨٥٥ كانت تونس تفكر في تطورات هامة أخرى تم انجازها كلها في عهد خلفه محمد باي وخلفه الصادق باي . ومن أهم هذه الاصلاحات ادخال الطباعة العصرية ، واصدار أول جريدة عربية في تونس ، وهي الثالثة في العالم العربي ، بعد الوقائع المصرية ، والمبشر الجزائريه . ولا ريب ان اخطر ما تم انجازه في تونس خلال القرن ١٩ هو اصدار أول دستور عرف باسم عهد الامان عام ١٨٥٨ ، ثم تكوين مجالس بلدية في نفس السنة . ومجلس الاعيان بعد ذلك .

وحين مات هذا الباي عام ١٨٥٩ وتولى مكانه محمد الصادق باي تعرضت البلاد لهزات عنيفة ، زاد من حدتها تدخل الدول الاجنبية في شؤون البلاد الداخلية وارهاق الشعب بالمظالم والضرائب المجحفة ، وازدياد عدد افراد الجاليات الاجنبية خاصة من الفرنسيين والايطاليين وما كانوا يتمتعون به من نفوذ لدى البلاط وامتيازات في الحياة العامة .

وتعكرت الاوضاع والعلاقات بين الحكومة والشعب بسببسياسة الاستبداد المطلق التي كان يمارسها الباي بواسطة وزيره مصطفى خزنة دار الذي اعتمد هو بدوره عصابة من المجرمين لنهب واغتصاب اموال الشعب ، فلم يكن امام المواطنين ـ والحالة هذه ـ سوى حل واحد هو الثورة فاعلنوها عام ١٨٦٤ بقيادة الزعيم علي بن غذاهم ، وكادت الثورة تجتاح العاصمة ، بعد ان اكتسحت معظم انحاء البلاد ، الا أن تدخلات الدول الاجنبية وأساطيلها المتربصة بسواحل البلاد واساليب الحيلة والغش قد قضت على نجاحات الثورة وزج بقادتها في السجن حيث ماتوا تحت سياط التعذيب والجوع .

واغتنم الباي فرصة انتصاره المزيف ، فعطل الحياة الدستورية وتوسع في اقتراض الاموال الاجنبية ، مما زاد في تعكير الحياة الاقتصادية وعجز ميزان الدولة ، وكانت اموال الشعب تسرق وتنهب الى فرنسا بواسطة مجرمين محترفين . فعادت احوال البلاد الاقتصادية الى التدهور من جديد ، وهجر الفلاحون اراضيهم حتى لا تنهب محاصيلها ، وتظاهر التجار بالفقر وانكمشت الصناعات المحلية وتعالت اصوات التذمر من كل مكان .

وكان زعماء الحركة الاصلاحية ، وفي طليعتهم خير الدين ، قد ابعدوا عن الحياة العامة وفرضت عليهم الاقامة الجبرية ، ومنعوا من الاتصال بالشعب .

ولما أدرك الباي ان سياسته وأعمال وزيره خزنه دار قد قادت البلاد الى الهاوية ، لم يجد مفرا من الالتجاء الى خير الدين لما يعرفه فيه من خبرة ونزاهة ، فاوكل اليه رئاسة الحكومة، فتولاها عام ١٨٧٣ وبقي مدة خمس سنوات حقق فيها المعجزات بالقياس الى ظروف البلاد وتحركات الدول الاجنبية التي كانت تهيىء لنفسها الاستيلاء على تونس ، خاصة فرنسا وايطاليا .

وقد شملت اصلاحاته كافة ميادين الحياة .. وفي طليعتها الحياة الثقافية حيث جدد برامج التعليم في الزيتونة ، وضبط شؤونها بجملة من القوانين كما زاد في خزائن كتبها بما وهبه لهامن كتبه الخاصة ، واسس المعهد الصادقي الذي كان يمكن ان يتحول الى جامعة عصرية لولا سياسة الاستعمار فيما بعد ، كما ارسل البعثات العلمية الى اوروبا ونفخ في صور الادباء والمصلحين آمالا جديدة ، فنشطت حركة التأليف واحياء التراث ، وتولت المطبعة الرسمية طبع عشرات من الكتب ، كما فتحت جريدة الرائد الرسمية صدرها للمقالات الادبية والسياسية .

وأوقف النزيف المالي في اقتصاد البلاد ، وضرب على أيدي الدول الاجنبية العابثة ، ونظم الادارة على أحدث الطرق ، وأعاد للفلاحين اراضيهم وشجعهم على احيائها ، والزيادة في الانتاج، وعمم غراسة الاشجار ، وخاصة شجر الزيتون وأوجد عددا من الصناعات، ودعم الصناعات المحلية بحمايتها من المزاحمات الاجنبية .

وهكذا اخذت البلاد تنتعش من جديد وتعود اليها آمالها في النهضة والتقدم والرخاء .

ولكن كيف تسكت الدول الاجنبية وعصابة الخونة الذين ضاعت منهم غنائم الحكم الفاسد المستبد ، لا سيما وقد عمد خيرالدين الى محاكمة رأس الفساد الوزير خزنة دار ومصادرة امواله وأملاكه رغم أن بنت خزنة دار كانت زوجة لخير الدين ؟

وفي عام ١٨٧٧ لم يعد امام خير الدين مجال للعمل حيث كثر التصادم بينه وبين الباي ، وحيث نجحت دسائس الاعداء في اقناع الباي بافالته فاعفي من مهامهوفرضت عليه الاقامة الجبرية ، وبعد عام سمح له بالسفر خارج البلاد فاستقر في الآستانة حيث دعي لتولي منصب الصدر الاعظم ، ولكنه لم يستطع ان يفعل شيئا، لان النظم الفاسدة لا يمكن اصلاحها وانما تترك الى ان تنهار ، كما اشار الى ذلك الجنرال ديفول .

وبعد عامين ونصف من خروج خير الله من تونس ، وقعت البلاد فريسة الغزو والاحتلال الفرنسي ، وتمت بذلك نهاية الصراع الاجنبي على تونس ، وقد فرضت فرنسا وجودها بالحديد والنار ، ونفذت مع الخونة ما كانت تريده وتطمح اليه .

وبين عام ١٨٨١ بداية الاحتلال وعام ١٩٥٦ بداية الاستقلال مرت البلاد تحت الحكم الاستعماري بالمراحل الكبرى التالية :

أولا ـ من عام ١٨٨١ الى بداية الحرب العالمية الاولى .

ثانيا ـ من نهاية الحرب الاولى الى بداية الحرب العالمية الثانية .

ثالثا ـ من نهاية الحرب الثانية الى الاستقلال عام ١٩٥٦ .

وتاريخ الاستعمار الفرنسي لتونس ، معروف في جملته ، ومراحله هي نفس المراحل التي كان لها تأثيرها في قصة الادب التونسي الحديث ، لذا اكتفي بهذه المقدمة التاريخية المقتضبة وانتقل رأسا الى الادب العربي في تونس ، متخذا من كتابهوشعرائه مجالا للقول وميدانا للعرض . وسيكون عرضنا للتعريف والاطلاع أكثر منه للتحليل والنقد ، اذ ان المقام ليس مقام فحص ودراسة وتمحيص ولا هو مقام بحث في التيارات والمذاهب التي مارسها الشعراء والكتاب في تونس او تقلبوا في أحوالها . فان ظروفهم التاريخية بالخصوص كانت تحول بينهم وبين ما قد نطالبهم به من المفاهيم والمقاييس او المذاهب والتيارات التي شاعت في هذا القطر او ذلك الجيل ، من أقطار العالم وأجيال العرب المعاصرين . ومع ذلك ، فاننا لن نبخس شعراء تونس وكتابها مكانتهم الادبية بين أدباء العرب الاخرين ، ولا دورهم التاريخي العظيم في ايقاظ الشعور الوطني ، والمساهمة لا في النهوض الفكري والاجتماعي والاقتصادي لبلادهم فحسب بل وفي تحريرها من كابوس الظلم الملكي أولا والاستعماري ثانيا ، والانحرافات الاخرى ثالثا .

واذا كان لي أن آسف على شيء ، وان أعتذر عن أمر ، فانما هو عن هذا النطاق المحدود الذي لا يسمح بالتعرف علىجميع الشعراء ولا جميع الكتاب . لذلك سأقتصر على عدد قليل منهم ، وعلى نماذج محدودة لهم دون ان يكون في ذلك أية عاطفة خاصة او حكم مسبق .

وبعبارة أخرى انني هنا في موقف التعريف بالادب العربي في تونس ، وليس بالادباء انفسهم ، رغم ما قد يكون من تفاوت في الحديث عن هذا او ذاك ، وفي الاختيارات والاشارات .

مراحل الادب التونسي

ان مراحل الادب المعاصر في تونس هي اولا مرحلة فجر اليقظة الاولى بين عام ١٨٣٠ وعام ١٨٨١ .

ثانيا ـ مرحلة صدمة الاحتلال وتيقظ الضمير الوطني من عام ١٨٨١ الى الحرب العالمية الاولى .

ثالثا ـ مرحلة الوعي الوطني والثورة الادبية عن نهاية الحرب العالمية الاولى الى الحرب العالمية الثانية .

رابعا ـ مرحلة الحصاد الوطني ومعارك الاستقلال من نهاية الحرب الثانية الى اعلان الاستقلال عام ١٩٥٦ .

وتأتي بعد ذلك المرحلة الحاضرة ، مرحلة الاستقلال والحكم الوطني .

وحديثي هنا عن المراحل الاربع السابقة التي تتوجت بالاستقلال

المرحلة الاولى

ان المرحلة الاولى التي انتهت ببداية الاحتلال الاجنبي عام ١٨٨١ هي المرحلة التي كانت الثقافة فيها ثقافة تقليدية تقوم على برامج التعليم الديني في جامع الزيتونة ، ولم تكن هذه الثقافة لتسمح على ما هي عليه في ذلك الحين من جمود وقصور ـ بظهور أدباء جهيرين ، ذوي أفكار نابغة او تجديد أدبي ، واذا كنا نعثر على قصائد او مقالات تحمل افكارا عصرية ، فان أصحابها في الغالب قد كونوا أنفسهم بأنفسهم ، ولم يكن لما تعلموه في الزيتونة من اثر يذكر ، اللهم الا من حيث علوم البلاغة واللغة ، اما الادب بفنونه التطبيقية ، فلم يكن له وجود حتى بداية الحرب الاولى .

على أن أدباء هذه المرحلة قد تلقفوا أفكارهم من رحلاتهم الخارجية لا سيما في أوروبا ، ومن المطبوعات الشرقية التي بدأت تصل لتونس من مصر ولبنان كما كانت العلاقات بين تونس وهذين القطرين بالذات وثيقة منتظمة ، بل ان عددا من اللبنانيين والمصريين قد عمل في المؤسسات التونسية وكان بينهم بالخصوص من يقوم بالترجمة ، كما كان فيهم أدباء لهم شانهم في النهضة العربية أمثال أحمد فارس الشدياق ورشيد الدحداح وحمزة فتح الله .

ولست اشك في ان أوضاع تونس المتخلفة في القرن الماضي وما أمتاز به حكم البايات من فساد وظلم واستبداد ، كان هو الاخر محركا ذاتيا كبيرا .

فلا غرابة والحالة تلك ان وجدنا الادباء في هذه المرحلة يطالبون بالشورى ، ويحثون على العدل ، واصلاح الامور ، ونشر العلم والصناعة والاخذ بأسباب التطور ، ومناصرة الذين يعملون على تحقيق هذه الغايات .

ونظرا لظهور الطباعة في تونس عام ١٨٦٠ ، وصدور جريدة الرائد التونسي في العام الموالي أسبوعية اخبارية جامعة ، فان فنا جديدا قد ظهر في الادب المحلي هو الكتابة الصحفية ، ولئن لم تعط ثمارها اليانعة وتتنوع اساليبها ومجالاتها الا في المراحل الموالية ، فانها قد هيأت بداية حسنة للاجيال اللاحقة .

ونكتفي هنا بذكر أهم الادباء والمفكرين الذي تركوا آثارا هامة وكتبا مشهورة الى اليوم ، فضلا عن الشعراء الذين ساهموا بشعرهم او توجيههم للاجيال من بعدهم .

فمن النوع الاول المؤرخ الفذ أحمد بن ابي الضياف المتوفي سنة ١٨٧٤ والذي كان من دعاة الشورى والحرية والتطور ، والذي يشهد كتابه « اتحاف أهل الزمان بملوك تونس وعهد الامان » بما كان عليه من اصالة ادبية وتحرر فكري ، وشغف بالحرية والديمقراطية والتطور .

ويأتي بعده الجنرال خير الدين ، صاحب كتاب «أقوم المسالك»، الذي هو خلاصة رحلاته في الممالك الاوروبية ، والذي امتازت مقدمته الطويلة بافكاره الاصلاحية ودعوته الجريئة الى ضرورة النهوض العاجل بالبلاد الاسلامية قبل ان يستغل العدو احوالها المفككة ويتمكن من التحكم في مصيرها ، وقد أبانت الايام صدق حدسه ، وغفلة حكام عصره عن الاستماع الى نصائحه . ويليه ايضا العلامة سالم بو حاجب الذي يعتبر المدون الحقيقي لافكار خير الدين حيث كان من اعلام الزيتونة المقتدرين في اللغة والتاريخ بينما كان خير الدين يلقي اليه بأفكاره المستنيرة بثقافته الفرنسية والتركية ، فيصوغها الشيخ بو حاجب في قالب عربي . ولا شك ان كلا منهما قد تأثر بالآخر وتفاعل معه .

ويأتي بعد خير الدين وسالم بوحاجب الجنرال محمد حسين الذي كان احد أقطاب النزعة الاصلاحية في جماعة خير الدين ، وقد ترك رسائل مطبوعة ، أهمها رسالته في تحرير العبيد .

واما محمد بيرم الخامس (١٨٤٠ ـ ١٨٨٩) فهو شاهد عصره ، وعنوان مجده وفكره ، اذ ترك من الآثار الدالة على مقامه الممتاز بين أقرانه . واذا كان قصير الباع في الشعر على ندرة نظمه له ، فانه لكاتب بارع ، ومؤرخ ذكي ، ورحالة جواب وصحفي مقدر . وله كتب ورسائل عديدة أهمها كتابه : « صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار » ويقع في خمسة اجزاء ، الف الاول والثاني منها في تركيا ، قبيل احتلال تونس والثالث بعد الاحتلال ، والرابع والخامس بعد استقراره في مصر ، حيث اصدر جريدة عاشت خمسة أعوام . وله رسالة في السياسة الشرعية خاطب بها خليفة عصره السلطان عبدالحميد ناصحا له بالاخذ باسباب التقدم والعلم والحرية والعدل ، وقد ترجمت فور صدورها للفرنسية والانكليزية ، مثلها في ذلك مثل مقدمة كتاب خير الدين السالف الذكر . ومن رعيل هذه المرحلة في سنواتها الاخيرة : الاديب الحصيف محمد السنوسي المتوفي عام ١٩٠٠ والمولود عام ١٨٥٠ . وقد امتاز السنوسي بعلاقاته بالافغاني ومحمد عبده كما امتاز بمناصرته للاصلاح ومقاومة الفساد والاستبداد اولا والاحتلال والاستعمار بعد ذلك ، وكتبه كثيرة متنوعة بعضها مطبوع وبعضها الآخر وهو الاهم ما زال مخطوطا الى اليوم ، ومن اهمها كتاب مجمع الدواوين التونسية ، ورحلته الحجازية . وعلى ذكر هذه الرحلة نقول ان ادب الرحلات قد ازدهر في تونس خلال القرن الماضي ، ففضلا عن الرحالة الكبير محمد بن عمر التونسي المتوفي (١٨٥٧) صاحب كتاب « تشحيذ الاذهان ، بسيرة بلاد العرب والسودان » . ـ وقد كان الرحالة التونسي من دعائم النهضة الثقافية المصرية في عصر محمد علي ـ فضلا عن هذه الرحلة هناك رحلات اخرى دونها تونسيون اخرون ، وليس كتاب خير الدين « اقوم المسالك » سوى واحد منها ، وكذلك كتاب صفوة الاعتبار لمحمد بيرم الخامس المتقدم ذكره ، وكذلك وصف كتبه الجنرال حسين لرحلة الباي محمد الصادق للجزائر عام ١٨٦٠ حيث تقابل مع نابليون الثالث ،والاستطلاعات الباريزية لمحمد السنوسي .

ومن أهم الرحلات في هذا العهد رحلة الشيخ علي الوردائي الى الاندلس وما تضمنته من وصف مفصل للمخطوطات العربية في الاسكوريال .

ومن أدباء هذا العصر او مفكريه على الاصح الشيخ سليمان الحرائري (المنوفي ١٨٧٧) الذي كان اول من دعا الى تعليم المرأة ، وعالج وضعها الاجتماعي في منتصف القرن الماضي ، كما الف في الفلك والعلوم الطبيعية ، وكان يكتب ويؤلف بالعربية والفرنسية، وعاش زهاء الثلاثين سنة الاخيرة من عمره في باريس حيث اصبح استاذا للعربية في معهد اللغات الشرقية ، وترأس تحرير جريدة برجيس باريس مدة ثماني سنوات .

٢ ـ وفي النهاية نذكر استاذهم جميعا الشيخ محمود قبادو (١٨١٢ ـ ١٨٧١) الذي ترك ديوانا مطبوعا يقع في جزئين وعشرات المقالات والقصائد المطولة الاخرى . فالى هذا الرجل يعود الفضل الاول والدور البارز في غرس بذور الاصلاح في عقول الادباء والحكام والعلماء الذي ظهروا في عصر خير الدين وبينهم خير الدين نفسه حيث كان تلميذه في المدرسة الحربية عام ١٨٤٠ .

ونبدأ الآن ببعض النماذج لهذا العصر وأولها قطعة من قصيدة للشاعر قابادو يحث فيها على العدل ، قائلا :

العدل عهد خلافة الانسان ... ومداد ظل الامن والعمران
وتمدن البشر اقتضى ايلافهم ... بتعاضد من دائن ومدان
والعدل كل العدل يقصر دونه ... رأي اللبيب وفطنة اليقظان
والرأي ان لم يصفعن كيد الهوى ... لم تبد فيه حقائق الاعيان

ومن قصيدة اخرى يحث بها على اخذ العلوم والصناعة من اوروبا لكي ننهض ونحمي كياننا . وهي طويلة نكتفي منها بهذه الابيات :

فمن لم يجس خبرا اوربا وملكها ... ولم يتغلغل في المصانع فهمه
فذاك في كن البلاهة داجن ... وفي مضجع العادات يلهيه حلمه
أيجمل يا اهل الحفيظة انهم ... يبزوننا فخرا . لنا كان فخمه
لقد فاتنا في بادىء الرأي صوبنا ... وأشفى لعمري ان يفوّت ختمه
تباعد شوطا مقدم ومقهقر ... اذا لم يحن منه التفات يزمه
لعمري ليس الميت من أودع الثرى ... ولكن مطيق للفنى بان عدمه
لقد قتلوا دنيا الحياتين خبرة ... فمن لم يساهمهم فقد طاش سهمه

ومن شعر محمد بيرم او قل من نظمه المعبر عن نزعته الاصلاحية وغيرته الدينية واخلاصه الكبير لامته وخلافته الاسلامية ، هذا النداء الذي خاطب به المسلمين في عصره ، عام ١٨٧٦ مستنكرا ما هم عليه من تقاعس عن الاخذ باسباب الحضارة والصناعة والمناعة والقوة:

يا امة الاسلام صونوا عزكم ... يتعاضد وتمدن وتنافس
يا امة الاسلام أحيوا ذكركم ... بتآلف وتوادد وتآنس
يا امة الاسلام نموّا صيتكم ... بمعارف وصنائع ومجالس
يا امة الاسلام حوطوا امركم ... بتشاور وتدبر وحوارس
يا امة الاسلام عوا واستيقظوا ... ان الهلاك مسارع للناعس
يا امة الاسلام زيدوا ثروة ... بتعاون ومصانع ومغارس
يا امة الاسلام شيدوا مجدكم ... بتناصر وتناصح وتجانس

ويقول الشيخ محمد الاصرم المتوفي ١٨٦٠ ، ناصحا الباي احمد الاول بالتزام العدل :

العدل اساس للدوام مصيره ... والظلم بنيان بغير أساس
والنفس تابى ان تضام جبلة ... فاكتل لها ما كلته للناس
والبيت لا يرسي بغير عماده ... فاجمع اذا أوتاده بسياس

اما الشيخ محمد الطاهر بن عاشور الجد ، المتوفي عام ١٨٦٨ ، فله قصيدة على طريقة القدماء في الفخر ، منها هذه الابيات :

دعتني الى العلياء همة راغب ... يرى الحزم في الآمال اول واجب
ويخشى مذلات التواني مبادرا ... الى نيل عز فوق هام الشناخب
وما العز الا في اكتساب مآثر ... وما الذل الا في الاماني الكواذب

ومن نثر هذا العصر الذي يمثله المؤرخ احمد ابن أبي الضياف هذه الكلمة الموجزة التي قالها تحية للعلم التونسي حين اتخذ لاول مرة بدلا من العلم العثماني ، ورفعته العساكر عام ١٨٤٠ بمحضر الباي والوزراء وأمراء الالوية وأعيان البلاد ، ولعلها اول نص قيل تحية للعلم في الادب العربي الحديث ، قال ابن ابي الضياف :

« الحمد لله الذي جعل للراية شأنا . وألف بين قلوبنا فأصبحنا بنعمته اخوانا . وعلى حماية وطننا وطاعة أميرنا أعوانا . نفزع لذلك شيوخا وكهولا وشبانا .

ايها الوزراء والامراء، واعيان الكبراء. وحملة السيوف، ورؤساء الصفوف: ان اللواء عماد معلق به الهمة والعرض ، وقدر محبته العشيرة والارض، فلذلك كانت نفرتنا عليه واحدة ، وقلوبنا على اعزازه متعاضدة ، اذ هو مظهر فخرنا وبلادنا تربة آبائنا ومنبت اولادنا ، محوطة بصدورنا من مضرة اضدادنا ، ونفوس الاحرار تموت في رعي الجوار ، احرى في الدفاع عن الوطن والدار ، والاعتماد على الله شعارنا ونعم الشعار».

وواضح من هذه النصوص ، نثرا وشعرا ، ان اصحابها لم يتخلصوا من رواسب السجع القديمة ، وقوالب العروض المألوفة ولكن أفكارها جديدة ، ولغتها نقية ، ومعانيها واضحة بصورة عامة .

المرحلة الثانية

اما المرحلة الثانية التي بدأت بالاحتلال فانها تعتبر امتدادا لهذه المرحلة وتمهيدا للمرحلة الثالثة ، ففيها من خصائص الاولى ، حفاظها على القديم ، لا سيما في قوالب الشعر وتقاليده ، وفيها ـ مع ذلك ارهاصات للجيل الموالي ، خاصة في النثر .

ومن هذه الارهاصات ، محاولة بعضهم كتابة القصة ، كما فعل الاديب صالح سويسي ، او الخروج بالشعر الى اوزان الموشحات في مواضيع عصرية ، كما فعل الشيخ محمد النخلي والشيخ محمد الخضر حسين . الا ان هذا لم يخلق القصة ولا التجديد في الشعر.

ومع ذلك فقد حدث تطور في النثر ، كنتيجة منطقية لكثرة الصحف وتنوعها ، فبعد ان كانت جريدة « الرائد التونسي » هي الصحيفة الوحيدة لمدة ربع قرن ، ظهرت جريدة الحاضرة عام ١٨٨٨ والزهرة ١٨٨٩ والحقيقة ١٩٠٧ وهي اول جريدة يومية ، وكانت الجرائد السابقة اسبوعية .

ثم ظهرت المجلات لاول مرة ، وكان اولها مجلة السعادة العظمى، عام ١٩٠٤ ، ثم مجلة تحقيق الامل عام ١٩٠٥ ، ثم مجلة خير الدين سنة ١٩٠٦ ، وظهرت الصحف الفكاهية الانتقادية . كذلك العلمية الرصينة ، وقد نتج عن كثرة الصحف وتنوعها ظهور المقالة الادبية والسياسية والاجتماعية ، كما ظهر فن جديد هو المحاضرات التي لم تكن معروفة من قبل ، والتي اطلقوا عليها اسم المسامرات حتى عهد قريب . وكان الشيخ محمد الخضر حسين المولود ١٨٧٦ والمتوفي ١٩٥٨ اول من ألقى محاضرة عمومية بروح وطنية وكان موضوعها دالا عن ظروفها واتجاه صاحبها الاسلامي والوطني معا : فقد كانت تحت عنوان « الحرية في الاسلام » . ورغم ان النشاط الوطني كان في بداية عهده ، فان العاملين فيه كانوا كثيرين ، وكانوا يعبرون عن افكارهم وارآهم بخطبهم ومقالاتهم ومحاضراتهم ... ومن ابرز الكتاب الصحفيين في هذا العهد علي بوشوشة ، ومحمد الخضر حسين ، ومحمد الجعائبي والهاشمي المكي ، والبشير الفورتي .

اما الكتاب والخطباء السياسيون فابرزهم علي باش حانبة (ت ١٩١٨) وعبدالعزيز الثعالبي (ت١٩٤٤) الذي يعرفه كثير من رجالات الشرق وادباء العراق ، بوجه خاص حيث كان استاذا للفلسفة والتشريع الاسلامي في جامعة آل البيت ببغداد وقد حياه الرصافي بقصيدة بديعة ، مطلعها :

اتونس ان في بغداد قوما ... تشرف قلوبهم لك بالوداد
ويجمعهم وإياك انتساب ... الى من خص منطقهم بضاد
ودين اوضحت للناس قبلا ... نواصع آية سبل الرشاد
فنحن على الحقيقة اهل قربى ... وان قضت السياسة بالبعاد

اما الشعر ، فقد واصل رسالته الاولى من الدعوة للاصلاح والنهوض بالمجتمع والحث على التعليم والتقدم الاقتصادي وعالج موضوعات جديدة اوحتها له ظروفه الجديدة ، من ذلك دعوته الى احياء اللغة العربية وتطوير طرق تعليمها في الزيتونة كما نادى بذلك الشيخ

الخضر حسين ، واهتم صالح سويسي (المتوفي ١٩٤١) بالجوانب الاخلاقية والدينية ، ودعا الى التمسك بتعاليم الاسلام وندد بتفكك المسلمين وتفسخهم وانحلال عرى الوحدة والتضامن بينهم .

وقد شاركه في هذه العواطف جميع معاصريه من الادباء ، شعراء كانوا ام كتابا ، ذلك ان النزعة الاسلامية كانت هي الغالبة على جميعهم . لهذا كانت الصحافة تولي عناية خاصة لاخبار الدولة العثمانية ، كما اظهر الشعراء ميولا صريحة نحو عاصمة الخلافة ، وتعاطفوا معها في جميع احداثها ، لا سيما مع الحرب الطرابلسية التي هزت مشاعر الجميع ، وبذلوا لها بسخاء .

ويمكن القول بان اساليب الشعر بقيت كما هي ، دون اي تغيير رغم تعدد اغراضه ، ودخوله معمعة الحياة الاجتماعية والسياسية . ثم جاءت الحرب العالمية الاولى ، وكانت البلاد قد فرضت عليها حالة الحصار ، وعطلت فيها الاحزاب والصحف الوطنية منذ عام ١٩١٢ ، فاستسلم الجميع للركود . حتى اذا انتهت الحرب ، وخرجت منها الدولة العثمانية مهزومة محطمة ، وكان كثيرون ينتظرون انتصارها، خابت الامال في اي نصر او انفراج يأتي من الخارج واصبح متحتما الاعتماد على النفس .

المرحلة الثالثة

وكان من نتيجة ذلك ان ظهرت النزعة الوطنية التي تتغنى بتونس وحدها وتنادي بتحريرها واستقلالها دون اي ارتباط عاطفي مع دولة اخرى . لكن مشاعر التضامن مع الشعوب العربية بالخصوص ظلت حية واضحة يتغنى بها الشعراء ، ويرددها الكتاب ، لا سيما قضية فلسطين التي اخذت مكان الصدارة من القضايا والموضوعات العربية ، وحل الاهتمام بها محل الاهتمام السابق بالخلافة ومشاكلها المتعددة .

وقد تميزت هذه المرحلة الثالثة بتطورات خطيرة في الادب العربي بتونس . فقد ازداد صلة بالاداب العربية الواردة من المشرق ومن المهاجر الامريكية واصبح في امكان عدد متزايد من الادباء التونسيين ان ينهلوا مباشرة من الثقافة الغربية بعد ان انتشرت الفرنسية بينهم بواسطة الصادقية والمدارس الفرنسية . وكثر احتكاكهم بالجاليات الاوربية التي تجاوز عددها ربع مليون عند انتهاء الحرب الثانية كما اعيدت حرية الاحزاب والصحافة فانطلقت الاقلام تصول وتجول ، وقد نضج فكرها ، واشتد عودها .

وظهر جيل جديد من الادباء ، امتاز بثقافته الادبية العميقة وبافكاره العصرية ، وبثورته الجارفة على الاستعمار ، والرجعية وعلى التقاليد والجمود .

وما كادت سنة ١٩٣٥ تنتهي حتى كان هناك اكثرمن ثورة في الفكر والشعر والمجتمع قد اعلنها شباب الادباء ، وفي طليعتهم سعيد ابو بكر وابو القاسم الشابي ، والطاهر الحداد ، ومحمد البشروش ، وزين العابدين السنوسي ومحمد العريبي ، وعلي الدوعاجي ، والهادي العبيدي ، وبيرم التونسي ، ومحمد البهلي النيال . فقد نبذ هؤلاء لا افكار القدماء فقط ، ولكن نبذوا ايضا اساليبهم فيالتعبير وطرائقهم في طرح القضايا ومعالجة المواضيع .

ورغم ان جميع هؤلاء ـ تقريبا ـ قد تعلموا في الزيتونه ، الا ان الفضل في ثورتهم يعود الى مواهبهم ومطالعاتهم اكثر من اي مصدر آخر .

والحق ان بداية الادب التونسي الحديث التي تتسم بروح العصر وتجسم حقيقته ، قد كانت على ايدي ادباء الثلاثينيات ويكفي دليلا على ذلك ان القصة التونسية قد ولدت من اقلامهم ، وان العمال الكادحين قد كانت حياتهم ومشاكلهم الشغل الشاغل لهذا الجيل من الادباء ، وان المراة قد بلغ دفاعهم عن حقوقها وحريتها بل وعن مساواتها التامة بالرجل حد الاستشهاد من اجلها .

ولئن حاول مجاراتهم في بعض ما ذهبوا اليه جيل الادباء المخضرمين الذين عاشوا المرحلة السابقة الا انهم لم يبلغوا شاوهمرغم ما كان للمخضرمين من المكانة المرموقة في المجتمع ، والنفوذالادبيفي الحياة الثقافية .

واعظم ما سجله التاريخ لجيل المخضرمين ، امثال محمد الشاذلي خزنه دار ومصطفى آغه وصالح سوليسي ، وبلحسن بن شعبان وحسين الجزيري .... اعظم ما سجله التاريخ لهؤلاء هو وطنيتهم الصادقة ودفاعهم عن المناضلين السياسيين والقضايا الوطنية عامة .

ولكنهم فيما عدا ذلك بقوا سجناء التقاليد ، مجرورين دائما الى الوراء

ونعود الى جماعة الثورة او دعاة الجديد ، فنرى زعيمهم الشابي يقف عام ١٩٢٥ مع العمال في كفاحهم ، ويهتف بانتصار الشعب حين لم تكن هناك بارقة امل واحدة تنبيء بذلك ، فقد زج بقائدهم محمد علي في السجن ، وحكم عليه بعشر سنوات يقضيها في المنفى بعيدا عن ارض الوطن . ومع ذلك نرى الشابي يقول :

ان ذا عصر ظلمة غير اني ... من وراء الظلام شمت صباحه
ضيع الدهر مجد شعبي ولكن ... سترد الحياة يوما وشاحه

وقال قبل ذلك ، مشيرا الى ما لقيه محمد علي من اضطهاد وارهاق وكبت :

كلما قام في البلاد خطيب ... موقظ شعبه يريد صلاحه
اخذوا صوته الالهي بالعسـ ... ـف ، اماتوا صداحه ونواحه
البسوا روحه قميص اضطهاد ... فاتك ، شائك يرد جماحه

ويعبر في نهاية القصيدة نفسها عن روح الصمود والتضحية ، والاصرار على الكفاح حتى النصر او الاستشهاد من اجل الوطن فيقول :

انا يا تونس الجميلة في لج ... الهوى قد سبحت اي سباحه
شرعتي حبك العميق واني ... تذوقت مره وقراحه
لا ابالي وان اريقت دمائي ... فدماء العشاق دوما مباحه

وكان الشابي حين كتب هذه القصيدة في السابعة عشرة من عمره وفي نفس السنة قال قصائد اخرى عن حركة محمد علي ، واعلن عن اتجاهه الاجتماعي في الابيات التالية :

لا انظم الشعر ارجو ... به رضا الامير
بمدحة او رثاء ... تهدى لرب السرير
حسبي اذا قلت شعرا ... ان يرتضيه ضميري

* * *

ما الشعر الا فضاء ... يرف فيه مقالي
فيما يسر بلادي ... وما يسر المعالي
وما يثير شعوري ... من خافقات خيالي

وقد استمر الشابي حتى آخر لحظة من حياته ـ ثابتا على منهاجه ذاك .. فما مدح او تزلف او تكسب بشعره قط .

وفي عام ١٩٢٩ ، اي عندما بلغ الشابي العشرين من عمره ، نشر كتابه « الخيال الشعري عند العرب » بعد ان القاه بشكل محاضرة ، فاحدث ثورة ادبية هائلة ضد جميع المفاهيم والاساليب والمناهجالسائدة في الادب العربي يومئذ فتصدت له الرجعية الادبية وكان نفوها كبيرا ، في الحياة الثقافية والاجتماعية ، ولكن ثورة الشابي وافكاره قد كتب لها الانتصار اخر الامر ، لان الشابي كان يمثل المستقبل المرجو للوطن وللادب العربي معا .

ولان الشابي وجيله كانوا يحملون اعباء التحرر الفكري والاجتماعي الذي هو اساس كل نهضة وكل تقدم .

واليكم هذه العبارة القصيرة التي جعلها الشابي شعارا لكتابه بل لثورته :

« لقد اصبحنا نتطلب حياة قوية مشرقة ، ملؤها العزم والشباب ، ومن يتطلب الحياة فليعبد غده الذي في قلب الحياة ، اما من يعبد امسه وينسى غده فهو من ابناء الموت وانضاء القبور الساخرة . » !!

ويمكننا ان نؤكد ان كتاب الشابي فضلا عن ثورته الادبية كان طليعة ثورة سياسية واجتماعية قادت البلاد في المراحل الموالية من مجتمع القرون الوسطى الى مجتمع العصر الحديث .

وكمثل الشابي في صدق المبادي وثورة الفكر، كان رفاقه الاخرون وخاصة منهم حبيب العمال ونصير المرأة شهيد الفكر الحر المرحوم الطاهر الحداد .

فهذا الاديب المناضل هو الوحيد بين كل ادباء تونس الذي نشا في مجتمع الكادحين ، وانقطع لهم ، وسخر مواهبه ووقته وحياته من اجلهم واذا كنتم تعرفون الكثير عن الشابي ، فان الحداد لا يكاد يعرفه احد ، حتى في موطنه الاصلي ومسقط رأسه .

واذا كان الشابي مهجريا في اسلوبه شعرا ونثرا فان الحداد اجتماعي واقعي في كليهما . وهو في النثر كاتب ممتاز ، اما شعره فعواطفه الحارة ومعانيه الصادقة وموضوعاته الحية تغطى اسلوبه التقليدي واحتذاءه للاقدمين .

والحداد الذي مات صغيرا كالشابي ، وبعده بعام واحد اي في عام ١٩٣٥ وعمره ستة وثلاثون عاما ، يمكن اعتباره مفكرا اجتماعيا من طراز خاص . وعلى حد قول السيد عز الدين بلحاج الذي تعرف اليه شخصيا : فان الحداد ، في تاريخ الفكر العربي بتونس ، يأتي بعد العلامه ابن خلدون مباشرة .

ولا يتسع المجال هنا للحديث عنه باكثر من ذلك ، ولكني اضيف : انه كان القلم الكاتب واللسان الناطق والتاريخ المدون للحركة العمالية التي قادها محمد علي ، فعندما ابعد محمد علي عن البلاد، سجل الحداد اعماله كلها مضافا اليها محاكمته ورفاقه ، مع صورة حية عن مجتمع العمال التونسيين ومشاكلهم ، مقرونة بافكار الحداد الاقتصادية والاجتماعية الاشتراكية في كتابه العظيم « العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية » الذي نشره عام ١٩٢٧ فصادرته سلطات الاستعمار فور صدوره . وعندها التفت الى النصف الاخر المشلول من الشعب بعد العمال ، اعني الى المرأة ، فتعمق اوضاعها الاجتماعية والتشريعية فكانت حصيلة ذلك كتابا كاملا دعاه باسم « امراتنا في الشريعة والمجتمع » وقد تفوق فيه على جميع دعاة تحرير المرأة في العالم العربي من قاسم امين ونظيرة زين الدين الى الرصافي والزهاوي وغيرهما . ويكفي ان نشير هنا الى انه قد قسم كتابه الى قسمين قسم تشريعي واخر اجتماعي ، فعالج في الاول مكانة المرأة في الشريعة الاسلامية . وخلاصة آرائه في هذا القسم التشريعي ان الاسلام قد حرر المرأة ورفع منزلتها ، وان الحقوق التي اعطاها الاسلام للمرأة انما كان يريدان يمهد بها الى المساواة التامة التي هي غاية مقصودة ضمنا في التشريع الاسلامي ولكن الرجال لم يعطوا ذلك التطور فقط بل ارجعوا المرأة الى الوراء ، وحرموها من ممارسة كثير من الحقوق التي خولتها لها الشريعة الاسلامية .

اما القسم الاجتماعي فهو وثيقة تاريخية هامة عن اوضاع المرأة العربية في عام ١٩٣٠ وهو العام الذي صدر فيه كتابه العظيم .

اما نزعته الوطنية وآراؤه الحرة في الاسلام والتطور والحضارة العصرية ، فنكتفي بشواهد قليلة من شعره عنها . يقول بعنوان ايها الشعب :

ايها الشعب . قم للمجد مقتحما ... حرب الحياة ، فلا عز بلا نصب
هذا زمان يموت الجاهلون به ... والخانعون بلا حد لمغتصب
قوم .. قد انكرونا في كرامتنا ... وجاهرونا بنجوى الامس في الحجب
قالوا خليط بلا جنس مواطنهم ... ارض محللة مبتورة النسب
قالوا : حمايتنا اضحت مفوقة ... لديهم عن هدى الاسلام.. واعجبي!
لقد اهانوا ، وليس المسلمين فقط ... بل الحقيقة والتاريخ بالكذب

الى ان يقول :

ياشعب تونس، ياشعب المجادة لو ... وعيت ماضيك المسطور لم تهب
خلقت للموت في حفظ الكرامة لا ... للجبن ، تلبسه عارا مع الحقب

وفي قصيدة اخرى يقول :

لا تصدق يا شعب ان رقى الغر ... ب كفير يبدد المسلمينا
امة الغرب لا تزال لعيسى ... وبموسى وبهوذا اليابان في المؤمنينا
وبموسى اليهود زادوا ارتباطا ... بعد نيل العلى مع السابقينا
كلهم في تمدن العصر فازوا ... لم يصبهم في الدين ما يعترينا
افهل كان دين احمد يخشى ... دون كل الاديان في العالمينا

اما سعيد ابو بكر المتوفي ١٩٤٨ فيمكن اعتباره من مدرسة الحداد في دفاعه عن المرأة ، وتصويره لمآسي حياتها في المجتمع ، واهتمامه بالمحرومين والتعساء من اخوانه المواطنين ، مع محاولاته ان يسير على منوال المدرسة المهجرية في قوالبه الشعرية ، واعتماده بالخصوص على اوزان الموشحات للتعبير عن اغراضه الاجتماعية ، الا انه كان ضعيفا في ثقافته الادبية والشعرية بوجه خاص ، فجاء شعره ضعيف النسج متوسط المباني وديوانه « السعيديات » ، ثم مجموعته « الزهرات » وثيقتان تاريخيتان للحياة الاجتماعية والسياسية في عصره اكثر منهما اعمالا ادبية خالدة .

وفي ميدان القصة يعتبر الدوعاجي المتوفي عام ١٩٤٩ رائدها الاكبر ومؤسسها الحقيقي ، لا تكنيكيا وموضوعيا فحسب بل فنيا وابداعيا وتاريخيا .

اما زين العابدين السنوسي الذي ولد في نفس العام الذي مات فيه والده محمد السنوسي المتقدم ذكره ، فانه كان كاتبا رائدا في كل ما عالجه من مواضيع ، وانجزه من اعمال ثقافية وصحفية كبيرة . ونحن وكل الدارسين لادب هذه المرحلة مدينون له بما تركه حين مات عام ١٩٦٤ من آثار جليلة اهمها مجلته العالم الادبي وكتابه عن الادب التونسي في القرن الرابع عشر الهجري ومنشوراته الكثيرة الاخرى . وهو اول من جعل مجلته واسطة فكرية بين المشرق والمغرب ، كما كانت نافذة مفتوحة على الثقافات العالمية .

ولا نستطيع ان نترك الحديث عن ادباء بين الحربين دون ان نقول كلمة عن شاعر آخر من رعيل الثائرين المجددين ، وان اختلف عنهم في منزعه الاجتماعي وطريقته الشعرية .. لكنه يمثل اتجاها جديدا لا على الاجيال السابقة فقط بل والاجيال الموالية كذلك .

وهذا الشاعر هو محمد العربي الجزائري الاصل والمولد الذي ولد عام ١٩١٥ ومات منتحرا في باريس ليلة عيد الميلاد عام ١٩٤٦ وهو من طراز بودلير والياس ابو شبكة ومن المتاثرين بهما مباشرة خاصة ببودلير ، حيث ترجم بعض اشعاره وحيث عاش حياة بوهيمية متحررة مثله .

يقول من قصيدة له عنوانها « الملال » :

ملت العقل والدينا ... فهات الكاس واسقينا
وغن" فالغنا سلوى ... وبعث للمنى فينا
وهيا نرفع الكاس ... على نخب المصلينا
على نخب التقي فيهم ... على نخب الهوى فينا

* * *

شربنا الخمر للسلوى ... فما للخمر تشجينا
وما للعود قد اضحى ... لصحرا الحزن يحدونا

فلا الالحان تنسينا ولا الخمر تسلينا

الى ان يقول

مللنا جسمك الناري مللنا صدرك الناهد
مللنا لحمك الوردي مللنا حبنا الفاسد

وينهي قصيدته صارخا هكذا :

دعيني اعتزل نفسي امزق ستر احساسي
فاقطف لعنة الرب واحصد لعنة الناس
واضحك اذ ارى نحسي يعانق شامخ اليأس

ويقول في احد مقطوعاته

عيناك ملؤهما ندم عيناك ملؤهما نغم
نغم الشرهة والهوى ندم الطهارة والالم
عيناك خدرتا همو مي ، فبت ليلي بدون هم
عيناك بحر من رؤى عيناك قسوة منتقم

وله قصيدة عن صديقته او عشيقته المومس ، قدمها اليها باهداء هذا نصه « اليك يا ابنة الاثم ارفع هاته الصلاة القصيرة » . ثم استهلها قائلا :

صدقيني .. هل انت الا ملاك نزل الارض رحمة بالبريه
عانقيني .. كيما يزول شعوري بوجودي في ذي الحياة الشقية
زوديني بقبلة منك اخرى فهي ذكرى حياتنا القدسيه
انت .. ما انت غير رمز حنان انت نور الاله في ذي البريه
انت ضحيت نفسك اليوم كما تسعدي الناس . ثم انت شقيه

ومن هذه المقتطفات من شعر العربي يتبين انه لو اضاف الى موهبته الشعرية ، وحساسيته المفرطة ثقافة ادبية عميقة وصناعة عروضية متقنة ، لكان في مكانته وشاعريته من مستوى الشابي مع احتفاظ كل منهما بطابعه الخاص ومميزاته الادبية والاجتماعية

المرحلة الرابعة

وبوفاة محمد العربي عام ١٩٤٦ نكون قد طوينا المرحلة الثالثة، مرحلة بين الحربين العالميتين ، ووصلنا الى المرحلة الرابعة ، التي اطلقنا عليها مرحلة الحصاد الوطني ومعارك الاستقلال ، ذلك ان البذور التي زرعها جيل المرحلتين الاولى والثانية ، والنضال الذي قاده زعماء وابطال المراحل السابقة ، قد بدأ يعطي مردوده في نفوس المواطنين وفي حياتهم من تطور ويقظة ، ومن انتفاضات اجتماعية وثقافية ووطنية حتى اذا انتهت الحرب العالمية الثانية ، وقدكانت تونسمن ميادينها ، وعانت من ويلاتها وشرورها ما هو فوق طاقتها ، عادت البلاد ترزح في كلاكل الاستعمار من جديد ، وقد شتت الاعداء شمل زعمائها وخلعوا عن العرش اول واخر ملك من البايات ، اخلص لبلاده في عهد الحماية والحكم الاجنبي . وساد القمع وتضاعف النضال حتى كانت الثورة المسلحة وكان الاستقلال عام ١٩٥٦ ثم الجلاء عام ١٩٦٣ ، وكان الادب خلال هذه المرحلة القصيرة التي لا تتجاوز عشر سنوات في حدها الادنى وخمسة عشر عاما في حدها الاعلى .. كان الادب ، ادب نضال وجهاد وتحرر ودفاع عن حقوق الشعب وسيادة البلاد .

ولئن لم يكن انتاج هذه المرحلة من الوفرة والتنوع مثلما هو الشان في المرحلة السابقة ، الا انه كان يمتاز بكثرة الادباء المساهمين فيه وبينهم عدد كبير من اجيال المرحلتين الثانية والثالثة امثال حسين الجزيري والشاذلي خزنه دار ، وزين العابدين السنوسي ، وابي الحسن ابن شعبان ، ومحمد سعيد الخلصي ، والهادي المدني والهادي العبيدي ومحمد المرزوقيواحمد خيرالدين والعربيالكباديوسعيد ابوبكر ومصطفى خريف والصادق مازبغ . وهناك اسماء اخرى حديثة لمعت في عالم الادب وبينهم جيل من الشباب لم تتح له الفرصة الكافية ليظهر مواهبه الكامنة كلها ، وليعطي مرحلته التاريخية طابعه ومميزاته. ذلك ان ظروف الحرب قد استمرت اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا من عام ١٩٤٥ حتى اندلاع الثورة في عام ١٩٥٢ وهكذا كان وقته قصيرا ، ومساهمته محدودة ، ومع ذلك فاننا نجد الوانا جديدة من الانتاج الادبي وتطورا عميقا في بعض انواعه الادبية ، واتصالا وثيقا بالثقافات الاجنبية خاصة الفرنسية ، تبعا لتطور البلاد الثقافي،ولظهورجيلجديد من الادباء المزدوجي اللغة امثال محمود المسعدي ، وعبدالوهاب بكير، ومحسن بين حميدة واحمداللغماني،وتوفيق بوغديرفضلاعنجيلالزيتونة من شباب الادباء امثال محمد العروسي المطوي واحمد المختار الوزير، العربي ، ومحمد المرزوقي .

اما من حيث مظاهر الانتاج فان مجلة المباحث التي صدرت شهرية بين اعوام ٤٤ و ١٩٤٨ تعتبر المرآة الاولى لادب هذه المرحلة ، وبعدها تاتي مجلات الثريا ، والاسبوع ، والصريح ، والندوة ، فضلا عن الاذاعة التي اصبح لها دور رئيسي منذ تاسيسها عام ١٩٣٨ في ابراز المواهب الجديدة ، وفي تنشيط الحياة الادبية .

ولعل اهم ما تميز به نثر هذه المرحلة هو الخطابة السياسية والاجتماعية ثم ادب المقالة بانواعها ، والقصة بالوانها لا سيما القصيرة وكذلك المسرحيات ، ثم الترجمة والنقل من الادب العالمي الى اللغة العربية .

اما الشعر فقد حافظ على اوضاعه السابقة ، لدى شعراء الجيل السابق ، وكان بينهم بالخصوص شعراء يحترفون المديح ، واشكال الشعر القديمة .

اما جيل الشباب فانه كان الصق بالمجتمع وادق تعبيرا وتصويرا لحياة الشعب وآلامه وامانيه .

وعلى يد هذا الشباب ولد الشعر الحر في نفس الوقت ـ تقريبا ـ الذي تمت ولادته في العراق ، ولست ازعم لهم السبق ، ولكن المعروف ان نماذج كثيرة من الشعر المتحرر من قواعد العامود ، بل وحتى من قواعد العروض ، قد عرفت بين ادباء الثلاثينيات ، لا سيما عند الشابي والبشروش ومحمد العربي ومصطفى خريف . اما جيل هذه المرحلة ، فان محمد العروسي المطوي ، وابو القاسم محمد كرو ، ومحمد العربي صمادح واخوه منور ، ثم محسن بن حميده ، وفريد غازي واحمد اللغماني كانوا ـ على تفاوت شاعريتهم ـ طليعة هذا الشعر ، واسوق لكم نموذجا واحدا من قصيدة كتبها العروسي المطوى بعنوان : « عيد ابن السجين » :

ابى ...
هل تعود
ويبزغ في البيت نجم السعود ؟
فقد طال منا انتظار الصباح
وعود البشير بجنى الكفاح
وعهد الخلاص
فحتام نبقى ـ وانت البعيد ـ
قلوب حيارى ، وشمل بديد
ابي .
هلّ عيد بكل مكان
وغرّد في الكون طير الحنان
وعم السرور
سوى اهل بيتك لا يمرحون ؟

اما الشاعر محمد العربي صمادح ، فيتحدث عن الرحيل قائلا :
عبير الورد اشذاه

اريد المسير
ولكن ... لمن ؟
فجر الهجير
بكف الزمن
كلفح السعير

* *

وافبل يحمل في راحتيه
ازاهير ضاحكة في يديه
يغازلها السحر من مقلتيه
فسار ، ...
وسرت ..
ولكن لمن ؟..
فهل سيبوح بذاك الزمن ؟

اما الشاعر محمد الشاذلي خزنه دار ، المتوفي ١٩٥٤ فيرثي سبعة من الشهداء ضحايا الاستعمار بقصيدة ، نقتطف منها الابيات التالية :

ابكي لفرقتهم وهم احياء — سبعا بكتهم تونس الخضراء
ما كان في كفي الحسام وانما — من تحت فكي حية رقطاء
ارسلتها حصبا على مقتالهم — فتريه ماذا يفعل الشعراء
ساهز من قومي الذين بلوتهم — ما ترتضيه الهمة القعساء
عربية الاحساس في نخواتها — لله تلك النخوة العربياء

ويتحدث الشاعر العاطفي محمود بورقيبة المتوفي ١٩٥٦ عن غراميات صباه فيقول من قصيدة عنوانها « لصوصية الحب » :

دائما اذكر ايام صبانا — حين عاطانا الهوى حتى انتشينا
حيث فوق العشب دشنا منانا — وعلى النخب شربنا وارتوينا

حيث كاللصين كنا نلتقي — نسرق الحب وقد نام الرقيب
وبغطينا جناح الغسق — فاذا الدنيا حبيب وحبيب

واذا الاشجار تولينا الحنان — فتغطينا باوراق الغصون
فاذا العالم سحر وافتنان — واذا الكون التذاذ وجنون

هكذا كنا لصوصا في الغرام — نتوارى في سكون واحتراس
نتلافى تحت استار الظلام — حيث يحلو في هوانا الاختلاس

ومن هذا القبيل قوله

قالوا لها يبغون اغضابها — مضناك قد خان عهود الوداد
في كل يوم عنده صبوة — وكل حين زينب او سعاد
قالت : دعوه ، انه شاعر — من شانه التهيام في كل واد

وللشاعر الوجداني الرقيق احمد المختار الوزير ، قصيدة بعنوان « الله » يقول فيها :

الا لا تسالي عني — وعن شعري وذكراه
فما شعري سوى قلبي — وذاك الحب ملهاه
غريرا كنت لا ادري — ضليلا كنت ، ويلاه !!
صباحي الثملة الظمأى — .. وليلي السكر نشواه
اضعت العمر لا ادري — مواضيه واخراه
.. افقت اليوم من سكري — ومن غيّي وبلواه
ولكني على صحوي — شديد الشوق اذكاه
عذيري في لظى شوقي — جمال بت ارعاه
جمال دونه سحرا — ضياء الفجر اسناه
جمال دونه عطرا — عبير الورد اشذاه
جمال دونه طهرا — صفاء الماء انقاه
جمال الله يا لهفي — جلا في القلب معناه

* * *

ويقول الشاعر احمد اللغماني ـ وهو من ابناء واحات النخيل بجنوب تونس الشرقي ـ يقول وفد رأى باحدى قرى ساحل الشمال التونسي، نخلتين وحيدتين ترتعشان في يوم شتاء واعصار :

جذعان قاما هنا في مسربي — قذفتهما الواحات مغتربان
جذعان بل روحان من بلدي هنا — في هذه الاصقاع معتنقان
روحان في هذا العراء تغربا — وبهذه الاهوال يشتجران
القاكما ـ يا صاحبي ـ فالتقي — بالذكريات منيرة ادجاني
القاكما ـ يا صاحبي ـ بمهجة — ميالة لكما وقلب حان
نحن الثلاثة ههنا في غربة — قذفت بنا الواحات للنسيان
نزحت بنا الاقدار عن جناتنا — مهد النخيل ومسرح الغزلان

اما الشاعر المرحوم مصطفى خريف المتوفي ١٩٦٧ فيتغنى بامجادنا، ويهتف بوحدتنا في قصيدة طويلة ، اكتفي بمقطع منها وهو خاتمة المطاف :

ايهذا العيد ، يا رمز الوفا — يا سراجا في الدجى يا كوكبا
يا رجا الامال في وحدتنا — نحن ان اظللتنا لن نغلبا
يا نهارا فاخرت ساعاته — بجليل الامر ، مرحى ، مرحبا
انت فتح ، انت نصر ، انت من — دوحة الرضوان غصن شربا

عدلنا يا عيد عودا احمدا — فزت يا عيد ، ونلت الاربا
.. ايهذا العيد بوركت فخذ — قالة من شعب خضراء الربى
خذ من الريف ومن فاس وخذ — من تلمسان ، وعم المغربا
خذ الى المشرق ايات الولا — خذ الى العرب سلاما طيبا

ابو القاسم محمد كرو

مصادر البحث :

١ ـ الادب التونسي في القرن الرابع عشر : لزين العابدين السنوسي
٢ ـ الحركة الادبية والفكرية في تونس لمحمد الفاضل بن عاشور
٣ ـ هذه تونس : للدكتور حبيب تامر
٤ ـ تاريخ ابن ابي الضياف
٥ ـ بيرم الخماس ، للزين السنوسي
٦ ـ محمود قابادو ، للزين السنوسي
٧ ـ مجموعة الدواوين المطبوعة لكثير من الشعراء التونسيين
٨ ـ عدد كبير من المجلات والصحف التونسية
٩ ـ وثائق خطية في مكتبتي
١٠ ـ مجموعة كتبي المطبوعة عن الادباء التونسيين ،مثل الحداد، الشابي ، كرباكه ..

الكعكة المسمومة ...

لا تبحث ! لا تبحث !
عمّاذا تبحث ؟
قل لي ... تكلم
هل تبحث عنها :
عن علة شعب
عن غفـوه
عن ضلعة آدم
عن حوا
عن سر لم يعرف كتما
عن « قتل » أول
روّى أرضنا بالاثم
بالحب « الآثم » بالاثم
بالقول « الكاذب » بالاثم
بالفعل « الخائن » بالاثم
بالشمل « يبدّد » بالاثم
بالعرض « يمزّق » بالاثم
بالخيبـة
يا للخيبة المرّة
بالنحس
بالدرهم الزائف ، بالفلس
بـ « الشهم » الغارق في « البخس »
بالزيت القابع في الارض
مذ كان آدم في الجنه
كم آدم ينعم في « الجنه » ؟
كم حوا ؟
تسبيه ، تحرق انفاسه
في عهد النشوة والسطله
و « الهم » يهدم احساسه
يغتال الحاضر بالامس
يغتال اليوم وما بعده
بالنهد الكاعب ، والخصر
والراس « الخامر » في الخمرة
يختال ، يرغب في قبله
من خد الهيفا « الشختوره »
« من خدك أنت يا « ليلى »
من خدك أنت يا « نُوره »
من أجلك بعت الحرية
ووهبت « النصر » الى طفمه
من أجلك أنت يا « سوسن »
ضيّعت آدم والجنه
وعبدت « الثعلب » و « الهدهد »
وقبضت الريح ، ولا منّه
وسألت الكون ، ولا رد
فقضيت العمر في « غصه »
وقضيت العمر في البحث
عن « ضلعة آدم » هل كانت ..
هل كانت علة اغفائي
هل كانت مهمه تهيامي
في البحث الباحث عن بحثي

لا تبحث
لا تبحث عنها ـ يا أنت ـ
لا تبحث عنها في الصحرا
لا تبحث عنها في « النهر »
لا تبحث عنها في الغابه
لا تبحث عنها في الواحه
في أرض القهوة والسكر ،
في ظل النخلة والسدره ،
في أرض تنبت زيتونه .
لا تجهد نفسك في البحث
الا تدري !
الا تفقه !
الا تسمع !
الا تبحث عنها في ذاتك
عن كعكة « حلوى » مسمومه
عن بسمة « لص » مفتال
عن سارق شعبك أمواله
في ذاتك أنت ، يا أرعن ،
يا ارعن ، حدّق ، ولا تبكي
فبكاء الارعن أضحوكه
ولا تفخر ،
فان الفخر أمثوله
ولا تعجب ،
فان العجب تدليل
على عجزك
على « عقم » بأرحامك
على « جَدب » بأحلامك
على عهد تقضيه
تنوح الدهر تشكوه ،
ففجّر ذاتك « الدنيا »
ومزّق ستر اوهامك
وهدّم معقلا اضحى
سرابا ، بلقعا ، حالك .
ولا تخجل ..
ولا تبخل
بتجديد لأوصالك
لكي تستطيع ان تنأى
عن « التحريف » و« الزيف »
وعهد فارغ ، اجوف ،
لكي تستطيع أن « تحيا » .
حياة ملؤها « ذاتك » .

محمد العروسي المطوي

حتى القبور يا « سين » ... ترفض الاصغاء !

قصة بقلم عروسية النالوتي

مازالت بعض الشعيرات المنفوشة تنتحب على صلعتك الكبيرة السافرة ... وبعض اهداب تتعثر متسكعة على ضفاف عينيك المكلومتين وعلى لسانك ـ أتذكر ـ شجيرات العيون الحلزونية تمنع انزلاق الكلمة الهدروجينية ..

كان العالم الكبير يخافك يا « سين » .

يخاف صلعتك ـ لو تعلم ـ ليتك كنت تعلم .

يخاف وريقاتك فيبدي لها الاحتقار .

حتى أصابعك المتورمة كباذنجانة مترهلة كانت تفزعهم فيحسبونها قنبلة من مخلفات الحرب الكونية الثانية... أو منشآت الحرب المبيدة الآتيـــة .

سامحك الله كم كنت تخيفهم !

* * *

سرت في الزقاق الضيق الوسخ ... تحسست خطواتك بيـــن اكوام النفايات المعروضة في سخاء... الروائح ياسين مشتبه بسمعتها. وبهو خياشيمك جسم كل شيء ...

الروائح ياسين تبحث كاسيادها عن مشروع فكرة جريئة تستحـــم داخل وعاء التحميض الجائم في ركن ما من أركان الدماغ الكبير .

حملت كل مرة أوراق خطابك الكبير في محفظتك المصونـــة ، فتساءلت كثيرا : كيف وجدتك الافكار فوجدتها ، كيف قبضت عليـك فقبضت عليها وقيدتها بالحبر الاسود ....

لا تعرف كيف ياسين .

كل ما تذكره ... خطوط سوداء .. انيقة على ورق عادي أبيض. وتذكر عبر الضجيج انك ابتسمت عندما القيت خطابك من فوق كرسي مسلول ، يسعل عند كل حركة منك وسط الغرفة الباردة الجرداء .

كنت ترى ياسين آذانا كبيرة ـ حاول ان تتذكر ـ كانت اذانـــا عريضة كآذان الفيلة .. تتزاحم في غرفتك ... تتسلق الجدران ... تحبو على الارض .. تتزحلق على السقف .. تريد الاقتراب مـــــن منصتك .

وسائل النصر ياسين ، شراب « الماريجوانا » ، يمتزج بزبـــــد ريقك اللاهث وراء الكلمات .

الغرفة مركبة آذان ... والهواء يكاد ينتحر .

لم تتم خطابك ياسين كل مرة ... ارحت جسد الكرسي المبحوح ... قهقه الكرسي ياسين ... حتى اشياؤك تسخر ... لم يعد يثيرك الضحك ...

اردت ان تحمل الآذان الكبيرة في حقيبتك وتزرعها في قاعـــة المحاضرات الواسعة ... لا تخف عنك رغبتك ياسين ... ليس عيبا ان تحلم بخاتم « حبيك لبيك » داخل غرفتك .

لكن الرؤيا تزول حين تلامس رجلاك « جليز » الغرفة البلهاء .

* * *

هي القشعريرة العنيفة تمزق عبر نخاع عظامك ... وتذكر خطبك السابقة في القاعات العريضة الفارغة ... وصوتك ياسين في المصدح مخيفا ... أصداؤه مفزعة تعمر الفراغ ...

أتذكر ياسين الكرسي المقلوبة ؟ ومكنسة يجرها صاحبها هزيلة ؟. لم يفهم من كلامك شيئا ... كان يحسبك تلقي خطبة الجمعة فيـــردد عند اخر كل جملة : « آمين يا رب العالمين » ...

ويقلقك الكناس « ياسين » بدوي كراسيه . ومكنسته ... لـــم تنجح في الحقد عليه ... كنت تحبه ... وتخجل منه ...

ظننته يبكي وقد رفع منديله يمسح العرق عن اهدابه والتزمـــت فاصلا بكائيا مساندة لنواحه الصامت .

خجلت من دموعك ياسين ... القاعة تحولت مأتما حزينا وتجمع وريقاتك الامينة ... تنزل كل مرة من على منصتك .

ـ صوتك يخفيك .

أحسست بنفسي القشعريرة وانت تسير في الزقاق المظلـم... ضممت محفظتك الى صدرك .. عانقتها طويلا .. خفت عليها من أشباح الظلام ، تسرق أفكارك منها .

أسرعت قليلا ... أسرعت افكارك معك .

« في هذه المرة لن يسخروا مني ... لن يتركوني أخطب وحدي. لن ينقلب صوتي الى اجهاش بكائي ... المصدح غراب أسود ... لـــن أنعق بعد اليوم ، لن يشفق الكناس على صلعتي ، لن أقل أمامـــه من على المنصة .. لن تكون لي منصة بعد اليوم ..

سأقول كلمتي في الشوارع .. في المقاهي .. في المقابر ... »

تذكرت ياسين أن الآذان الكبيرة جيوبها كبيرة ... تحت المقاهي ، والجلسة الوثيرة .

واجهات المقاهي تجذبك ... ورائحة القوة « الاكسبريس » تثير شهوتك ، لكنك ياسين لن تجرؤ .... ازرارك مخضرمة ... والنـادل يقفل سترته الانيقة .

تذكرت النادل ياسين ... كنت تحب القهوة وكانت لديك محفظتك ... وأردت بيعها في لحظة ما ... لكنه سخر منك ... قهقة فـــي وجهك : « لو وضعت فيها صلعتك الكبيرة ما قبلتها مقابل برتقالـة معصورة » .

لن تدخل المقاهي ... انت لا تحتمل السخرية ... لكن حياتـك معلقة بشفاهك ... لمن ستقذف كلماتك ؟ ... من يسمعها ...

المارة يمرون ... كل تشده غاياته ... لن يتوقفوا ... وتمنيت ياسين لو كنت ضوءا احمر ... أو حافلة ... أو سيارة اسعاف ...

البرد يهزأ بالآمال ... البرد يجمد أطرافك فتقشعر صلعتـــك اللماعة .. أنت تحب صلعتك ياسين ... مررت عليها منديلك النظيف يدلكها اذا جمدت ... يمسح حمرة خجلها اذا ادمعت مسار جلدتهـا الحساسة .

توقفت ياسين أمام مركز حراس الامن ... الامن مقدس والحارس أميـــن .

لمعت داخل القبة المصونة فكرة : لو ثرثرت قليلا مع هذا الشرطي المنتصب ؟ ....

تذكرت حية الجاحظ المنتصبة في الصحراء ... على كل ، هـــو لن يطردني قبل ان يعرف سبب مجيئي ... حراس الامن لا يطردون...

هم كرماء يمسكون الضيف ...

وتساءلت ياسين : فيما يفكر الشرطي ... لو قاطعت تفكيـــره يثور ويغتصب صلعتي ... تراه يفكر في عشيقته الفيتنامية ؟ ... قهقهت ياسين مثلهم طويلا في الظلام ...

نظر اليك الشرطي .

ـ ماذا تريد ؟ ...

ـ أن أريك ما في محفظتي ...

ـ مسروقات ؟ ...

ـ مسروقات ؟؟ .. هل ترى على وجهي ملامح اللصوص ؟

ـ ولم لا ... ما دمت تحمل حقيبة منتفخة .. مع .. بدلة زرقاء.

ـ أو تلك علامات اللصوص ؟ ..

ـ نعم .. نوع من اللصوص ..

ولكنك لم تكن سارقا ياسين ... اصطدمت صلعتك بالتهمـــة فكادت تتنرفز لولا منديلك .

ابتسمت وعانقت صلعتك ....

قهقه الشرطي في تكاسل :

ـ آه فهمت ... أنت من أولئك الذين . أعانك « باخوسي » على مصابك . وانصفق الباب أمامك .

وجبنت ياسين . لم تقل له انك ... انه ... يشرب بصـــاق « النبلاء » ... ويتغذى من مشاريع وعودهم ... لم تقل له ان الجريمة قد تكون غير القتل العادي ....

لم تستطع قول هذا « ياسين » كنت تخاف « المنتمي » وتخـاف الامن والامانة ونعاس المؤمنين .

واصلت سيرك ... وخطواتك ضبطتها توازي سياج المقبـــرة . توقفت لتنظر المدينة المسلمة ، المستسلمة ، المسالمة ...

فكرت ياسين : لا فرق بين مدن المسلمين ... وتذكرت ان مدينتك رقعة شطرنج كبيرة تموت فيها البيادق دون ان تتحرك ...

وتنهدت ياسين ... تذكرت انك حتى بين القبور ... تذكـرت ان نبلاء جهتك يملخون صناديق الافيون للتعساء دون مقابل والتعساء يدخنونه في القاعات العامة وفي النوادي المفتوحة . وسعلت ياسيـن مرارا من رائحة سجائر الافيون ، وكنت لا تدخن لانك تريد ان تلقـي كلمتك في مكان ما ، وكنت تريد ان تبدد سجائر الدخان الماريجواني .

دخلت المقبرة ياسين ... كان لا بد ان تتكلم ... وكان لا بـد ان يسمعك انسان ... عليك ان تختار بين موتى الافيون وموتى الموت .

همست ياسين داخل ذاتك : لماذا ارتقب الناس والفرص ؟.. لماذا لا اخلقها ... وتذكرت انك لست موسى تشق البحر بعصـــاك ... وتذكرت انك في منطق « النبلاء » نبات طفيلي سام تقتلع صلعته، لتلقى كرة جذابة في ملعب كرة القدم .

افزعتك الصورة ياسين ... وجدت نفسك مرة أخرى بين القبور مساكن شعبية متلاصقة ... مجتمع بلا طوابق ولا سلاليم .

اعتليت « ياسين » كومة من التراب ... أحسست أنك تشرف على العالم ، تقبض عليه بفكرتك ، تخجله باستقامة هامتك ، تتحداه بعروق دمك النابضة .

وتصورت ركب النبلاء يتوقف امامك ... سيسخرون منك .... سيقولون عنك : سخيف ... معتوه ... لا يهم ياسين أنت تدرك انهم يخافون دماغك يرهبون مشاريعك ، ويشترون من أجل ذلك صنـاديق الافيون للتعساء ويفتحون امامك القاعات العريضة الفارغة ...

سيطاردونك ياسين ... لكنك لا تخاف المطاردة .. ليست لـك عشيقة ولا قصر الحمراء ...

نداء التعساء ياسين تسمعه عبر نعاسهم ... لم تفرك سعـــادة نظراتهم التائهة ... لن تخدعك نشوتهم وسط الدخان ...

* * *

انت ياسين في المقبرة ... والوضع شاذ ... وكلمتك ستقولها ...نظرت تجاه القبور ... فتحت محفظتك ... اخرجت منها أوراقك البيضاء المكتوبة ...

ارتجفت قليلا ياسين ... لكن كلماتك أقوى من الخوف ... كان كلامك بلا مقدمة ولا حواشي ...

« ستنتظرون طويلا ... لن تشهدوا فصول المسرحية ... لن يرفـع الستار ستبقون مشدودين الى الركح الفارغ ... لن يبرز الممثلون ... فالممثلون من ورائكم مقنعون يتفرجون في مسرح الدمى المتحركة ... »

ولم تتم كلامك ياسين ككل مرة ... كانت الرائحة الكريهة تلـف لسانك ... تخنق لهاثك ... تعبث بشعيرات خياشيمك .. أحسست انك تنهار ... وجماجم المدينة تتراقص حنوك في دورة مجنونة مضحكة. مسيلة للدموع ..

وكنت تريد استئصال العفونة من التربة السمراء ... ضغطت على اوراقك ، لم تكن قادرا على درء القذارة ... فكرت في حمل رفـش ومعول . وبعض المواد الكيمياوية المبيدة للعفونة قصدت المقبرة ياسين ... بعثت بخياشيمك ككلاب البوليس تبحث عن مكمن المؤامرة .

بدأت الحفر في القبر المشبوه فيه ... الرائحة غير محتملة ... وضعت منديلا على أنفك ... كنت مؤمنا بحفرياتك ... وصلعتـــك تبارك أعمال الحفر ياسين ....

حفرت طويلا ... والانهاك لا يهزم ... جلست على كومة التراب ... كنت تجرم ... اجراءك بطولة .. ابتسمت .. أدخلت يديك في جيوبك ... في فمك احساس يقضم التراب يسحق ارادة الكـــلام لديك .

الحفر صعب ياسين ... ودرء النتونة أصعب ...

الديدان تزحف رخوة كالارادة المشلولة ... تلمع في تثنيها تحت اشعة النجوم الباهتة ... تتناسل في زحفها الدائب ... مشهد فظيع للتناسل المريض .

الخنافس تتسارع ... تتصارع ... تنصرع مذعورة ... عـلى رأسها عناقيد المحاجم اللزجة ... الدوائر الحلزونية كلعنة الصدور المسلولة .

عالم صغير ... يتحرك في رطوبته المتعفنة ... تتعثر حشراتـــه في لعابها المزقق بالخضرة والسواد .

أحسست بزحف حشرة ما داخل بنطلونك ياسين .... تجمـدت اعصابك ... أحسست بالموت البارد ... كانت تزحف الى فخـــذك وكنت تموت شيئا فشيئا .

العناقيد اللزجة تنسج بلعابها رمشا تمشي عليه الى المدينـــة المهجورة . الزحف متواصل . شعور بالقيء يسيل على فخـــذك الايسر ....

تقززت ياسين ... ضغطت بيديك على بنطلونك تمنع انجـراف التربة الصالحة ... دمك ياسين يتجمد في ساقك اليسرى .

الريح ما زالت تحمل روائح العفونة ... وموادك الكيمياويـــة ياسين بعثرتها في تربة القبر القذر ... تحسست من جديد جوانـب القبر المفتوح . أحسست بثقب جانبي لم تتفطن اليه ... كان يلفظ القاذورات ... صلعتك تتحدى الظلام ..

واصلت الحفر ... أعصابك تتمزق .. أنت تؤمن بالحفر ياسين ... والتراب لا يؤمن بمعولك ... اكتشفت الثقب الآخر المشرف على القبر الثالث ارتجت صلعتك ... تواطؤ فظيع ياسين .... الجماجم تتنفس نفس الحشيش ، والعفونة تخدر المدينة الشعبية .

اصطدمت رجلاك بحفة « ساردينة » وتعثرت وتبعثرت... تجاوزت الالم ياسين ... خلفت قطرة دم سوداء على الرصيف .

كان الليل ليلا . وكنت ياسين سينا . وكانت رجلك تؤلمك. توقفت امام محل جريدتك... ستقتني جريدة الغد قبل الغد... وستعرف عنوان المسرحية الجديدة .... وسيذهب الناس للمشاهدة ... لن تمنعهـــم ياسين « فالاسعار شعبية اسعار خاصة بالطلبة والجيش »

عروسية النالوتي

إستيراد وتصدير
لجميع أنواع الورق والكرتون
للمجلات والكتب

محمد خليل الداعوق

شارع المعرض - بيروت - لبنان
مكتب تلفون : ٢٣٤٦٤٥ - ٢٢٨٠٤٢
مستودع تلفون : ٢٩٣٩٣٢

تحركات

أدخل هذا الشارع حين
الموتى يصحـون
أمشي خلف « الحلاّج »
بأقدام تفري سحب الدبّان
فتفير على تتفي الايمن حينا
وتفير على كتفي الايسر حينا
اتحوّل صندوق قمامه
تتكسّر شارات الاعين
حين تلامسني
يتعتّق كل بصاق الناس
اذا مرّوا من حولي
وانا امشي
احمل عطر الجوع وريح الشرق
وطيبة « غاندي »
أحمل ارصفة صلبه
ومطالع اغنيه نهمه
احمل ان أعشق هذا الكون
بقلب حمامه
واحبّ جميع الناس
بعمق الكلمه ..

* * *

تحسبني الاعين مسطولا
حين أشقّ بحدّ الكلمة
حنجرتي الريفيه ..
أنا لست بمسطول يا أعينهم
أنا محموم بالصفعة تفحمني
عبر الصحف اليوميه
تفحمني في التصريحات
وفي كلمات الخطب الرسمية
محموم يا أحبابـي
بالعرق النابت في « أفريكا » (*)

(*) « افريكا » : بناية عملاقة تقع فـي الشارع الرئيسي لمدينة تونس العاصمة

وعلى وجنات السادة ،
بين الشعر الاصفر
والعين البحريه

* * *

من يشرب قطرة ضوء في عنف العتمه؟
من يشرب ،
أمنحه قطرة ضوء أخرى
تحمله نحو مدار الشمس ؟
من يشرب ؟
لا أحـد ؟
صلب التوق على الليـل ،
بلى يا أعداء الكلمه
غنّوا « يا ليـل »
وكنـا امس ؟
غنـوا ..
غنـوا ..

* * *

أقفر هذا الشارع
أقفر هذا الشارع
مذ أبصرني الناس ..
أقفر هذا الشارع
مذ جمدت في الناس حبال
تدعى أعصاب
النـاس ...
النـاس ...
اشجار عارية ،
ناشفـة ،
تفري فأس الحطّاب ..

* * *

آه !
لو أنزل عن خشبات الحزن الازرق
او تصعد روحي للمطلق ..

* * *

أن نحيا لا نتكلم
أن نصبح ارقاما
تهرب من وجه الانسان
هذا ما يرجو منا السلطان
وابناء السلطان ،
وأذناب السلطان ..

* * *

أبصرهم خلف الستر الشفّافه
تحضنهم أذرعة الليـل ..
أتخطى الشارع ،
تحضنني اوراقي
وجراحـي ...
واشقّ بعينيّ الستر الشفافه
أبصرهم : خصلات ذهبيه
وشفاها شفقيّه
ومعاصم فجريـه
وهتافات حمراء
تعانقها ، في صخب ،
أحذية وحشيّه
فتضجّ بقلبي أفواه الصبيه
في الاكواخ الطينيّه
ويكركر عبر دمـي
صوت مخنوق يأتي
من أعماق المنجم
يعلن بدء المأتم ..

* * *

يثقلني دمع الفقراء بقريتنا
حين يغير الليل على أحياء الطين ..
تثقلني آهات النسوة ،

يطبخن الماء على حرّ الانفاس ..
تنشرني موسيقى الريح
على تقب الابواب
فاجمد في عين صبيّ مسكين
تعتصر الفجر من السقف ،
وليل السلّ ،
ونتن الاضراس ..

* * *

أصغيت .. سمعت النمل يغني
في شفتي بلقـع :
لا نأكل حتى التخمه
لا نضحك ،حتى يضحك فينا
مكسور الساق
لا نشبع حتى يشبع
أبصرت .. رأيت الرحم العربيه
تتشكل في الليـل
على ارصفة غربيه ...

* * *

طالت اسنان مدينتنا
وتبخّر من فيهـا الموت ..
والناس فقاعات صفراء
تتدافع في صمت
وضفادعنـا
خيل تركض وسط مياه قمئه ..

* * *

وجهي ، الليلة ،ياكله الضوء العاتم
وتعربد فيه الفوضى ..
آه !
لو يتبعني الشحّاذون
وصعاليك مدينتنا ..
لو يصعد هذا الجيل معي
جبل المنفى
او يدخل قلبـي
كنا غمّسنا في النور ..
اظافرنا الجوعـى
أو اشعلنا في وحل الايام
شموعا عذراء
آه !
لو يتبعني الشحّاذون
وصعاليك مدينتنا !!

* * *

مرّت الآف الساعات
وانا واقف
تتعثّر في وجهي أقدام الريح
وتثرثر عبر جبيني
ابخرة القيح
تصّاعد من اغنيه شعبيه

* * *

الشارع يمتدّ كآهة عاقر
والضوء يموت بعينيّ
يموت ولا أحد يبصرني
ناديت فولّت أجساد الماره
وتداخل صوتي في الاصداء ..

* * *

اسأل : من يخرج
من شرنقه الحب السوداء
ويمرّ معي فوق جدار الحقد
الى فجر الارض ؟
ويموت وقوفا في صفّ المصلوبين
على خشبات الرفض ؟؟
اسأل .. أسأل .. حتى
تنشف حنجرتي
وأرى الدمع يفور
فتطرحه الاحشاء حديثا
او ضحكا اصفر
يقعي فوق شفاه الموتى الاحياء ..
والشارع يمتدّ كآهة عاقر
والارصفة جنازات تمشي
من حولي ملتصقة
والضوء بعينيّ يموت
ودنياي الطفلة في قاع الغربة
تبسم مختنقة ..

* * *

لم احمل في عمري
من اجل الثورة والاطفال
شعـارا ..
لم احمل اقنعـة نورانية
تدفعني في جمع الفقراء
رسولا ..
قسما
لو وضعوا في كفي الشمس
وعلى صدري قمر العالم
ما ساومت ..
قسما .
لو لقّنت حديثهم
ألف سنـه
وأنا ابن العشرين ربيعا
ما ساومت ..
ولو ان الفقراء بلا سبب ،
رفضوني
ما سلّمت ..

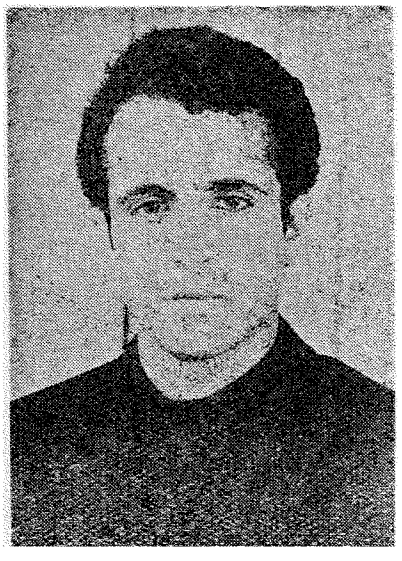

الطيب الرياحي

حبيبتي

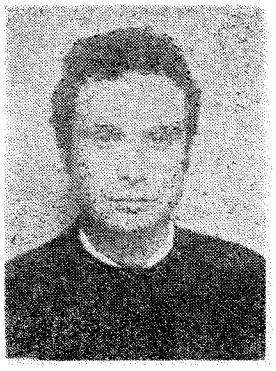

حبيبتي تعيش في المزارع
تهمي مع الامطار في الشوارع
عرفتها فوق السواعد السمراء
قويـة عذراء
عبر الهتاف والجباه والمدامع
عرفتها في قمم الجبال
عرفتها في لثغـة الاطفال
في كل ثغر رائـع
في لهب النيران والحديد في المصانع
في وقفة العمال
حبيبتي عرفتهـا حمامة بيضاء
تحط فوق ثورة الادغال
حبيبتي تعانق الاجيـال
تفتح قلبها المعبود في سخاء
للعالم الشقي في سخاء
حبيبتي عرفتها ترقص في العراء
خلف ستار الغيب خلف وحشة المرابع
عرفتها في الالم الذي ينزّ من اصابعي
في الحرف يصنع الاقدار للرجال
رايتهـا في صبر كل جائع
تنمو على السفوح والتلال
تبكي مع المشردين في المساء
تحت قصور المترفين حين يوغل الشتاء
ويجلس الاطفال حلقة على حصير
يثرثرون قصة الاب الذي مضى وراح
من بعد ان أعطى حياته لسيّد حقير
من بعد ان اعطى حياته للتين والتفاح
لكي يجوع بعده اطفاله .. اذا اتى الشتاء
ويرحلون ، يرحلون ، تهمس الرياح
لا شيء انهم صغار ذلك افلاح .

رايتهـا
تستقبل الاحـرار
تمنحهم عناقها تحيه
وشوقها هديـه
رأيتهافي نظرة الاصرار
احببتها عاريه نقيـه
احببتها ليس لهـا جنسيه
تخترق السهول والحدود
تقبّل الاطفال في الملاعب الكثار
عرفتها في الخبز والسنابل الابيّه
حبيبتي لم القها في الليل في شواطىء البحار
لم ألقها في أغنيات الحب والتذكار
عرفتها تفجّر المنابع السخيه
عرفتها تعانق الثوار
عرفتها كالزهرة البريه
تلوذ بالغابات تصنع الاقدار
رايتها في لفح كل نار
سمعتها في صوت كل بندقيه
حبيبتي يا قصة ينسجها السمّار
هناك في سهولنا الفسيحه
حيث الدروب تعشق الامطار
وحيث يرسم الاطفال شوقهم على الجدار
أهواك يا حبيبتي
أهواك في انبثاق الفجر والنهار
اهواك في عدالة القضيه
قضية الشعوب تنفض الغبار
قضية التاريخ مزّق الدجى وثار
أهواك يا ميلاد عالمي المنهار
اهواك يا معبودتي : الحريـه
اهواك يا معبودتي : الحريـه

احمد القديدي

الكوليرا في الطابق الأعلى

قصة بقلم عبد القادر بلحاج نصر

(مهداة الى سفراء الدول المتخلفة والنامية)

قصة : بقلم عبد القادر بلحاج نصر

السفير :

يا حبيبتي يهتز الباب يا حبيبتي يضربونه .. يجذبونه .. يفضمونه بأنيابهم .. يخدشونه بأظافرهم . يا حبيبتي النعساء ، النعساء ، النعساء في الغاعة يدخنون .. يتنفسون .. يرعبون . يزمجرون.. يا حبيبتي يلوثون ، يروثون امام السفارة. جاؤوا بالوسخ يا تيريز ، وبالشمس والريح ، لماذا جاؤوا يا تيريز ؟ لماذا يتلصصون من وراء الباب .. الكلاب . فخذاي ثقيلتان يا تيريز . هل يمكن أن أقوم ، أن أستقبلهم ؟ لا يا تيريز ، من يدري قد يتنفسون في وجهي الكوليرا . أنا يا تيريز رجل فخفاخ ، لا أحب هؤلاء الصفر ، هؤلاء المرضى . ماذا يريدون في السفارة يا تيريز ؟

المؤلف :

خرج اعرابي قد ولاّه الحجاج بعض النواحي فاقام بها مدة طويلة، فلما كان في بعض الايام ورد عليه اعرابي من حيه فقدّم اليه الطعام وكان اذ ذاك جائعا ، فسأله عن أهله .

ـ ما حال ابني عمير ؟

ـ على ما تحب ، قد ملأ الارض والحي رجالا ونساء .

ـ فما حال أم عمير ؟

ـ صالحة أيضا .

ـ فما حال الدار ؟

ـ عامرة باهلها

ـ وكلبنا اليقاع ؟

ـ قد ملأ الحي نباحا .

ـ فما حال جملي زريق ؟

ـ على ما يسرك .

فالتفت الى خادمه وقال : « ارفع الطعام » فرفعه ، ولم يشبع الاعرابي ، ثم أقبل عليه يسأله ، وقال : « يا مبارك الناصية اعد عليّ ما ذكرت » قال : سل عما بدا لك .

ـ ما حال كلبي اليقاع ؟

ـ مـــات .

ـ وما الذي أماته ؟

ـ اختنق بعظمة من عظام جملك زريق فمات .

ـ او مات جملي زريق ؟

ـ نعم .

ـ وما الذي أماته ؟

ـ كثرة نقل الماء الى قبر ام عمير .

ـ او مانت أم عمير ؟

ـ نعـم .

ـ وما الذي أماتها ؟

ـ كثرة بكائها على عمير .

ـ او مات عمير ؟

ـ نعـــم .

ـ وما الذي أماته ؟

ـ سقطت عليه الدار .

ـ أو سقطت الدار .

ـ نعم .

في قاعة الانتظار ، رجلان يتحدثان .

« يجعلوننا نترقب ، يجعلوننا .. يجعلوننا .. يجعلوننا

« ثم يطردوننا .

« يبصقون في وجوهنا .

ما رأيك في « صاحب السعادة » ؟

ـ رجل متثقف

ـ وهل انا متثقفا ؟

ـ أنت متثقف .

ـ ما الفرق بيننا ؟

ـ أنت لم تولد عام الصابة .

ـ عام الصابة !

ـ وسنظل ننتظر عام الصابة .

ـ ننتظر ..

ـ لماذا لا يدخلنا الى مكتبه لنتحدث اليه ؟

ـ انه يظن اننا نحمل الكوليرا .

ـ ولكن الكوليرا لا توجد .

ـ لا توجد .. نعم ، لا توجد ، ولكن الكوليرا موجودة .

ـ الى متى سنترقب ؟

ـ سننصرف .

ـ ننصرف .. سنغسل جلودنا من الكوليرا ، ونعود اليه .

حالة الطقس :

الشمس غاربة .. زرقة ما بين السماء والارض ، زرقة محروقة بالضباب ، والمطر ، البناءات في لون الصوف تتدحرج في أكـــوام

الضباب ، تغيب عن النظر ، كأنما يحملها التيار ، يحفر الريح في الضباب ، ترتعد ذيول الاشجار ، في أقصى الغرب تنحرف الطيور في خطوط باهتة متعاقبة ، ثم تتلاشى .. ثم تتعرج في الزرقة ، وتقترب من السفارة ، رجلان يجران الخطى الى الخارج ، رجل يجر الخطى الى الداخل ، وفي الباب « بلانتو » اصفر الوجه ، مفقوس العينين ، يتفرس ، يتثاءب ، يكرر في خوف « السفير ليس هنا » يكتبها على ورقة ، يقطع الورقة . يرتفع صوته « السفير ليس هنا » يجذب ورقة من جيبه مرقم عليها (أ) السفير ليس هنا (ب) ماذا تريد . (ج) ارجع بعد خمسة عشر يوما (هـ) أهتف الى السفارة قبل أن تاتي . يقضم الورقة بأسنانه يهرشها ، ويدسها في جيبه ، ويغني بصوت منخفض « السفير ليس هنا وأنت في جلدك الكوليرا ، وأنا بلانتو اتقاضى أجرا محترما ـ يا ليلي ، ما أجملك يا تيريز .. يا باريس ، يا تيريز » وينخفض الصوت يقضم شفته السفلى ، ويحرك أنفه ، ويقترب منه احد المارة ، احد المجبرين على المجيء ، يلتفت الى الحائط ، ويجذب الورقة بسرعة ، ويلحسها بنظرة . « أ ، ب ، ج ، د ، هـ ، و ، ز » السفير ليس هنا وينصرف المجبر على المجيء ، وهو يسب ويلعن ، وفجأة تنطلق كلمات من فمه ، حادة ، مخنوقة « ليس في جلدي الكوليرا ، يا تيريز ، يا باريس ، ليس في امعائي التيفوس يا باريس . ويصفر البوليس ، وتنحدف الطيور السوداء في الزرقة القريبة من العمارات ، ويتثاءب الضباب ، وينزل رذاذ صغير صغير كالدموع المخنوقة .

المؤلف :

انفرد الحجاج بن يوسف يوما عن عسكره ، فلقي اعرابيا فقال : يا اعرابي كيف الحجاج ؟ فقال : ظالم غاشم . قال الحجاج : فهلا شكوته الى عبد الملك ، فقال الاعرابي : لعنه الله انه أظلم منه وأغشم، ثم لحق العسكر بالحجاج فقال لهم : « اركبوا البدوي فاركبوه ، فسألهم عن رئيسهم فقالوا : « هو الحجاج ، فقال : « يا حجاج » قال: مالك يا أعرابي ، فقال : السر الذي بيني وبينك لا أحب أن أطلع عليه احد فضحك الحجاج .

موظفان من السفارة :

ـ شيء جديد
ـ جميل ..
ـ هل رأيت الاسد هذا الصباح ؟
ـ لقد دخل .
ـ كم دخل القاعة منذ الثامنة .
ـ عشرة مرضى وامرأة .
ـ ماذا يريدون ؟
ـ يريدون الاسد .
ـ ما اشجعهم هؤلاء المرضى !
ـ لقد لعنتهم حسب الوصية
ـ الا يوجد من بينهم رجل واحد يرتدي بنطلونا نظيفا ؟
ـ يلبسون سراويل مهروشة ، وقمصانا متسخة ، ولم يحلقوا شعورهم .
ـ يا زمن الحرب .
ـ يا ايام الكهف ..
ـ ماذا يقولون ؟
ـ قال احدهم ، انا دستوري اشتراكي مسلم من قرى الجنوب .
ـ ماذا فعلت معه ؟
ـ حسب الوصية ، حسب الفصل الاول (أ) السفير ليس هنا ، كان يبصق امامي ، ويصيح (الكوليرا لا تختبيء تحت قشرة رأسي أنا دستوري اشتراكي ، وجئت من قرى الجنوب) ، كان صوته مفجعا ، واضطررت ان أسد أذني ، أذني .. أذني .
ـ والمرأة كذلك حسب الوصية !
ـ عفوا لقد قابلت الاسد . ان جهازها التناسلي لا يشبه الرجل.
ـ جهازها التناسلي ، يا باريس .
ـ يا باريس ، يا غيوم، يا عمر المصابين بالكوليرا .. ياعمر .. يا عمر .. يا عمر .
ـ يا جهازها التناسلي .. يا جهازها .
ـ كانت دميمة .
ـ دميمة .. يا جهازها التناسلي .
ـ لا يهم .. لقد كان لها جهاز من نوع آخر .

احد خدام السفير :

ـ حضرة السفير في الباب رجل ملحاح .
ـ اغلق الباب .
ـ ها أني أغلقت الباب ، يا سيدي السفير .
ـ كل يوم توشوش كبراد الحشاشين ، ألم تحفظ الوصية ؟
ـ عفوا يا سيدي السفير .. حسب الوصية سألعنه
ـ ترقب ، ماذا يفعل في الحياة هذا القرد ؟
ـ متثقف . مثقف . أثقف . نسيت يا حضرة السفير
ـ وجهه أصفر ؟
ـ وجهه أصفر قليلا يا سيدي السفير .
ـ صفرته تشبه صفرة الكلاب ؟
ـ تشبه صفرة الكلاب يا سيدي السفير .
ـ قد يكون كلبا على أكثر تقدير
ـ ليس هذا غريبا يا سيدي السفير .
ـ انه كلب !
ـ انه كلب بدون شك يا سيدي السفير .

البلانتو في الدرج :

سأفضمه .. سألعنه .. سأهش عليه بعصاي .. سأبصق عليه.. مثقف .. متثقف طز .. مثقف طز حكمه .. متثقف كليت في جرتو صطاكه . سأحاربه .. أبصق عليه .. أسوطه .. ينعل كذا من بوه ! في أفخاذه الكوليرا . بالحرام أن في أمعائه التيفوس .. بالحرام انه كلب ممسوخ ، سأفضمه من شحمة أذنه .. من نهده .. من أليته .. سأفهمه قدره ، يقترب منه .. يلتحم به .. يجذب الورقة من جيبه . « ألم أقل لك أن السفير هنا .. آه .. ليس هنا، السفير مسافر .. منافر .. لا يعرفك . قال انه لا يعرفك .. لا يسمع بك . ماذا تريد . انتهى .. انتهت المشكلة .. قيلنا .. فك على سمانا » .

الاحوال الجوية :

لا توجد الشمس في حاشية السماء ، لا توجد في قلب السماء ، لا توجد في الغرب ، لا توجد في الشرق . يصعد الضباب من المنحدر الى الربوة ، يد مع الغبار الابيض ، يخرج من السفارة ، تعوي امعاؤه ، يعوي في داخله الخوف ، والحقد ، واللعنة ، واللعنات ، والشر والكفر ، يغني بصوت مخنوق ، « أنا كلب ! لو كنت كلبا في باريس ، ولن أعود اليك ، أنا اشتراكي ، دستوري ، من قرية من قرى الجنوب » ، يبتلعه النهج .. وتنفتح البالوعات كثيرة .. كثيرة، ويدخل الى كهف .

المؤلـــف :

أكل اعرابيان على مائدة عبد الملك بن مروان ، فمد أحدهمـــا يده فقال له الآخر :

ـ كف يدك ، فان لك في ما بين يديك مقنعا .

فقـــال :

ـ اني من قوم اذا اجدبوا انتجعوا .

فقال له :

ـ ويلك ! وهل على مائدة امير المؤمنين جدب ؟

ثم مدّ يده ، فقال له صاحبه :

ـ كف يدك .

فقال :

ـ اني من قوم اذا أخصبوا تخيروا .

السفير :

ـ اغلقي الباب ، يا تيريز

تغلق الباب تيريز

ـ اشعلي الضوء الاخضر ، يا تيريز

تشعل الضوء الاخضر تيريز

ـ ادفعي الستار الى اسفل ، يا تيريز

تدفع الستار الى أسفل تيريز

ـ امشي قليلا ، يا تيريز

تمشي قليلا تيريز

ـ انظري الى هنا يا تيريز

تنظر اليه تيريز

« صباح جميل .. والستائر دافئة ، والمدفأة دافئة ، والابواب مغلقة ، وثقاؤهم بيني وبينه جدار .. وبلور .. وجدار .. وبلور .. وزريبة .. وكراسي .. وجدار .. وبلور .. وتيريز .. ومدفـــأة .. وبلانتو .. وبلانتو .. وبلانتو .. والارض مكـــورة .. تتكور .. ما أحلاها .. ماذا يهم ، في باريس لا ترتج الارض ، أولاد الكوليرا ، والبؤس والعطش ، وأحراش الجنوب ، وأحراش الشمال ، يا تيريز ، ما الذي يهم ، وثقاؤهم ، ورغاؤهم ، ونباحهم ، ومواؤهم ، ونعيقهم .. ونعيقهم .. ونهيقهم ، بيني وبينه جدار ، وجدار ، وستار ، ومدفأة وجدار ، وطاولة ، وطاولة وجدار ، وبلانتو ، وبلانتو ، وبلانتو »

ـ اجذبي الستار الى اسفل ، يا تيريز

تجذب الستار الى اسفل تيريز .

رجلان أمام السفارة :

ـ نجرب

ـ لقد جربنا منذ أيام

ـ مرة أخرى

ـ سيطردوننا

ـ ان السفارة ملكنا

ـ يا حبيبي

ـ لا تضحك ، انها لنا .

ـ يا حبيبي

ـ لا تضحك ، انها ملكنا

ـ يا حمار

ـ انها لنـــا

ـ يا ثـور

ـ انها لنـــا

ـ يا جمـل

ـ انها جزء من ترابنا

ـ يا بغـل

ـ سادخل وحدي

ـ سأنرقبك

ـ نعم .. انها لنا

ـ يا حبيبي ، يا حمار .

البلانتـــو :

« لقد جاء .. لقد عزم .. لقد عاد ، ماذا يريد وجه الكوليرا، سالحس له كبده حسب الوصية ، سأمضغ شرايينه .. سأجعل مـن عروقه حبالا ، وشرطانا ، وخيوطا ننشر فوقها ثياب الاسد حســب الوصية ، لقد عزم « فرر .. ماذا أقول له ، ماذا أقول له ، مـــاذا أقول له ، لقد تراجع ثم عاد .. ثم تراجع .. ثم عاد ، لو يأتي الى هنا . سأجعل من عروقك شرطانا .. وحبالا أعلق عليها ثيـاب الاسد حسب الوصية .

المؤلـــف :

حضر اعرابي طعام امير فأكل معه فلما أحضر « الفالوذج » قال له الامير : ان أكلت هذا حززت رأسك ، فنظر الاعرابي مليا ، ثـم رأى ترك « الفالوذج » خسارة ، فمدّ يده اليه وقال : أوصيـــك بصبيتي خيرا .

الاحوال الجوية :

تصعد دورات الغبار ، تدور .. تلحس الجدران من اسفـــل ، ومن فوق، وتأتي الغربان السود تمزق السماء، تحفر في «أجنابها».. تحفز ، تحزز .. تلوث المناديل البيض .. تنعق ، يتابع بعينيـــه خطى مرسومة في الوحل ، مطبوعة في وسخ الانهج ، يسايرها ، يلعقها بعينيه .. يرفع وجهه الى السماء ، ينفجر بالسباب، والشتائم .. سأحرق خشبك ، وبلورك ، وأحجارك الكريمة ، يـــا مكتب .. يا مكتب .. يا مكتب .. تتكركر السحب .. تهرم .. تسقط فـي أحضان الجنوب .. ويصعد لون أحمر ، يبهت .. يبهت .. تتفرقـع النوافيس .. وتنتهي الخطوات المرسومة في الوحل ، ويجد الباب مغلقا بسبعين قفلا من الفولاذ ، والنحاس ، والذهب ، ويتفرقـــع الجوع ، يقرقر في أمعائه .. يقرقر .. يقرقر ..

البلانتو امام السفير :

ـ فهمت

ـ فهمت يا سيدي السفير

ـ لنجرب لآخر مرة

ـ نجرب يا سيدي السفير

ـ أعرض الوصية

ـ نعم يا سيدي السفير (أ) السفير ليس هنا (ب) السفير مسافر ، (ج) عد بعد أيام (د) ماذا تريد ، ماذا تريد ، ماذا تريد (هـ)ماذا تريد (و) ماذا تريد (ز) ماذا تريد، أليس كذلك يا سيدي السفير ؟ أتريدني أن أواصل ؟

ـ أعرض الوصية الثانية

ـ الوصية الثانية لم تصلني يا سيدي السفير

ـ طبعا لم تصلك لاني لم أسلمها اليك

صيحة شهيد

مزقني ، واحوتي الرصاص والنبالم ..
وسننت عشيرتي المظالم ...
فشعبي المسالم
يمطره اللصوص . والسذاذ
قنابلا مسمومه الدخان والرذاذ
تجتاحه ، تحرقه ، تعصره دما
لتروي الظمأ ...
من دمنا ، الوحوش والغربان . والجرذان
تنفثه دخان
من منخر الشيطان
لتحجب السما
فتختفي النجوم ، والشموس ، والضيا
ويشمل الظلام
عوالم الانسان
فينتشي الشيطان
معربدا ... يمزق « الانجيل والقرآن »
يحطم الطلبان
ويحرق الاهلة الخضراء والكتب ،
يدفعه الكلب
يزيف الذهب
يرتل الكذب ...
ليذبح الصغار ظلما ... من بني العرب
يشرد الالوف منهم ... دونما سبب
ويطفيء الضيا ...
من اعين حالمة بالحب ... والاخا
على سفوح « الطور والزيتون »
على ضفاف « الاردن » المقدس الميمون
يا هيئة الشعوب والامم ،
ومسرح الصراخ والالم !
يا مجلس السلام والكبار ! ...
يا بائع الصغار !
من ذبحوا . ومزقوا ، في وضح النهار
وأصبحوا حطب
في فرن لص ، ماكر ، يزيف الذهب
يا منبر الخطب ...
أذنبنا ، أنا وجدنا ، واسمنا « عرب . » ؟؟
« نؤمن بالانسان والاخاء والكتب »
« لا نعرف ، النفاق ، والخداع ، والكذب »
« ولم نزيف أبدا . سبائك الذهب »
لكي تباع أرضنا بدون ما سبب
ونصبح الوقود ، والرماد ، والحطب
في فرن لص ، ماكر ، يزيف الذهب
يرتل الكذب
ليذبح الصغار ظلما من بني العرب ...

الميداني بن صالح

ـ طبعا لم تسلمها اليّ
ـ طبعا لم اسلمها اليك
ـ طبعا .. طبعا ، يا سيدي السفير
ـ عندما يقول لك زائر « هذا الحائط ابيض » ..
ـ امر هين ، يا سيدي السفير .. سأقول له : انه اسود
ـ وعندما يقول لك « هذه طاولة »
ـ اقول له انه فيل
ـ وعندما يقول لك « هذا حذاء »
ـ انه امر هين يا سيدي السفير ، اقول له انه (انبوبة)
ـ وعندما يقول لك ان السفير رجل بورجوازي
ـ اقول له انه من فقراء المسلمين
ـ حسنا يا بلانتو
ـ حسنا يا سيدي السفير
ـ حسنا يا بلانتو
ـ حسنا يا سيدي السفير

المؤلف :
قال ابو علقمه النحوي لغلامه :
ـ يا غلام أصقعت العناريف
فقال الغلام :
ـ رقفليم
فقال ابو علقمة :
ـ وما معنى « رقفليم »
فقال الغلام :
ـ وما معنى « أصقعت العناريف »
قال الشيخ ابو علقمة :
ـ قلت لك : هل صاحت الديوك
فقال الغلام :
ـ وانا قلت لك : لم يصح منها شيء .

الاحوال الجوية :
السماء صافية ، والريح هادئة ، والشوارع مزينة ، مدهونة ، ووجهه أصفر .. أصفر .. أصفر .

أحد المارة امام السفارة :
لقد وقفت الدلاء وتقطعت .. وهرم البئر وخار ، وضعفت سيقانهم ، وأصبحوا عجافا .. واشتد البرد ، واشتدت الحرارة ، والصاعقة تتلاطم في السحب القريبة ، يا حبيبتي ، يا حبيبتي .

وانكمش وجه الزائر ، وارتبكت نواجذه ، وفكر ، واستكبر ، واستغفر ، وكفر ، واستغفر ، وسقط .. ونهض ، وسقط ، ونهض ، ونخيل العجز ، ونصور النجوم ، يا حبيبتي ، يا حبيبتي .

وكتب رسالة ، وقطع الورقة ، ونزع ثيابه في أحد الانهج ، وعرى صدره للريح ليحاصره مرض السل ، لتقطع أمعاءه الكوليرا ، ولكن الفيروس لم يأب ، يا حبيبتي ، يا حبيبتي ، يا حبيبتي .

ونهض مع الفجر ، وصلى الى الله .. ثم استلقى على ظهره ونام الى وقت الظهيرة ، وظهرت في وجهه حبوب صغيره كطيور « الزاوش » في الفضاء ، يا حبيبتي ، يا حبيبتي ، يا حبيبتي .

عبد القادر بلحاج نصر

« لغة » المسرح

بقلم مصطفى الفاسي

تعوّدنا أن نخوض في «مشاكل » المسرح وان نعقد الندوة تلو الندوة للسعي الى ايجاد « الحلول الناجعة » لهذه المشاكل ، وأن نخرج من هذه الملتقيات بمشاكل اضافية نصرح في بلاغاتنا وتوصياتنا أنها « مشاكل جوهرية » وانها تتطلب « الحلول السريعة ».

ذلك بأننا تعوّدنا ان ندخل البيوت من نوافذها وأن نقطع شوطا من الطريق فلا نسلكها الى نهايتها وبأننا كثيرا ما ننزع الى الاحكام المسبقة فنؤطر الاشياء ونعقد الامور دون ان ننظر الى الاسباب والعلل التي تؤثر فيها ونكتفي هكذا باثارة المشاكل فتغمرنا ونغرق في لججها .

نحن دائما بين أمرين أثنين ... اما ... واما ... نكره أواسط الامور ونحتج الى اقصى أطراف الحلول ، لكننا نقنع بأنصاف الحلول ... نحن نجهل التوفيق بين هذا الامر وذاك ... بين ما نسميه « بالالتزام » وما نسمية بـ « الفن للفن » .

هل من توفيق بين حرية الفرد وخدمة الصالح العام وبين توق الفنان الى الحرية وانتفاع الناس من انتاجه ؟ بين المنتج والمستهلك في ميدان هو بحق شيعة بين الناس لكل قسطه منه وحظه فيه وجوبا لان الثقافة كالهواء ملك للجميع لا تعطي اقساطا وبمقدار ؟

وفي زعمنا أن ما فرّق البشر منذ أحقاب وأحقاب وما قسم العالم الى مناطق نفوذ تخضع لسلطانين أثنين ، سلطان الرأسمالية وسلطان البروليتارية ، هو بالذات اعتقاد الناس هنا وهناك ان لا مناص من الاحتدام بين شقين متنازعين بطبيعتهما مدفوعين مبدئيا الى الخصام والتناحر والشقاق . كل حزب بما لديهم فرحون وكل شق على ساق وقدم يتربص بعدّوه ويكيد له ألف كيد .

لكن نحمد الاقدار ان تبرز في الخضم ... في الصخب ... في عيشة الناس من حين لآخر أصوات منفردة تعوّد بعضهم أن ينسبها الى المجانين والحالين والمشعوذين في كلا الشقين ... لانها أصوات التوفيق والتعاون والتكافل تندّد بالاحكام المسبقة وتدعو الى تجنب المطلق لما فيه من أجحاف ولما يحمل في طياته من بذور الشقاق والهلاك .

من هذه المقدمة انطلق لالقي بعض الاضواء على تجربة خاصة في هواية عكفت في تنميتها في الذات وصقلها وتهذيبها العديد من السنوات على صعيدين أثنين متوازيين يلتقيان في قطب العمل المنجز ... في نهاية طريق الخلق الفني .

لذلك أني أؤمن ان المسرح أكثر الفنون تعلقا بالمنتج والمستهلك في نفس الوقت يصله بهذا توق الانسان الطبيعي الى الحرية ويصله بذاك دافع تلقائي لتحمل أعباء رسالة هي في صميم فعل الخلق نفسه وهي هدفه وسدرة المنتهى في معراجه العسير الى تحقيق الذات ... او الى استكمالها على الاقل ... اذ التحقيق الكامل حلم جميل وفي تحقيقه نهايته وتلاشيه .

والمهم – في نظري – أن نخرج بالمسرح من قطبيه التقليديين الفن والبيئة بأضافة قطب ثالث لم يعد لنا مناص من اعتباره نحن أبناء هذا الربيع الاخير من القرن العشرين وهذا القطب هو العصر . فنسلط بعض النور على عملية الخلق المسرحي في مرحلتها الاولى وهي عملية فنية ثم نعرض لتأثير البيئة على الخلق الفني في بدء العمل وفي منتهاه وهي عملية اجتماعية لنخلص في مرحلة ثالثة الى المعاصرة ومواكبة التيارات الخارجية والتفاعل والتلاقح وهذه عملية حضرية تجعل الكاتب المنتج مسؤولا لا أمام نفسه فحسب ولا بازاء قومه وبني بلدته فحسب بل أمام الزمان وأمام الانسان بما في هذا وذاك من شمول اذ سيحكم التاريخ للاثر أو عليه في يوم ما ويقول فيه قولته بقطع النظر عن طول قامة صاحبه وسواد عينيه ولون جسده وانتسابه الى أمة معينة أو دين أو لغة أو منطقة جغرافية معينة .

يجدر بنا أذن أن نعرض على التوالي لهذه النواحي الثلاث التي يعتمدها كل أثر مسرحي حري بأن يكتب له الخلود وان يقهر العدم ويطفو على الذاكرة رغم ما يعتريها من الجمود والتحجر والنسيان . ولأسق مثلا أقدم به للبحث في هذه العجالة ، وهو خير مثل يساق لاتصاله بشيخ من مشايخ المسرح أراد أبناء عصرنا ان ينسبوه اليهم فقبل الانتساب رغم الالفين والاربعمائة والاحدى والستين سنة التي تفصل بين يوم الناس هذا وأول عرض مسرحي « لضارعاته » امام نظارة من المواطنين الاثينيين ذاك هو اسخيلوس وقد مثلت الضارعات سنة ٤٩٠ قبل الميلاد وها هي تمثل اليوم في ثوب جديد . ولن أتردد في الاعتقاد أن اسخيلوس لو كان بيننا لصفق للبادرة وباركها ولشجع على التمادي وللبس عصرنا وتطبع به . ذلك أنه يغلب على الظن أن اسخيلوس وقدامى كتاب المسرح اليونانيين كانوا بدورهم مدينين في مواضيع مسرحياتهم واشكالها لمن سبقهم من رجال الدين الذين كانوا يمثلون المسرحيات المقدسة في مصر القديمة .... ومن المقطوع به أن اسخيلوس لم يخترع المأساة اختراعا وانما تناول بالتنقيح تقاليد يونانية نمت وترعرعت بالتدريج ... كما أن من المقطوع به ان النهضة المسرحية التي برزت باكوراتها في السنوات الاخيرة بتونس لم تبعث هكذا من العدم في يوم وليلة بل هي تعتمد تقاليد سابقة لها طوّرتها وخرجت بها من عقم

الاسفاف والتهريج والتلجلج وحاولت فيها ان تلتصق بالبيئة التي أوحت بها وأملتها لتطرح مشاكلها وتستجلي شواغلها وتستقصي الاهداف وكانت فيها لابسة للعصر آخذة من فنياته وتقنياته مستوعبة متفتحة واعية مستقبلة .

١ ـ الخلق المسرحي عملية فردية

المسرح من حيث هو فن يرتبط بشخصية الخالق فيه كاتبا كان أو مخرجا أو حتى ممثلا في بعض الحالات . ولا يمكن بهذه الصورة أن يوضع الخلق المسرحي في اطار وان تطلق عليه وعلى أربابه أحكام مسبقة أو قولة فاصلة .

فما القول في عالم كعالم يونسكو تطير فيه المارة وينمطل الاموات .. ؟ ما القول في عالم تعدد فيه ألف روبارت بينما ينقلب جاك ـ أمام الانوف اللاتة التي تبرز على وجه الشابه ـ الى حصان يصهل ويركض فيملأ الركح بصوته وحركته ؟ ليس هذا العالم عالم العقل والمنطق بل هو عالم سحري شبيه بالحلم وبالاحرى بعالم الاخيلة المزعجة .

وتدفعنا هذه الملاحظة الى الاعتقاد بأن الخيال اذا أفتك الحكم وابتز مقبض النفوذ امكنه ان يعرض عن قوانين الطبيعة وان يعبث في جد مذهل بكل أصناف المعقول والمنطق . ذلك ان الرجل الذي يحلم يتخلص من القواعد المرسومة ومن الالواح المحفوظة التي يخضع لسلطانها جمهرة الناس لاعتقادهم ان لا سبيل للتخلص من القضاء المبرم وان لا مناص من الامر المقضي . لكن الحالم يرجع الى طفولة الانسان ويحيط نفسه بحركية الخرافات والاساطير وغرائب القصص فتتفتح امام عينيه كهوف القصور المدفونة وبعثر هكذا على ينابيع الحيرة والضيق وعلى جوهر الغرابة والتعجب .. فيكرع من العين ويملأ جرابه جوهرا فريدا .

يونسكو يكره المسرح الواقعي ودفعه ذلك الى خلق مسرح جديد في عمله قصاب صناع يجزيء الجثة الملقاة بين يديه في دقة عجيبة كأنما يدعو الناظر اليه وهو يقوم بتلك العملية الى الدخول في جو عجيب من ثقب مفتاح ... من فجّ بين صخرتين عظيمتين ... اخنار يونسكو عالمه وهو حرّ ولا غرابة في أن يصرح اندري برونون A. Breton على أثر عرض احدى مسرحياته الاولى « هذا هو المسرح الذي طالما حلمنا ببعثه وايجاده » . وكتب المرحوم خير الدين « الحاج كلوف » مسرحية ثم مسلسلة اذاعية ثم اقتبست للتلفزة وربما تروج في يوم ما على الشاشة الكبيرة ... فصاح في القوم الف صوت « هذا هو المسرح الذي كنا ننتظر » وكان أحمد خير الدين حرا في اختياره لهذا النوع من المسرح وأقبل على أثره الناس وشجعوه وقدموه على غيره ...

وكان « مراد الثالث » وكانت الطوفان « وكان الزير سالم » وكانت « فريتي » وكانت « أقفاص وسجون » (وكل) مسرحية لها طابع وشخصية مميزة وبدأنا نتحدث عن نهضة مسرحية ، وعكف بعض الكتاب على تنشيط الحركة الجديدة وتوالت المسرحيات « صاحب الحمار » و (عهد البراق) و « الفتنة » و (البنادق) ومنها ما ظهر للناس ومنها ما ننتظر ...

وقد يعسر التحدث عن هذه المسرحيات لضيق المجال ـ واعترف ان هذه تعلّة يستعملها الناس للخروج من المآزق بسلام ـ ولشعورنا ونحن من رهط الكتاب لا من الناقدين ان عملية الخلق لا يمكن وصفها واستقصاء مراحلها دون ان يتسلل الى الحديث بعض الزيف مقصودا كان أو لا شعوريا . ذلك ان هذه العملية ولبدة آنها ، وانها نابعة من الرصيد الثقافي الخاص الذي تمكن صاحب الاثر من جمعه في أوعيته الحسية والفكرية والذوقية الخاصة وفي تلك الزاوية من الدماغ التي يكمن فيها الخيال وهو كما نعلم جميعا ـ يتفاوت فيالكم والكف من ناسيء الى آخر لان الانسان الذي في كل فرد منا يختلف عن غيره وعن نفسه ايضا اذ يتلوّن ويتطور بموجب الحياة التي يحياها . فلو كنا حبات قمح أو فول أو مجموعة من الحصى لنشأنا على وتيرة واحدة ولانتمينا الى تيار معين . ولكن الوحدة المطلقة في ميدان الخلق الفني بصورة عامة مستحيلة أو هي ضرب من احلام الانبياء ومزاعم بعض السياسيين . وهذا موضوع آخر وقد يطول الحديث في شأنه .

يكفي أن نعلم أن عملية الخلق الادبي بصورة عامة والخلق المسرحي بوجة أخص تمر بمراحل كثيرة متشعبة تتمثل في عديد من المسودات التي يلقي بها الناشيء في سلته لعلمه مسبقا ان الخلق بناء وهدم وبناء من جديد وانه حتما في ذينك المد والجزر المتعاقبين كالامواج تماما في حركة دائمة .

ويكفي ان نعلم ان الكاتب المسرحي حر في اختياراته وفي انتمائه الى أي مذهب أو تيار ، والتيارات هنا لا حصر لها فهي في عدد المسارح والمدارس المسرحية وهي في هذا الفن القديم قدم الزمان لا تحصى ولا تعد ... وما يهم المتطلع اللاهف او الفضولي المستكشف ان يعلم أني اميل الى مفهوم Wagner للمسرح وأقول كما قال : « المسرح صهر فنون مختلفة في قالب جمالي واحد » أو أني برشتي أحمل المسرح رسالة سياسية وادعو لما يسميه Brecht البيئة La distanciation التي تحمي المتفرج من داء « التقمص » والاحلام الجوفاء التي تترك مرارة في الفم عندما تفتح العين على فظاعة الواقع المعيش . وما يهم ان يعلم الناس اني افضل مسرح المجموعات الواعية الذي لا مكان فيه لمرشد فني او مدير فرقة كما يجري العمل في مجموعة «Za branou» التشيكوسلوفاكية ... ما يهم ان يحشرني الناس في بوتقة التقليديين أو آفاق الطلائعيين ؟ لست أرى في التصريح بانتمائي الى تيار خاص معين اية جدوى . فذاك شأني وشأني وحدي ، وخمس دقائق او خمس ساعات أو خمسة أيام لا تكفي لتلخيص تجارب سنوات عديدة في محاولات تتفاوت كما وكيفا وقيمة على كل حال لم يكن بعضها الا أثرا بعد عين . ولكم ألقيت في الموقد من أوراق ملطخة بالحبر لئلا يقال في يوم من الايام « هذا من صنع فلان » . الخلق سعي حثيث دائب لتحقيق بعض الذات والمسرح من بين ضروب الخلق الادبي جميعا لا يحيا الا في نفس صاحبه وفي فترة الخلق ذاتها . والتجربة فيه لا يمكن أن تعطي أقساطا وبميزان . ذلك ان هذه العملية تتصل في نفس الوقت بذات صاحب الاثر المسرحي كفرد له أسرار مهنته وعليه تبعات ما يكتب حاضرا ومستقبلا وبالمجموعة التي أنشيء ذلك الاثر المسرحي من أجلها . اذ الجمهور بالنسبة للمسرحية كالقراءة بالنسبة للكتابة ، فلا كيان للمسرحية التي لا تجذب الجمهور الى مشاهدتها ولا كيان للكتابة التي تبقى حبرا على ورق لا يقرأها قارىء ولا يستفيد منها ـ أو يستقبحها ويلعن صاحبها ـ احد .

١ ـ المسرح في العالم :

نعلم أن المسرح فن متخلف عن بقية الفنون بما يمكن ان نقدر بعشرين سنة أو أكثر . ويجدر ان نتساءل عن سبب هذا التخلف . في اعتقادي ان المسرح في الدول المتقدمة لم يمر بالمرحلة الثورية التي مر بها الرسم والموسيقى والنحت والقصة والرواية وان هو ثار في وقت ما فقد كان ذلك بعد غيره من الفنون بأحقاب وفي كثير من الاحتشام والتردد ـ ونعزى ذلك التخلف الى سبب رئيسي واضح وهو

ان المسرح فن جماهيري بينما الشعراء او الرسم او الرواية القصصية من فنون الخواص .

فقد كان معيار المسرح الى امد قريب اعجاب أوفر عدد من الجمهور بما يقدم لهم من انتاج ، بحيث يكفي ان يسخط على مسرحية ما عشرة متفرجين لتفشل ويلقى بها في سلة المهملات . وهذا بالذات ما أفقد المسرح طيلة احقاب : مسايرة ذوق الجمهور . فلم يثر المسرح أوضاعه وتقاليده الا بمقدار وفي بطء كبير .

ونعلم ان تيارات التجديد كثيرا ما يساندها عمل تهديم وتقويض. فهي سعي صارخ لاثبات الوجود عن طريق الرفض وبوسائل وانماط تعبيرية مستحدثة طلائعية . وقد بدأ المسرح في البلاد المتقدمة يخوض معركة الرفض في قاعات صغيرة لا مكان فيها الا لجمهور محدود يتكون عادة من النخبة والدعاة والمناصرين . وقد فرض المسرح الطلائعي وجوده اليوم بعد المشاكل الكثيرة التي كان له ان يجتازها بسلام وفي صبر واناة . واذا المسرح اليوم يعبر كغيره من الفنون عن قلق الانسان وذعره امام ما يجتاح البشرية من مصائب وأهوال ، وان كان يعبر عن ذلك باصوات منفردة وفي محاولات محصورة محدودة في الزمان والمكان . ومن هذه الاصوات Adamov و Beckett و ionesco هؤلاء وغيرهم في اوروبا شرقيها وغربيها وامريكا كثير ، هم الطلائعيون . ويعني ذلك قطعا انهم تقدميون. فيونسكو مثلا برجواز يفي نظر بعض النقاد لا يحمل فنه رسالة ولا يضطلع بمسؤولية امام الانسانية والتاريخ بينما يعتبر غيره من الطلائعيين كـ Kretica و Krans ان المسرح من شأنه ان يضطلع بمسؤولية اذا أريد به خدمة المبادىء التحررية والدفاع عن القضايا الانسانية العادلة وصياغة القيم الخالدة . فهو بهذه النظرة أداة نضال وكفاح مستمر هدفه الرئيسي تحليل العواطف البشرية والتركيز على الاخلاق السامية الى جانب تصويره للتطور السياسي والاقتصادي والتقني الذي له مساس بحياة البشر وتأثير على وضعهم وكيانهم وصيرورتهم .

وقد ذهب بعض الطلائعيين في مسارحهم المخبرية اشواطا فنجح البعض وفشل آخرون لكن المهم ان يقدم Planchon مسرحية السيد Le Cid في ثوب جديد وان يدخل Chereau حوادث شهرماي واصوات الرافضين من شباب باريس في مسرحية Le prix de la révolte au marché noir فيفتح الحوار بين شكسبير والمعاصرين ... المهم ان يدمج Vauthier في مسرحية Le sang «الدم» الركح بالقاعة فيقحم بالخيال حتى لا نكاد نفرق بين الممثل والمتفرج . كل هذه المحاولات وغيرها كثير وآخرها في الابداع والبدعة خاصة مغامرة البرازيلي Victor Garcia باخراجه Le Balcon للكاتب الفرنسي Jean Gênet في قاعة مكورّة ينتقل الركح في جوها كالبيضة البلورية المسحورة التائهة ـ كل هذه المحاولات تجعلنا نجزم بان المسرح كالحياة لا يخضع لقيود اذا أريد به الاستنباط والخلق ثم اننا بدانا نشعر ان المسرح قابل لكل الاشكال الركحية وكل التيارات التجديدية مهما كان مأتاها . ولا غرابة قطعا ان يصبح الجمهور في يوم ما، لا تلك المجموعة من المشاهدين السلبيين بل عناصر مندمجة بالمسرحية يصمم لتدخلها في صلب الاثر المخرجون الطلائعيون الذين لا يتوقف خيالهم عن الخلق والابداع ما داموا قد وضعوا في الصرح لبنات كثيرة سوف تكون لها في تاريخ النهضة المسرحية شان في هذا العصر وفي المستقبل .

٢ ـ المسرح في تونس :

نشهد ما بجدّ في ميدان الخلق المسرحي في الاقطار المتقدمة فنغبط المبدعين على هذه الطاقات الخلاقة الفذة لكننا لم نحاول مثلهم تجاوز المشاكل التي واجهوها وقهروها ـ أو على الاقل عبدوا الطريق لقهرها والظفر بها ـ . نحن في منطقة البحر الابيض المتوسط من عرب وغير عرب نشكو ما نسميه « عوائق المسرح » وكثيرا ما نقارن ضعفنا في الميدان بقوة الغير فيه . فنحن كمعاصرين لهؤلاء المجددين الخلاقين في أوروبا وامريكا واليابان نشارك نهضة المسرح لكن من ثقب المفتاح فيملأ صدورنا الحسد ، وكثيرا ما نيأس فلا نقتحم الابواب المقفلة ونبتز أسرار المهنة ابتزازا وغلابا . ولربما اكتفى البعض منا بما حفظه عن هؤلاء الطلائعيين فنقله الى لغته ان كان كاتبا او حاذى ما يجري عند هؤلاء فقدم ذلك على مسرحه القومي في اخراج ولا شك لكنه لا يقنع . ذلك لانه مستورد استيرادا ، لا مستوعب ولا مهضوم .

لكن منا من أخذ الامور بنواصيها وحاول ان يجدد وان يواكب عصره في حدود الامكان . والامكان هنا ما تفرضه البيئة وما يقبله ذوق الجمهور عندنا . من ذلك الرجوع الى مفهوم المسرح القديم والى أصوله الاغريقية واستغلال الطاقات الحية في تقاليدنا بمطابقتها بهذه الاصول . فقد بدأ الفداوي وبدأت الحلقة وبدأ البندير والرقصات البهلوانية تتسرب الى مسرحنا المعاصر تدريجيا فتبعدنا هكذا شيئا فشيئا عن قاعدة « الوحدات الثلاث » التي ورثناها عن الكلاسيكيين الفرنسيين وما زلنا نعاني الامرين من ويلها وثبورها . كما لجأنا الى بريخت نخفي به فقرنا لاقامة المناظر المعقدة المشطة ذوقا وثمنا ... لكن قليل منا من اذا سألته عن « البنية » التي انبنى عليها مسرح بريخت ، قليل من يفهم مقاصدها الحقيقية وأبعادها ورموزها ، لكن هل طلع علينا من قومنا رجل ذو نظريات في الفن المسرحي تهدف الى قلب وضع واحلال وضع جديد غيره ؟ هل برز منا مخرجون وكتاب ومديرو فرق وممثلون ونقاد لهم مكانة وذياع صيت لا داخل حدود اقطارهم الضيقة ـ فكثير ما يبرز الاعور في قوم العميان بل خارج الحدود فكان لهم معانداهم في هذا الفن حوار مع الند ومقارعة الند للند ... ؟

الخلاقون عندنا قلة . وجهد القلين القليلين غير قليل . لكن هل يكفي هذا الجهد للخروج بمسرحنا من السبل المعبدة واجترار اعمال المحافظين ؟ فلا خلق ولا شخصية ولا مضامين ولا أشكال . وكأنما أخذتنا سنة من نوم فتركنا للعابثين بهذا الفن الكهل الجميل الحبل على الغارب فتبوّأ بعضهم عندنا مكانة لا يستحقها أجهل الجهلة وراء حدودنا . ألم يدع بعض هؤلاء أن مسرحنا بخير اعتمادا على احصائيات لا موهومة ولا موضوعة بل ثابتة صادقة ؟ لقد قدم المسرح للجمهور التونسي مثلا في ظرف الخمس سنوات الماضية ما يربو عن خمسمائة مسرحية . من نلوم ؟ الجمهور القانع بما يقدم له لانه من أحياء المسرح منذ أمد بعيد ؟ ... عوّدوه بالسخيف والملفق والمهلهل شكلا ومضمونا فتعود ولم يشهد مسارح الغير فلم يتمكن من المقارنة . أنلوم النقاد وهم سند الخلق المسرحي عند غيرنا لكنهم هنا اما معاول هدم او أبواق دعاية ؟

أنلوم المخرجين وهم قلة وكثيرا ما يلقون التبعة على الكتاب فيرمونهم بالعقم او الكسل او عدم الاكتراث ؟ أنلوم اذن (الكاتب المسرحي وهو بدوره يلقي التبعة على غيره فيلفق الاسباب الى جانب الاسباب الحقيقية ليخرج من المأزق بسلام ولا بثنج ؟) العيب على هؤلاء جميعا وعلى بعض المسؤولين ايضا . « حرية التعبير » موضوع علينا ان نثيره هنا اذا أردنا ان نصارح بعضنا البعض في مشاكل المسرح الجوهرية والعرضية الظاهرة والخفية (مشاكل الركح ومشاكل الكوالبس) . (هذه بعض المشاكل التي تعرقل مسيرتنا في سبيل بعث مسرح تونسي كهل .. لكن هل نحن اعددنا العدة لذلك ؟ .. هل تجاوزنا النوايا وألقينا بأنفسنا في الفعل الفاعل الخلاق ؟ ...جوابي على هذا السؤال تبادر الى الذهن باعتبارها ذكرت : لقد قصرنا في حق المسرح عندنا) . لكن اشفع هذا الجواب بسؤال آخر : لم هذا التقصير وما هي العوائق الحقيقية التي اقعدت الخلق المسرحي ؟ عن مواكبة النهضة التي نشهدها في أعمال معاصرتنا خارج منطقة البحر المتوسط .

٣ ـ علاقة الخلق المسرحي بالاساليب الجمالية والمؤثرات الركحية

والوسائل السمعية والبصرية والدعائية بصورة أعم :

من الثورات المختلفة التي تجتاح عصرنا كالرياح العاتية حتى كاد يتعودها الناس ويعتبرونها ضرورة من ضرورات هذا الزمان تلك الثورة التي طرأت على علاقة الكاتب بالجماهير . ولا أقول بمجتمعه عن قصد لعلمنا جميعا ان الثقافة في عصرنا نفاثة عمودية أو أفقية او دائرة محيطة ... لولبة كوكبية تخترق الحدود جميعها ولا تعبأ بالحيطان والابواب والاقفال ... تفاعلنا في الهواء الذي نتنفس في كل صورة على كل نغمة في كل اذن وفي كل فم .

وان علاقة الكاتب بالمحيط في عصرنا مشاكل عن علاقة الافراد في كل المجتمعات .

لقد تعودنا ان نعتبر كتاب السلف حملة رسالة مقدسة فهم في نظرنا عبارة عن انبياء وائمة ومهديين . وهذه النظرة لا تخلو من الرومنطيقية وقد بدخلها التعمق والاستقصاء ووقفة التأمل الواعية . فنحن نعلم ان عدد الاميين يتضاءل مع تقدم الزمان وان الجهلة في العصور الغابرة كانوا لا يحصون ويعدون لكثرتهم وقلة العارفين بالنسبة اليهم فبهذه النظرة الاحصائية يمكننا القول ان الثقافة كانت في العصور الغابرة ترفا لا تتمتع به الا أقلية محظوظة كادت تكون نخبة القوم .

ونحن اليوم نعيش عصرا تكنولوجيا ... ومن ميزات المجتمع التكنولوجي انه لا يمكن ان يستغني عن نوعية الجماهير وبقطع النظر عن الانظمة السياسية فان هذه الظاهرة الاساسية تبرز في كل المجتمعات التي ندخلها الآلة وتصبح عنصرا من عناصر حياتها اليومية . وهكذا اصبح السواد الاعظم من الشعوب من مستهلكي الثقافة ومن رواد المسارح والنظارة لعروض التلفزة والمستمعين لبرامج الاذاعة . والناس في عصرنا قلما يقرأون فليس لهم من الوقت – في عصر السرعة – ما يصرفونه في المطالعة ... وهكذا بدأ القارىء والامي يجلسان على صعيد واحد ، صعيد الثقافة الجماهيرية . ولا يعني هذا ان الثقافة انحدرت الى مستوى الامي وانما يعني ان الامي سما وارتقى الى مستوى الثقافة الحية . فالامي اليوم ابن عصره وان لم يحفظ أصول القراءة والكتابة ولم يزاول مرحلة من مراحل التعلم وهي كما تعلمون كثيرة بين المهد واللحد .

وذلك ان العالم عرف حضارة الادب الشفهي الذي تناقلته الاجيال ابا عن جد عن طريق الرواية والاستاذ . ثم عرف حضارة الادب المكتوب الذي نجم عن اختراع آلة الطباعة على يدي Gutenberg (١٤٠٠ – ١٤٦٨) ثم ها هو يعيش اليوم حضارة الادب المرئي . وهذا ما يفسر في نظرنا نهضة المسرح في عصرنا واقبال الجماهير من جديد على هذا الفن الذي مر بفترة انحطاط وعقم كان له في الواقع اكبر ضلع في تمديدها واستفحال خطورتها لعدم اقباله على مشاكله بالسرعة المطلوبة وعلى استئصال علله من الجذور .

المهم ان المسرح اليوم استرجع عند غيرنا وبدأ يسترجع عندنا بعض كيانه كفن راشد ثابت الاصل متنوع الفروع كثير الافنان . المهم ان نؤمن بنجاعته ونعمل على انعاشه بالانتاج المبتكر الدافع الحركي ليكون للناس فرجة وعبرة كما كان في القرون المترشدة في اليونان العتيقة وفي انكلترا الاليزابيثية . كان يجذب المتفرجين جذبا يكاد يكون مغناطيسيا ، وكان جمهوره غفيرا متنوعا ذواقا حساسا حيا كتلك المجتمعات التي نشأ فيها هذا الفن الجميل ودبّ ودرج المجتمع كل المجتمع ، كان جمهور المسرح . فمسرح Epidaure كان ينفسح لاربعة عشر الف مشاهد . ويمكننا ان نحتمل ان الاغلبية من هؤلاء لم تكن على جانب من الكياسة وآداب اللياقه التي كان يمناه ويرجوه شيخنا صوفو كلاس صاحب انطيقون الخالدة وأوديب ذاك الطود الشامخ بين أطواد الادب الباقي ... نعم يمكننا تصور المشاكل والصعوبات التي كان يلاقيها صوفوكلاس في اداء رسالته المسرحية على الوجه الذي يرضيه يتلقين تلك الجموع اصولا من الافكار والمشاعر هي أغرب الى سمو القيم الخالدة منها الى الدعارة والاسفاف والثرثرة والتلفيق الذي حشونا بها مسرحنا الى عهد ليس ببعيد . كم لاقى صوفوكلاس من عناء في جلبه انتباه نظارته في دقيقة صمت ينفتح خلالها الذهن والاعتبار ... كم لاقى من عراقيل !

فلا تدفعنا الخشية من غضب الجماهير ومن تحجرهم وقسوة أحكامهم على الفنانين الى استجداء التصفيق والمخاتلة واثارة الغرائز الوضعية . ولكن الجمهور الحاكم على انتاجنا فهو حافزنا للتقدم بهذا الفن الى مرتبة الفنون الكاملة وهو الذي سيجبرنا على خنق مسرحية تتجاوز معنى اللغة المتعارف المنحصر في ترصيف الحروف وتصنيف بديع الكلام ... فلغة المسرح انفاق ضمني بين رجل المسرح والمتفرج وهي الى القلب أقرب منها الى الاذن . وما رجل المسرح الا ذاك الذي يشعر من أعماقه انه في حاجة الى الافصاح ، الى التبليغ ، الى الدخول في حوار مع الغير ... لان الحياة حوار مستمر لا يقطعه الا صمت الموت ... وبصورة جد مؤقتة كما نعلم ... لان الموت لا يخمد صوت الناطقين .

مصطفى الفارسي

دراسات ادبية

من منشورات دار الآداب

مذكرات طه حسين	د . طه حسين	٤٠٠
من ادبنا المعاصر	د. طه حسين	٢٥٠
سارتر والوجودية	د .م البيريس	٢٠٠
تجديد رسالة الغفران	خليل هنداوي	٢٥٠
سيمون دوبوفوار	فرانسيس جانسون	٦٥٠
بابا همنفواي	ا . ا . هوتشنز	٦٠٠
الادب المسؤول	رليف خوري	٤٠٠
اصوات غاضبة في الادب والنقد	رجاء النقاش	٣٥٠
وتبقى الكلمة (دراسات نقدية)	صلاح عبدالصبور	٢٥٠
بين آدم وحواء	د . زكي مبارك	٢٥٠
التسبب بالشعر	د . جلال الخياط	٢٥٠
محمود احمد السيد		
رائد القصة الحديثة في العراق	د. علي جواد الطاهر	٤٠٠
مشكلة الحب	د . زكريا ابراهيم	٥٠٠
شخصيات من ادب المقاومة	سامي خشبة	٢٥٠

نهر الميكونغ

قرات في جريدة « لوموند » Le monde ان نهر الميكونغ يدخل القرى محملا بضحايا الفيانناميين ، فيستقبله الناس متصايحين : جاؤوا ! جاؤوا ! »

واصل سبيلك واسق السهل والحزنا ... واجرف ضحاياك لا تطلب لها سفنا
ما اجمل الشمس في الآفاق ساهمة ... كالعين تحمل في اهدابها الوسنا
جنازة الماء انفام يوقعها ... صوت من الصمت لا يستوقف الاذنا
ضمائر الطير والاحجار تسمعه ... ورعشة الغصن تحكيه اذا سكنا
الناس ينتظرون الآن مقدمهم ... لانك اليوم قد اصبحت مؤتمنا
لا تخلف الوعد ان هبوا كعادتهم ... ولا رأوك شكوت السأم والوهنا
عجّل بهم لا تفكر في مواكبهم ... كلا ولا تعطهم قبرا ولا كفنا
العالم انهار حتى عاد ساكنه ... لا تشتهي روحه ان تسكن البدنا
حضارة اليوم لا يحيى بها بشر ... ان لم يكن ميتا في ذاته عفنا
من لم تنقّل بماء النهر جثته ... كفاه من نفسه موتا اذا جبنا
يا نهر لا تبك ميتا قال كلمته ... واندب شبيها به في جلده دفنا
حياتنا لم تعد الا مقامرة ... يعيشها الحر منبوذا وممتهنا
ويكسب السبق فيها كل منتهز ... بفكره في مواخير الحياة زنى
يا نهر لوّث جبين الارض من دمهم ... فالارض مذ بسطت لم ترو من دمنا
هناك مات شجاع صان عزته ... وآخر بسياط الذل مات .. هنا !
هذا يمزّقه جوع وينهشه ... وذاك في دمه المسفوك قد عجنا
وثالث في كهوف الليل ترقصه ... مليحة خلفت في قلبه الشجنا
يا ضيعة العمر نقضيه بلا هدف ... مثل الضفادع واديها بها أسنا
تعيش في غمرة الاوحال راضية ... ان نقنقت حسبت ان الحياة غنا
أواه من لعنة الاجيال لو علمت ... انا قتلنا بأيدينا ضمائرنا
ان كلّف الله نفسا فوق طاقتها ... فهذه الارض قد باتت لنا وطنا

جعفر ماجد

عشق الحشائش اليابسة

قصة بقلم ابراهيم بن مراد

قام يريد أن يسعى . تضعضعت على رموشه نسيمة باردة حين التقطت أذناه صوتا متذبذبا . قال : أمامي الان المنطقة الحرام حيث تغوص الرجلان حتى الفخذين في الوحل ، في الطين الاسود الملتهب . ثم صمم . لكن صمت المكان اشعره بان المكان حوله ممتلىء بما لا يدري بالروائح الكريهة او الاذان المنتصبة اصغاء ، او العيون المنتشرة على الارض . لذلك اشتدت برودة النسيمة على عينيه ، ثم تذبذبت على جلده فاختل توازن خطاه ، وارتفعت عيناه الى فوق فرأى صورة الارض على السماء : الملح المترب والشجيرات اليابسة وشعاشيط النخل المحترقة . وشعر بالطين الاسود الملتهب يغوص في قدميه حتى الفخذين . حدق في شجيرات كثيرة منتشرة حوله وبين قدميه . حدق في شجيرة السدر التي أمامه فانتفضت في عينيه حبيباتها المصفرة . ولكنه لم يقرر أن ينثني رغم الطين والاصفرار والسماء . حين قرر كان يحلم بالزرقة المتساودة ، والدائرة المهترئة ، والماء الراكد . حلم بالعمق غير ان العمق في ذهنه غير قار . لكنه متأكد من أمر واحد : ان هذه السبخة تقرقر في أمعائه وفي حلقه ، وأن الماء الراكد الذي يقصده منحبس منذ أزمان في دائرة مهترئة . هي كتلة من زرقة متساودة تنثر فيها قطع من السماء مرتسمة عليها الارض ملحا متربا ، وشجيرات يابسة ، وشعاشيط نخل محترقة ، وشيئا اخر نسيه . قيل : انه تحت الماء الراكد في الدائرة المهترئة حيث الزرقة المتساودة ونظر وراءه فانتفض في رجله اليمنى مستقر شوكة كانت قد انغرزت في باطن قدمه حينما كان ابن سبع يعين أباه ليلا على سقي الغابة . رأى الواحة تبتعد وشعاشيط النخل . رأى نفسه اوغل في السبخة قال : كم يعذب الحلم . ثم تمتم : يا أرض الاحلام . واندفع متوقعا . حتى احاط به في ممره كثيبان من الرمل صغيران . حدق فيهما كأنه يكتشفهما لاول مرة . انبهر أنفه بروائح لم تتميز عفونتها عن طيبها . فقال : لو كنت شاعرا . ولم يشعر كيف اقترنت في تصوره الحبيبات الصفراء في شجيرة السدر بالرمل والذهب حتى امتلأ تصوره بذلك الشعور ، حتى انفلت ذلك الشعور من منطقة التصور لينتشر في المناطق الحساسة من ذهنه وجسده . حتى صار ذهنه وجسده كتلة واحدة من الشعور بأنه لن يبرأ الا حين ينتهي الى الدائرة المهترئة . حيث الارض والسماء والزرقة المسودة . حيث الماء الراكد . وانطلق متوقعا . قال : اما مجرد انسان عادي ابحث عن جواب لمعضلة فهرتني قد نسيتها الان ، وسأجدها في الدائرة المهترئة ، في الماء الراكد ، في الزرقة السوداء .

والناس في تلعثم يتنهدون . يعترضونك . هؤلاء الذين يحررون على الحشيش اليابس أنفاسهم . الذين يأكلون الخبزة وينتظرون الموت . يأكلون الموت وينتظرون الخبزة . أحوال الطقس تحدد العلاقات بينهم ، واحوال البورصة .. لملمت على كرسيك ان شئت لتنظر ما يجري خلف النافذة وما يتدحرج على الحشائش اليابسة من لهاث . فانت عاجز عن ذلك العجز الذي اوقفك مرة امام نفسك كالعجز الذي اوقفك مرات مترصدا موجة برد خفيفة أيبست الحشائش في قاع البحر ، وانبتت الشعر على ألسن هؤلاء المنبطحين على جدران بلا أطر تغطيها صور من هنا وهناك . والنعجة التي نفك من صاحبها والحبل الذي يتدلى في عنقك والبحر الذي تغرق فيه أوهامك وكثبان الرمل التي تخربق صمتها ذيول العقارب وشعاشيط النخل التي يلتهمها « الشهيلي » في تقزز كأملاح الشط التي تقزقزها اقدام كانت تدعى جياد الرحمة وجياد الرحمة قد ذابت في ذلك الطين الاجرب المسلوخ كأنه التهم الموجهة اليك والاشرار التي تغوص فيها أصابعك ولم تشرئب اليها عينك يوما . أين أنت ؟

أمام كأس مملوءة سائلا اسود احتوى من السكر قليلا ومن الاملاح كثيرا فحتام ينفس « الشهيلي » في أمعائك ؟ أكتب لتكتب . فتى يريد أن يغر . أيوب قد اصابته الفدة . وأنت ــ لا محالة ــ تعرف ان الانتباه الى ما يحدث حواليك يعاقب عليه القانون . لتكتب .

ذات ضحى . انبثق من الارض حمر . تطاول القمر على البحر . فاندست فيه سمكة فانثقب القمر وتدحرجت منه حجرة على الارض ، فكانت الارض . وذات مساء . انبثقت من السماء شمس . تطاولت الشمس على الجبل فاغرى بها حصاة هبت على الشمس حكاية لم تستسغها اشعتها ، فغضبت ، فامطرت ، وتلبد تراب الارض على الجبل فكان الجبل . وذات غسق . تطاولت الارض على الجبل ، وانغرز فيها شوكة . فاقتحم تجاعيدها اليأس . فأصاب اجهزة تنفسها عطب فأصابتها سكتة قلبية . فاندثر الجبل . لكن .

لتعترف . ان ليس لهذا الحديث من معنى الا اذا اعدمت صفة الشاعر وصفة الفيلسوف وصفة النبي عنك . الا اذا أقمت العلاقة بين ما تكتب وبين هذا الذي انغمست فيه لحظات تفكيرك . تأمل جيدا . هذه نملة صغيرة تتسلق قضيبا حديديا ، من قضبان نافذة . هذه النملة تريد ان تتسلق الجبل ، اذ تصل القمة . لانها من القاعدة . حتى وصلت القمة فنسيت حقارتها ففتحت ما بين فخذيها ثم ها هي ذي تبول على الدنيا وتشرشر . وهي لن تعدو ان تكون حبة مصفرة من حبيبات . شجيرات السدر . ذلك عندما قالت احدى بنات افكارك لو يستقيم الشط في وقفة عسكرية تاملية ، او يقشعر . عندئذ قد

يتولد ماء او ينفجر غازا او يتزلزل اودية من الرمال السافية الناسفة وقد أعمى الرمل عيون قومك وابناء القرية . قالت : لا تتامل جيدا فانت من الذين يمقتون التأمل وجلسات التأمل ، والتأمل من شأن الصوفيين . قالت : انا اذكر جيدا حينما كنت تنظر الى مبنى شاهق وقد شهقت المدينة بردا اذ تنفس السخط في اسمائها . عندئذ تولدت في صلب ذاكرتك فكرة :انت الباحث فالمبحوث عنه . قالت : وعندما بدأت المحاولة تعرفت عليها . كانت .

كانت كما كنت أشاء ان تكون في كيانها وكينونتها وكل كائن فيها . كذلك ببدأ الحلم . وكذلك بدأ .

عندئذ ، انتهى به تفكيره الى التقرفص ثم الجلوس على فوناي مربع في قاعة صفراء ، دموية الشكل حيث أصغى في انتباه مشوش الى ما قررته فيه تلك التي لم تحبه واعتقد انه يحبها . قال : كنت آنئذ جالسا أمامه . وكنت صامتا صمتا . كنت أهم بالكلام لكني أركن الى الصمت الذي نعود بي حتى كرهني . وكنت أهم بان اعيد ، ان أهم بالكلام ، لكني أصمت صمتا ، لانني كنت متوقعا . كان هناك رجل او شبهه . كان هناك محقق . في طابق عال في مبنى عال . كانت بجانب المحقق او أمامه آلة تسجيل . وانطلق من الآلة صوت .

« هذا تقرير سري اتصلت به مصلحة الاستعلامات القارة وغير القارة التي لم يتقرر مصيرها بعد من المقررة النابهة الذكية الوافية الوفية الحافظة لمتون المالكية والشافعية والابن عاشرية ، ابنة الاكابر ، فلانة » . ثم انطلق من آلة التسجيل صوت انثوي عرفه الجالس على الفوتاي من الحين .

ـ البسملة والحمدلة على ما نفعل وما نقول . عرفته في مقهى من مقاهي المدينة . وطبقا لما تقرر فيه من قبل ومن بعد ومن فوق ومن تحت ومن هنا وهنالك ، احطت به . ، اظهر لي جوعه فوعدته بالاطعام وابان عن عطشه فوعدته بالارواء . استقادني فتقودت ونلاعبنا الورق ثمانية اطراح كان الغالب فيها . فاظهر في الاول انه متعصب للحزب القادري مصبوب على عينيه يخاهر في الحضرة الربانية كلما دعت الحاجة الى ذلك . وفي الثاني أنه من ذرية النبي صالح . وفي الثالث انه من نسل يوسف الحسن . وفي الرابع انه من الشيعة المتشيعين للامام المقتول . وفي الخامس انه يحب القطط عندما ينادي : ماو . ماو . ماو . وفي السادس انه قحطاني عدناني يمني من قوم بني عربان عصب من جملة عصابين يعرب ، وفي السابع انه يؤمن بالبعث يوم القيامة . وفي الثامن ان مذهبه يقوم على الاخاء في الدين وعلى الاخوانيات في العقيدة . ولكن قد تبين لي انه مدن يحبون أكل « الهندي » المقشر وان جرائم ثمانية يجب ان تسجل في ملفه ، بقدر ما اعطاني من افكاره الساعة المسمومة التي نادى ربنا الاعلى وما انفك ينادي بأن الرؤوس يجب ان تتطهر منها وان السجون يجب ان تمتلىء بها . فهو يجهل ان لا حرية في الاعتقاد وينفي ان ليس سوى ملك واحدا ومبدأ واحد وعقيدة واحدة قائلا : ان ذلك من القرون « الوسطى ... »

سأله المحقق : كيف ادعيت النبوة وقد قال نبينا لا نبي بعدي ؟

أجابه : ما معنى النبوة ؟

سأله المحقق : افادتنا مصلحة الرصد الجوي بأن درجة حرارتك في ارتفاع وان بحرك هائج شديد الاضطراب وأن امطارك غزيرة وأن لك مخططا لتحويل شط الجريد وسبخة السيجومي الى بحار هائجة مضطربة تعوم وتغطس فيها شراذم من السمك الضال والبطالين العاطلين الغاضبين والبتلز والهيبز والمكسيجوبات والميكروجوبات والشعور الطويلة واللواطة والسحاق والبغاء والزواج الحر والزواج الجماعي والنوفي والتكروري والعنف وافلام الوستيرن وجرائم القتل والافكار المستوردة والكتب الحمراء والكتب الخضراء والكتب الصفراء وكنت ماركس ولينين ونظريات ستالين في السياسة والمجتمع وآراء هتلر في المدنية والحضارة ومواقف الصعاليك من الملكية والملك ، والايديولوجيات المارقة والتمعش من الخناء ، والجوع والفقر واحمر الشفاه والمونيكول وجيمزيراون والخبز والماء والجنس وبوريس فيان وبريشت وايمي سيزار وكاتب ياسين وشي غيفارا والزطلة والزمياطي وبا مريم وعلاش دلالا وهنا لندن وسيتما تعلب وصوت العرب من القاهرة واشبيني هكه ... أجابه : وما في الجبة الا الله . سأله المحقق : ما قولك في النبي صالح ؟ أجابه : قال لهم ناقة الله وسقياها فكذبوه فعقروها . سأله المحقق : ما قولك في يوسف الحسن ؟ أجابه : مات شهيدا . سأله المحقق : ما قولك في الخوارج وثورة ميسرة السقاء وثورة ابي يزيد صاحب الحمار ؟

أجابه : لا فرق بين عربي واعجمي الا بالعمل . سأله المحقق : ما قولك في الادب ؟

أجابه يعجبني شعر الصعاليك . سأله المحقق : ما قولك في الخلفاء الراشدين ؟

أجابه : زار عمر ذات يوم دار ابنه عبدالله ، فوجده يأكل شرائح اللحم . ففضب وقال له : الانك ابن امير المؤمنين تأكل اللحم والناس في خصاصة ؟ الا خبزا وملحا ؟ الا خبزا وزيتا ؟ سأله المحقق : فأجاب ثم سأله المحقق . فاجاب . ثم صمت المحقق . فلم يصمت . ثم نطق المحقق : يجب ان تخصى يا بني . انت نبي مزيف . وحجتي على ذلك انه لو ظهر نبيان في بلد واحد وفي نفس الان لفسدت تلك البلاد وعم الفساد واندلع الكساد ومات العباد لان ربك لهم بالمرصاد وانطلق من عقاله الجراد وعق الاولاد وانتفض الاوغاد وامتلأت الوهاد بالشر والنجاد ونحن يا بنيّ قوم خبزست نتنظر متى نصل وصولا الى الطريق القويم فيكون لرجلنا عليه وقع . فلا تكن الكلب الذي ينبح على السحاب فاني احذرك سوء العقاب. والله يا بنيّ لو اجتمع الانس والجن على ان يأتوا بمثل نبينا ومثل قرآننا الذي أتى به نبينا لعجزوا . ولتعتقد من الان ان الموت اقرب اليك من طرفة عينك وانبثاق الخاطرة في تفكيرك . فانت مسير ولست مخيرا ...

وسرعان ما تفطن الى أنه أتلف الطريق . اخطأ المسلك الموصل الى بركة الماء . هي طريق قديمة قد بدأت ملامحها تنعدم ، لطول ما هجرها الناس . وسرعان ما انتبه الى عرق كبير من الرمل لم يكن تركه في ذلك المكان منذ بضع سنوات ، قبل ان يغادر القرية ، ولكن خيل اليه أنه يعرف هذا العرق معرفة جيدة . قد يكون رآه في الحلم . قد . ولكن ذلك على كل حال وفي كل الاحوال لا يمنعه من تسلقه . ثم شرع في الصعود . صعد خطوة اولى ففاصت قدماه في الرمل . ثم صعدالخطوة الثانية ففاصت رجلاه حتى ركبتيه . ثم صعد الخطوة الثالثة ففاصت ساقاه ثم فخذاه في الرمل . قال : هل يمنع عليّ حتى صعود جبل من الرمل ؟ ثم غرز يديه في الرمل السخن مستعينا بهما على الصعود واجهد نفسه على ان تتعود يداه على ما يوجد في غضون ذلك الجبل الرملي من القذارة . حتى وصل . استطاع أن يصل أعلى بقمة في كثب الرمل . حتى تمركز على القمة المشرفة على القرية وعلى الواحة. رأى الواحة كالحة ورأى السبخة ملحية الطين . حين وصل حين رأى الواحة كالحة حين رأى . السبخة الملحية الطين حين رأى شجيرات السدر والغذام والفردق والطرفاء تصفق للريح الراكدة ، حين احس الفاصل الزمني والمكاني بينه وبين الارض ، حينئذ تدغدشت رؤيته ففرك عينيه . حينئذ قال : نحن بحق خير امة اخرجت للناس . ثم هوّم ببصره في الافق الساكن . ثم نظر الى المنحدر الذي تسلقه . ثم غاصت دمعة في قلبه . عندئذ رأى قبرة بالمكان في فضاء المكان ولم ينتبه الا آنئذ لسرسطتها المتواصلة وخفقان جناحيها وارتكازها في نقطة معينة في الفضاء . كان ذلك حين غاصت دمعت في قلبه . حين اندلعت فكرة في خاطره . حين هم فمه أن ينفتح حين صرخ بكل قواه : فددت . فددت . فـ د د ت . كان ذلك حين سكتت القبرة حين ارتعشت رجلاها . حين انتصبت شعاشيط النخل مصغية الى همهمته وقد انفرزت في عينيه شعاشيط النخل وانغفرت في خاطره فكرة القرية

قبضة الحديد

اكتب قلمي والعن كفي
فجّر ، فجّر صمت الورق
الدمع سيحصد أهدابي
والليل يغازله أرقي ! !
وأنا قد جعت... وفي وطني
وظمئت لاشرب من عرقي !
شيء مجهول يخنقني
...يبست كفاه على عنقي
اكتب قلمي ... وضح وضّح
اني بعثرت على دربي
ابليس يقهقه في أذني
والخوف يعشش في قلبي
اكتب ، اني منتظر
لقد حلو ... لقد عذب
لكن لو تكفر ساعاتي
فسيكفر بالدنيا ربي
اكتب قلمي ... ألهب عمري
فالشعر رماد في بلدي
كفى المجروحة تضنيني
أترى يا جرح يشبع غدي ؟
اكتب . لا تأبه بنزيفي
... جرحي قد ألفته يدي ...
اكتب ، ان نفدت أوراقي
...ما أحلى الخط على الكبد

قرطاج جمال الدين حمدي

نحن امة قد تاصل فيها النفاق . نحن امة . يا قرية الجبن والخوف . ثم امتد به البصر الى الفضاء حيث لا قبرة وصرخ بكل قواه : لقد فددت ـ فددت ف د د ت . حينئذ . حينئذ انبزق على الرمل مغمضا عينيه كان ذلك حين اختطفه المنحدر . حين قد ركب الى القاع وقد تجمد تفكيره في نقطة معينة هي : ما معنى ان نقول : كش مات ؟

وجد نفسه في المنحدر جالسا على فوتاي مريح أمام ثلاثة رجال لهم وجوه قردية وتذكر اسئلتهم له عن الصغيرة والكبيرة من حياته وقد أمسك احدهم بملف ضخم مكتوب على الصفحة الاولى من غلافه اسمه باحرف سوداء وتذكر . قال له المحقق : انت تعرف جيدا ما معنى الا تكون مخيرا في تفكيرك ، وانت تعرف جيدا ان القانون يعاقبك على افكارك القابعة في ركن ما من رأسك اذا كانت مخالفة للقانون والعرف والعادة والتقاليد والاخلاق العامة والاداب الخاصة . وانت تعرف جيدا ما معنى مخك وتنظيف عقلك وتشييح ريقك مما علق به من الجراثيم . وتذكر جيدا آلة التسجيل التي اسمعته خطبة لاحد الامراء الداعين بجمهورية واقعية افلاطونية من مبادئها لو كانت النظافة من الايمان لكان الوسخ من الشيطان ، ولو كان من غشنا ليس منا لانتفت العلاقة بين الماء والبحر وبين السبخة والشط بين الفعل والفاعل .. ثم تابعت عيناه تحليق الحداة والقبرة في اعماق الفضاء .

ولكن انتباهه الى الرمل عاوده . فاخذ يتحسس باصابعه حبيبات الرمل . يقال انها ذهبية . وامتزجت باصابعه مادة لزجة عالقة بحبيبات الرمل عجب لوجودها والطقس قائظ . عندما أمعن النظر في السفح الذي انحدر اليه ، تبين ما تجمع فيه من قش وبقايا أوساخ قد جمعت بينها الريح في هذا المنحدر . وعانق قذارة السفح . لم يشعر بالغدة . غاصت اصابعه في الرمل الممتزج بالقذارة وغاصت في قلبه عاطفة جارفة تشعره بانه من هذا السفح قد خلق وان الطمع في القمة جريمة وان القرية لن يصلح حالها الا اذا أزيح هذا العرق من الرمل واستوى اعلاه بأسفله . انغرزت اصابع يديه في الرمل ، وغاصت في قلبه عاطفة الانتماء . ثم حمل الرمل بكلتا يديه ثم عفر به وجهه وقد تسارعت دقات قلبه وانغرزت في عينيه صورة حوت . انبثق الحوت من بركة ماء راكدة كان يطمح الى وصولها . حرك انبثاق الحوت الماء قال الحوت : انا الحوت الذي التهم يونس ، ويونس الان في جوفي . وجوفي جوف صحراء .

قال المعانق للسفح : وهذه السبخة كانت بحرا . ومنذ التهم الحوت يونس أصبح البحر سبخة يتنفس في اعماقها الصمت والبرد والقيظ . كذلك حلمه على يونس ان يعتزل الناس في جوف حوت ، في جوف صحراء ، في جوف سبخة .

« قد يلتجيء اليقطين الى ذراعي سنديانة فلا تغطيه . وقد تفتح سمكة فاها لتلتهم البحر . وقد تتعطل مسام النسيم عن التنفس . فيشعر اليقطين في البحر بالاختناق . وتشعر سمكة في غصن طرفاء بالبرد . ولا السماء تحمل السمكة ولا الارض تحلم بالطرفاء . فتضمحل من الافق صورة العدل والحرية . وتبقى صورة الزمهرير فصيحة . الزمهرير المتفتت في شرايين الليل والنهار . والثلج المتفتت في السواعد العارية . والصفيع المتفتت في الاقدام الحافية . فتبتسم الطرفاء للبرد وترفص اغصانها رقصا . ويكفهر وجه السمكة لشعور عميق بالدفء . فيرتعش الحوت في البحر وتوشك ريح صرصر ان تهب لولا ان ترى برهان ربها فيسمع لتدحرجها . ونقول السمكة ليتني كنت حوتا فآكل على مائدة كبيرة . وهي تحلم بالبحر والبحر لا يعلم بحالها ، لان يونس في أعماق اليم يحتضر . لان يونس في اعماق الليل محتضر ويونس في اعماق الليل تغمره السكينة ، وفي جوف اليم عشب ، وفي جوف الحوت صحراء يفور دمها وشجرة تدعى اليقطينة وطرفاء متفسخة الشكل . يا عري الاراضي السبع والكواكب التي لا عد لها متى ننسكب الافق دمعة في جوف صحراء ؟ فلا تنبت البثور على فجر جميل ولا يتبقع الصبح بالسواد . يا انسلال الغد من امس كان يدعى يونس ويا انطفاء اليوم . »

بمنع عليك بلوغ البركة المتجمدة . ويمنع عليك مغادرة السبخة . ويمنع عليك عدم الاعتراف ، ويمنع عليك عدم الاقتناع . ثم انطلقت القبرة تسرسط من جديد . ثم انطلقت تحلق بجناحيها في الفضاء منغرزة في طبقاته العليا . وقد امتلأ وجهه بالرمل . وقد امتلأ قلبه . ثم انغرزت دمعة في قلبه . لقد تذكر . ثم تمتم : يا قرنتي . يا قرية الاعياد والابطال .

ابراهيم بن مراد

في دروب الأزمنة القادمة

(١)
كنا اكسل من لعبة شطرنج او نرد
كنا الطف من اشعار الوجد
كنا انعم من تكويرة نهد
(٢)
ما احلى تلك الايام !
ما ارغد تلك الاحلام !
ما ارغدها ما ارغدها ما أرغد !
(٣)
لكن (لا غالب الا الله)
كانت اعظم درس مكتوب في جدران
(الحمراء)
يتلوه الزائر ثم يردد :
(لا حول ولا قوة الا بالله)
حقا حقا
(لا غالب الا الله)
لا شيء على هذه الارض يخلّد
ويرتل
ويجوّد
« كل من عليها فان
ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام »
ومياه الوجه تراق وتسكب من اجل
رغيف اسود
وهدايا الشعب الاميركي لا تجحد
لكن القنبلة الذريه
في الحرب الكونيه
فوق « هروشيما »
تجعل سطح الارض رميما
والشعب يثور يثور ولكن يسكن
كالماء وراء السد
ويظل مدى الايام
في أخذ وردّ
في جزر او مدّ
لكن يركد
كالماء وراء السدّ
كالماء وراء السدّ
وتخدره أطياف عذبه
أحلام رطبه
ووعود كالزئبق لا تمسك باليد
أكذب من لمع سراب في القفر الممتد
« كانت مواعيد عرقوب لها مثلا
وما مواعيده الا الاباطيل »
(٤)
والاهرامات الكبرى تنطق بالظلم
الصارخ والحقد
ما بين السيد والعبد
وكلام السوط الحاقد والقيد
يفزع كل رعايا (فرعون) الاكبر
فيزمجر
ويعربد
من اجل البارخ والمجد
لكن اصابع تمتال الحريه
في الآفاق العليا تمتد
كي تسمل عين الحريه
كي تهمي امطار الدمع الاحمر
من غير بروق او رعد
فهناك تقام تماثيل الشهداء
وهناك الحرية تستشهد
« وللحرية الحمراء باب
بكل يد مضرجة يدق »
(٥)
ونظل نلقن كل الاطفال
ونصبّ دروس الاخلاق العذراء
في أذني كل فتاة عذراء :
« العفة رأس المال »
« العفة كنز لا ينفد »
ونظل مدى الايام مع «الشعب» نردّد:
« لا يعجبك نوّار دفله
في الواد عامل ظلايل
ولا يعجبك زين طفله
حتى تشوف الفعايل »
(٦)
لم نأخذ من اوروبا
الا لبس الميني جيب
او لبس المكسي جيب
لكنا لو درسنا كل مبادىء علم الاخلاق
وطلبنا « منهن »
ان يلبسن « الباس الجدات »
لسخرن من الرجعيه
وطلبن الحريه
اذ أنا لم نتعلم من اوروبا غير قشور
المدنيه

لم نتعلم منهم لبّ المدنية
الفكر الفكر الفكر
العلم العلم العلم
لم نتعلم من امريكا
الا وضع الارجل
في وضع مخجل
فوق المنضدة الفخمه
في اوجه كل الزوار
لم نتعلم منها الحكمه
لم نتعلم منهـا
الا اخلاق رعاة البقر
اخلاق التكساسي القذر
اخلاق غزاة البشر
لم نتعلم منها اخلاق غزاة الفمر
لم ندرك انا ما زلنا نستورد
المدفع والرشاش بل الابره
حتى الابره !؟
عجبا .. حتى الابرة تستورد ؟!
مثل الافكار الحره
تستورد
(٧)
يتراءى في عينيّ سراب
يجعل كل يباب
يحلم بالخضره
يحلم بالزهر اليانع .. والورد
حتى يتفجر في الفدفد
نهر عذب مسكر
نشربه بكؤوس من عسجد
وأباريق زبرجد
« انا اعطيناك الكوثر »
انا اعطيناك العسجد
انا اعطيناك الجوهر
انا اعطيناك الفكر فلا تركد
انا اعطيناك العلم فلا تجمد
« منى ان تكن حقا تكن أحسن المنى
والا فقد عشنا بها زمنا رغدا »(١)
(٨)
كانت احلامي
ـ ما اعذب احلامي ـ
تمثال رخام
يكسوه الثلج الهامي
يغسله البرد

نور الدين صمود

---

١ ـ اقتبس الشاعر بعض ابيات من الشعر العربي القديم ، ومن الشعر الشعبي التونسي، وبعض آيات من القرآن الكريم ، ومعظمه خارج عن البحر الاصلي للقصيدة .

الشعر التونسي الحديث

بقلم محمد صالح الجابري

ابو القاسم الشابي

يعاني الشعر التونسي حالياً من سبات يرافقه منذ بضع سنوات هي بالتحديد الفترة من سنة ١٩٦٨ وحتى مفتتح هذا العام الجديد ١٩٧٢ . وليست تلك القصائد القليلة التي تمزق هذا الصمت من آن لاخر دليلا البتة على التنبيه الى مكامن الشعراء الذين آثروا الاخلاد الى متاعب الحياة العامه ، وتيار الزحام اليومي .

فالتفسير الممكن لمقاطعةهذاالسكون الذي طال امتداده هو ان تلك الاشارات بلوح منذره بعض الاصوات الجديده التي عششت في ظلال هذا الصمت ، ورفعت عقيرتها بالدعوى الى شعـــر « تجريبي » ، واعلنت دونما تهيب أو حشية ، أنتهاء جيل من الشعراء الصمت به كل ما يشين ويضيف . وأندفعت الى المواجهه بديلا . ثم أخذت فـــي بياناتها الشعريه شرح دعواها وتبرر ظهورها .

وأثارت المواجهة الباردة التي وقفها منهم جيل الشعراء المعروفين في نفوس هذا النفر من الشباب حمية واندفاعا .. فانحرفوا عـــن دورهم في أن يملأوا الفراغ المتاح الى مباهات المداورة واللمز والتجريح مما جعل المثقفين والقراء ، على حد سواء ، ينقبلون هذه القصائد النثرية (التجريبيه) بتحفظ وسخرية . سيما أن الشعر العربي اقترن في النفوس ، منذ الابد ، بظاهرة التنغيم التي جافاها هؤلاء لافتقارهم الى القدرة على موسقة قصائدهم ، تلك الموسقة التي هي منة المنن على الموهوبين من الشعراء .

من خلال هذه الافاق التي نظهر ـ لحد الان ـ عجز هذا الرهط من الداعين الى القصيدة النثريه من ضوابط السعر المنغوم (نجـــد نظائر لهم في شعر أنسي الحاج (لبنان) ومحمد الماغوط (سوريـــا) وفاضل العزاوي (العراق) ..) .. ونظهر غلوهم في اعتداد انفسهم اهمية لا تناسب ما يطرحون من محاولات ، مع يقينهم من استحالـــة الاستجابة الجماهيرية لمثل هذا اللون من النثر الساعري .

ومن خلال ما يمكن ان ينعت بتراجع وخيبه الجيل الذي ظهر في مدى الستينات ، وصمته الصمت المبكر الذي لا ينبيء الا عن ضمـــور تلك المحاولات التي قدمها في بدء انفتاحه على القراء ، وانسحابـــه مدحورا الى الوقفة ، والافلات من حتمية مواجهة الاجيال .

قلت : من خلال ذلك كله حاولت ان ارسم صورة حاضر الشعـــر التونسي ، وسأحاول في خطوط عامة الارتداد الى ماضي الحركـــة الشعرية في تونس ، طيلة عشرين سنة ، اي منذ منتصف الخمسينيات وحتى اواخر العقد الماضي ، وهي السنوات التي تعرف بسنـــوات التحرر السياسي ، منذ حصلت تونس على استقلالها في سنة ١٩٥٦ .

وهو تاريخ يحتل في تونس شانا عظيما .. انعكس على كل ما فـــي حياتنا اليوميه ، وامتد ليسكب في ارواح الشعراء صبوات المجـــد والظفر .. فمشوا في مواكب النصر ، بينما كانت ملابين الافواه تملأ عنان السماء ، صخبا ونسوة ، وحداء ..

انما قصه الشعر في ربوع هذا القطر العربي لم تبدأ في هـــذا التاريخ القريب جدا ، فمنذ رسخت الحضارة العربية ، لم تـــن الاجيال من الشعراء متعاقبه . ما آب جيل الا ترك جذوة الحـــرف العربي لها معالم ، وأمن على ارث الاجداد والاباء .. ركب يتابعه ركب .. فلم تفتر هذه التربة مبدعة خالقة ، معطاء .. كان آخـــر هؤلاء الافذاذ ابو القاسم الشابي . فالقائمة لو توغلنا قليلا الى وراء ستكون اطول مما يقتضي المقام .

ولاسباب اصبحت واضحة ، عرف المشرق العربي الشابـــي ، وأعجب به . وظل الشابي الشاعر الوحيد الاكثر شهرة في المشرق من بين شعراء تونس الى زمن بعيد وحتى الان . ولذلك فالفترة المعاصرة هي التي تبدو في حاجة الى تقديم . اذ على الرغم من توفر وسائط الابلاغ المعاصرة حتى لتكاد حدود هذا العالم تصبح واحدة (ما يقع على طرف منه ينتقل في ومضة عين الى حدوده الاخرى) فان أزمة عـــدم اصغاء او ما يسمى بحوار الصم يسود ادباء العالم العربي ، في وقت، لو وقفت فيه ـ وأنا مبالغ في ذلك بلا شك ـ على شواطىء تونـــس لتبدى لك لبنان : شواطىء ، وشوارع ، وعمارات ، ولصافحتـــك واجهات دور نشره التي تأبى الا ان تضرب كشحا عن المساهمة في نشر الادب المغربي وهي في ذلك ملومة معاتبة .

ـ ١ ـ

امتد « عصر الشابي » حتى بعد وفاته في سنة ١٩٣٤ . فظلال شاعريته ، وقد استفزمها الكثيرون من معاصريه من بني جلدتـــه ، اخذت في الاستطالة بانفسهم بعد موته ، بعد ان يئس اولئك الذيـــن ابوا عليه مكانته عودته من تحت سجف الثرى . وقد لا يمر ـ حتـــى الان ـ موسم من المواسم لا تظهر فيه دراسة من الدراسات الادبية حول الشابي . وشعره ما يزال مثار اهتمام الادباء من كل اقطار البـــلاد العربية ، وحتى الشباب نجدهم لا يتنكرون للشابي عندما ينظر اليه من اطار الفترة العصيبة الجديدة التي عاشها . ولكن ميزة هذه الدراسات الاخيرة انها تخطت الاندفاعات العاطفية الى اخضاع شعر الشابي الى نظرة تقييمية نقدية وضعته في الموضع الملائم من الحركه الشعرية فـــي تونس . فاختفت ظلال الشابي التي هيمنت زمنا على الحركة الشعرية وتسببت في غبن شعراء عديدين حق الظهور لتتاح لبعضهم فرص خلق

اتصال بينهم وبين القراء .

جنت الهالة التي احيط بها شعر الشابي على شعراء ما بلغوا شاوه .. ولكنهم ساهموا بأشعارهم في تطوير حركة الشعر على امتداد سنوات الاربعين قبيل الحرب الثانية وبعدها بقليل .. وربما وجدوا انفسهم في ظرف من الظروف الوجه السلبي لحركة الشعر ، حين امتص شعر الشابي كل مظاهر الاحتفاء والاجلال ، فعكس ذلك الامتعاض والمرارة في نفوسهم ، فتولى منهم من تولى ، والقليل منهم من تحامل وصابر . يذكر في هذا الصدد : سعيد أبو بكر ، محمود بورقيبة ، عبد الرزاق كرباكه ، ثم الطاهر القصار والصادق مازيغ ، فمحمد زيد .

واتسم مصطفى خريف بحاسة المحتكين أن لا امل في كتابة شعر كلما قرىء للشابي قصيد الى جانبه زاد من الصورة المشرقة لشعر الشابي ، فاستبدل بضاعته كشاعر وأخذ يكتب من المقالات الادبية ، وبضع اقاصيص . ولم يبرز مصطفى خريف كشاعر الا بعد الحرب الثانيه حين كان جل أولائك الشعراء قد اصطفاهم المولى الى جواره .

وقد ساعد خريف على مقاومة هذا الاندحار انتاجه المنتظم في تباعد ، ومعاصرته لاجيال جديده من الشباب استطاع ان يجعل من نفسه بينها محور اهتمام لما حف بسيرة حياته من طرافه ، ولثقافته العربيه الراسخه التي أهلته لان يكون مرجعا لكل من يلوذ به . ولقد كان الجيل الذي ظهر ابان فترة التحرر السياسي يرى مصطفى خريف كاما هو سبح جاء من التاريخ ليحدثه عن صداقته بالشابي وبمحمود بيرم التونسي (الذي اقام بتونس من سنة ١٩٣٢ حتى سنه ١٩٣٧) وبعلي الدعاجي ، ومحمد العريبي وكرباكة ، وجل الادباء الذين اخصوا مبكرا تاركين بصمات ابداعهم تتير الحسرة والشجن والكمد .

ان كل مؤرخ لحركة الشعر التونسي المعاصر يجد مصطفى خريف نقطة بدايته . فهو صلة الرحم بين الجيل الغابر .. والجيل القائم . وهو نمط الشاعر التقليدي المتشبث بمعطيات القصيدة القديمة التي وجدت في شعر من تلاه ، من حاول تخليصها بحسبان من قيود الوزن المطلق . ثم وافى بعدهم الجيل الذي حررها مماشاة للاساليب المستجدة التي ادخلت في بنية القصيدة العربية .. فلا مناص ـ اذن من ان يكون هذا الشاعر المخضرم فاتحة الشعر التونسي المعاصر . ولطالما أثبت في حياته وفي سيرته انه يعيد لحمة الاجيال الادبية .. وانه شاهد من الماضي يؤمن على مكتسباته في الاجيال الحاضرة .

ـ ٢ ـ

وبما أننا لا نستطيع في عجالة كهذه افراد كل شاعر بما يستحق ـ ان له .. وان عليه ـ فان علينا القاء ما امكن من الاضواء على أهم التيارات الشعرية ، وعلى اهتمامات الشعراء ، والقضايا التي ساهموا في معالجتها ، ومدى توافق ذلك مع مطامح شعبهم ، وبوفه وأمانيه .

فمما لا سبيل الى نكرانه ان الشعر أوان مرحلة الصراع السياسي بين المستعمر وابناء الوطن أفلح في شحذ النفوس بمزيد من النورة ، وألهب روح الوطنيه حماسا فائضا . ولا يمكن ان يكون مثل هذا الشعر الا شعرا جماهيريا تقديريا .. تتوجه كل كلمة فيه الى الاذن والقلب والعقل مجانبة كل صنوف الثورية والرمز ، والايماء .

وكل النقاد الذين يحاولون الان تسليط معايير النقد الحديث على آثار تلكم الفترة هم مشطون في نظري وهم متعسفون . ولا سك ان بعض الشعراء الذين عاصروا أحداث تلكم الفترة حاولوا ان يكبوا قصائدهم الوطنية في غير أنماط القصيدة العمودية .. شعرا منحررا ، تثبيتا للرأي القائل بان الشعر ـ مهما اختلفت اشكال كتابته ـ هو قادر اخيرا اذا ملك كاتبه ناصية الابداع ان يبلغ رسالته . وتوفيا لما ثبت الان من ان الشعر الذي سكب في قوالب تقريرية مباشرة هو شعر لا ينتمي الى هذا العصر شكلا وفحوى .

لقد شهدت الخمسينات نمطين من اشكال بناء القصيدة : النمط السالف . وكان من أبرز من عرف بالكتابه فيه (محمد زيد ، أحمد المختار الوزير ، مصطفى خريف ، الصادق مازيغ ، محمد المرزوقي ، منور صمادح ...) . والنمط الجديد الذي كتب فيه (محمد العروسي المطوي ، أحمد اللغماني ، محسن بن حميدة ..) . وقد تعايش هذان النمطان في تسامح ، وعبرا عن كل الاحداث الهامة التي كانت مدار الاهتمام في تلك الاونه . الا أن أولئك الذين أساءوا الاشكال الجديدة سرعان ما بدأ ينفرط جمعهم ، فاريد احمد اللغماني ليكتب في الشعر العمودي ، وقد وجده اكثر رحابة لاستيعاب نفثات وجدانه . ثم اصبح بعد لأي حصما ودودا لانصار الشعر الحر . وذهب محمد العروسي المطوي بعيدا ليتسعل بالسياسه خارج وطنه في سفارة ، الا انه ظل على قرابة بالشعراء وبالشعر المحرر ... بالرغم من افلاله المفرط في انتاج الشعر والاستعاضة عن ذلك بكتابه القصة والاقبال على البحوث والدراسات الادبية .

اما محسن بن حميدة فهو بدون جدال شاعر خانب ، اذا قارنا ذلك بامكانياته الكبيرة في ميدان الترجمة .. نخلو اشعاره من الانارة والموهبة ، ويخذل فيها الوزن الذي يلتزمه من آن لآخر . ولعل خفوت صوته في السنوات الاخيرة من أثر اقتناعه بحدود شاعريته .

وان فشل هؤلاء الاخيرين من رواد اول حركة هدفت الى الاطاحة بالقصيدة العمودية ، يقابله بالطبع نجاح اصابته القصيدة العمودية التي عرفت ان الشعب في فورة نخوته الوطنيه بحاجه الى ازجاء القوافي الصلدة التي تلهب أكفه في مناسبات الاجتماعات العامة التي كانت القيادة السياسية تكثرمنها في بدايه حملات مواجهها للمواطنين، فكان مثل هؤلاء الشعراء لا ينخلفون عن الاجتماعات العامه والمواكب الرسمية لينشدوا شعرهم بصوت مجلجل صخاب يجيش في الصدور .. وأبرز المنشدين البارعين في هذه المحافل : (الشاذلي عطاءالله ، الناصر الصدام، محمد مزهود ، محمد الشعبوني ، وجلال النقاش..) ومن اليهم . وهم الذين اصبحوا فيما بعد عنوانا على تيار الشعر السياسي الذي تابع تسجيل الاحداث السياسية للدولة الفتية .

ـ ٣ ـ

ـ عرفت الخمسينيات اذن بانها سنوات «القصيدة العمودية».. كان هناك تيار متوافق الاصوات ، متعدد التجارب والمواهب .. ومن اهم من مثله ويمثله : مصطفى خريف ، واحمد المختار الوزير ، ومنور صمادح ..

كان مصطفى خريف يمثل في هذا التيار الرجل الذي شهد تحولات البلاد الاجتماعية والسياسية والفكرية ، وحاذى خطى رجالات القلم والسياسة أمدا من الوقت غير قليل . فأننى على بعضهم ثناء المحب المشفق ، وبكى من فقد من رفاقه .. وتاسى بما نظم في الشوق والتحنان من زمن راعب ماكر . وديوانه « الشعاع » و « شوق وذوق » هما كتاب مفتوح لسيرة حياته ، ونبل تعاطفه مع الجميع . برفع خريف في شعره عن المهاترات الشخصية .. وآمن بوحدة المغرب العربي ، وبوحدة الامة العربية على وجه العموم ، فهو يكتب في عيد تأسيس الجامعة العربية قائلا :

عيد العروبة عد فدتك دمانا ... واقبل تحيتنا ومحض هوانا
عد بالبشائر حاملا علم المنى ... طلقا طروبا ضاحكا جذلانا
عد في بلاد المشرقين أمانيا ... عد في بلاد المغربين أمانا

وفي الذكرى الثانية لعيد العروبة ، كانت نكبة فلسطين قد حلت سنة ١٩٤٨ ، واقبل العيد مربدا . ووقف الشاعر في الناس يحيي هذا العيد ، وبقايا الحرب لم تزل جراحات وجثث شهداء ، مخاطبا في وجدانه واحدة من بنات شعبه ، مثلما سلف للشاعر حافظ ابراهيم في قصته مع غادة اليابان .. لقد اتخذ الشاعر الاسلوب نفسه:

لا تلمني ان نبذت الادبا ... وتقلدت حساما أشطبا

انـــا مالي ولالحـــاظ المهـــا أنا مالـــي والتفاتـــات الظبـــا
ما الهوى ؟ تبا لاصحاب الهوى مذهب الحمقى اعتزلت المذهبا
فاغفري يا ابنة قومي سلوتـي واسالي قلبك يصدقك النبـــا

وتلمس في القصيدة اقتراب الشاعر ليهمس اليها بعاره ، يسر اليها بذات النفس ، ويحاورها باسلوب الفارس المكابر الذي لا تفل في عزيمته الهزيمة مهما اشتدت وطأتها ، فهو يعشق اذا كانت هنـاك مواسم للعشق ، ولكنه اذا نبت المرار والعلقم في الحلق ، وادلهـم الفضاء تراه وقد أمسى للدماء والثارات أشد هياما :

حدثيني ما الذي يغري العنى ان دعا في قومه : واحربـا ؟
حـل وفد واغل في حرمـــي ورعى حـول الحمى واستلبـا

وعند انقطاع حواره مع محبوبته ، يهدهد الفارس جنبات جواده، ويغيب في منتهى الطريق مرددا بينه وبين نفسه حنقا مغتاظا :

انا لا أجزع من باطلهـم ولو الدنيا استحالت نوبا
انا لو نازعني شهب السما في بلادي لاحتللت الشهبا
فاستعريا افق نارا ودمـا وازدخر موتا وانزل عطبـا
أنا موتوروهل يغشى الكرى رجلا في عزه قـد نكبـا
كيف أغفو وجراحي جمـة ودمي من كبدي قد شخبا
ساد في قومي وحش جائع وسطا في أرض جدي الغربا

شعره القومي يتلظى سعيرا اذا كان للحرب والفداء . واذا كان للافتخار فهو انشراحة صدر وابتسامة زهو وبطولـة . والنكبـة الفلسطينية كانت من بين القضايا العربية الكبرى التي هزت المشرق والمغرب على السواء . فلا عجب ان نجد لها هذه الاستجابة الملحة في نفس خريف . وهو الذي تزخر قصائده بذكر أمجاد العرب ويحسبها فخارا له : حضارتهم ، وانتصاراتهم ، ونوابغهم ، وعلماؤهم كلهـم نسب وعترة وعشيرة .

وحفاظا على تراث العرب كان خريف الذي رأى الاستعمار يشن حملة تزييف ويسعى لاحلال لغة المستعمر مكان لغة الوطن ينبه في كـل مناسبة ، ويحذر من الاستعمار الثقافي الذي يمكن ان يحل بديلا عـن الاستعمار السياسي فعن طريق الثقافة يربط الاستعمار اولئك الذين دمغتهم افكاره بمصيره :

عرف المجرمـون مـن ايـن يؤتـى الشعب فاستنبطـوا لذاك ابكارا
بعدما استعمروا البلاد جميعـــا أنشأوا في دمائنـا استعمـارا
رصدوا للاجيال اشيـــاخ ســـوء يظهرون التثقيف فيهـم شعـارا
ياخذون الشباب فـي ميعـة العمـر ضعـافا لا يفقهـون صغـارا
يوسعـون العقـول مسخـا وتشويهـا فتنساب فـــي الضلال انحـدارا

ان الوجدان القومي العميق الذي يلمس كابرز القضايا جليا في شعر مصطفى خريف لم يات فقط من احساسه ، ونشأته ، وتأثـره بالوسط الذي خالطه ، ولكنـه انبثق عـن حس استقرائي بالتاريـخ لرجل مثقف .

وكما أسلفت فان مصطفى خريف كتب في معظم الموضوعات التي تتصل بالحياة : سياسية واجتماعية وذاتية .. ويشق علينا ان نعطـي صورة متكاملة لكل جوانب هذه الموضوعات .

وعلى نقيض مصطفى خريف نجد أحمد المختار الوزير الشاعـر المترهب الذي بدأ صلته بالصحافة الادبية في سنة ١٩٢٨ في جريدة « لسان الشعب » .. ولا يزال جذوة من النشاط ، يعزل عن الوسط الادبي ، في وحدة فرضها على نفسه . ومعظم الشباب الذين عاشوا مصطفى خريف عن كثب وجالسوه لم يتسن لهم ان يعرفوا المختـــار الوزير الا عن طريق مجلة « الفكر » التي كان يؤثرها بقصائده التـي لم تنقطع منذ الخمسينات وحتى الان .. بنفس طابع شاعرها وأسلوبه.

معظم شعر الوزير في الوطنيات و « الوجوديات » . فهو فـي الوطنيات يتحسس موضعـه فـي شعبه ، ويعبـر عـن آلامه وعـن اعياده . ويقف مع الصامدين وقفات البطولة فيؤثل المفاخر ويشيـد بالزعماء . ولكنه في تلك القصائد « الوجودية » .. الذاتية فنـان مبدع وانسان هدفه ان تسود شريعة المحبة بين الجميع :

انما الحب يا أخي ذلك الينبوع في فيضـه وفـي ارتوائـه
كم حرار من الشفاه سقاهـا وورود نهلن من انـدائـه
وربيع مخضوضر حالـم الادواح نشوان يحتسي مـن مائـه
أنا ذاك المحب يسقي بكفيـه قساة الجفاة مـن أعدائـه
كم بصدري من الجراح لـرام وبكفـي صبابـة لارتوائـه

فاذا احب الانسان فان سخاء الارض سيزكو ، وستزدهر الطبيعة وتخضر الادواح في عالم الاحلام . رسالة الشاعر رسالة مترهب كـره البغضاء وآمن بالانسان ، فهو لا يعرف حدودا يمكن ان تقوم في وجه ابناء هذه الارض فتباعد بين عواطفهم . كل منا يحق له ان يغني في ارجاء المعمورة نشيد الاخوة التالي :

لنا الحقول المائجات والجميم الاحمد
لنا على الزيتون من اكليلـه زبرجـد
لنا الفطيع تاهت السهب به والنجد
لنا على السفوح من ناي الرعاة غرد
لنا الظلال والحيـاة مشرع ومـورد
لنا اذا الليل سجا بكل بيت موقـد

ولكن الانسان قد يغضب ، فيبتلي بغضبته .. يدمر ويسفـك الدماء ، يسلب الارض قدرتها على الاثمار ، يميت الرجاء ، يبلـغ درجة الوحشية الملعونة . وفي هذا يغني الفنان ـ في نظر الشاعر ـ عن الانسان العادي . كل الاساءات التي تنبثق عن شرور هذا العالم تستحيل في صدره الى روائع تفتح كوى من الرجاء . ومع ذلك فالفنان معرض لحالات الضعف البشري . ومن ثم فان عليـه ان يغضب ويسخط ويحزن . وفي هذه الحالة تنتابه نزوة التدمير والشر ليفرج عـن مكبوتات صدره .
فما الذي عليه ان يدمر ؟!

مزقـت اوتـاري وحطمت القيـاثـر لا اغنـي
وارقـت خمـري ما حوت كاسي وما تحويه دنـي
وطويـت اضلاعـي على شعري وأسجاعي وفنـي
ومضيت في صمت اكتم في غيوب النفس لحنـي
واكفكف الدمع المغالـب فوق اشفاري وجفنـي
ابكي جراح الحـب في اللقب الصغيـر المطمئـن
لا .. لا تلمنـي ان بكيت الحـب يـالي ... لا تلمني

اما منور صمادح الذي بدأ في نشر انتاجه منـذ الاربعينات فقد كان اصغر من هذين الشاعرين ، واصغر من عددت من شعراء هـذه المرحلة . شاعر عصامي موهوب بدون شك : حياته مثل للعزيمـة والصمود ، على الرغم مما انتابه من منغصات دفعت به الى حافـة الجنون .. كان منور صمادح مع الثورة منذ بدايتهـا حتى انه كان يلقب بفتى الثورة . فاول قافية كتبها كانت تمجيدا للثورة وتبشيرا بيومها الآتي . ولكنه لم يكن ليحسن ترتيب وضعيتـه كقروي لفظتـه تخوم الجنوب الى قلب مدينة لها سننها وتقاليدها ، فاضطرب حين لـم يستطع التآلف ، ووجد نفسه اخيرا ملفوظا .

ان حلما طار من بين كفيه ، هو الذي قاد خطاه الى المهوى الذي انزلق اليه ، فاضحى تائها يسيطر عليه شعور قاهر بان يدا خفية تطارده وهي على وشك ان تمسك به .. هذا الشاعر المطارد الذي عاش منذ صباه حياة بائسة فقيرة ، فقد في بدئها السند الذي كان عليه ان ياخذ بيده ويقوده الى معاهد العلم .. وجد نفسه فجاة وهو في سن مبكرة في معمعان الصراع فركب موجة الثورة ، وحاول ان يحشد لمسيرتها المتدافعة في مطلع الخمسينات « جيش » الجياع المعذبين الذين ادمى سوط الاستعمار والمستغلين ظهورهم . كانوا اول الصور التي وقعت عيناه عليها في طريقه الى المدينة .. فرفع صوته ينشدهم .. ويسمع نداءاتهم لمن اصموا الاسماع :

باسم البطون لها نداء حائر ، فقد الجواب وما يزال سؤالا
لا باسم ابناء السعادة والنعيم ، المتخمين التائهين دلالا
باسم الجماهير التي في عزمها تدوي الحياة فتخلق الابطالا
وتشيع في الناس العدالة والاخاء ، وتعلم التاريخ والاجيالا
لا باسم افراد يمايز بعضهم ، فغدا يعيش على البلاد وبالا
عجبا يجوع بأرضنا خدامها ، كي يطعموا المحتال والمكسالا

وفي فترة وجيزة ، اصبح منور صمادح شاعر العمال والجياع بلا منازع ، فقد كانت معظم دواوينه الصغيرة التي اصدرها في مطلع الخمسينات ، وصادرت السلطات الاستعمارية بعضها تلهج بانصاف المحتاجين ، وبالتحريض على الثورة ، وبالاشادة بجهود أولئك الذين يدفعون عجلة التاريخ نحو الاستقلال الوطني ، وسرعان ما أخذت ابعاد القضية التي حملها تنفتح على العالم الاخر ، وتفقد لونها المحلي لتصبح قضية الانسان الجائع في كل مكان : ذلك الذي يزرع ولا يحصد في سهول العالم ، يتعب ولا يجني غير المرارة . فيظل ينتظر الملاك العائد مع المنتظرين من الضحايا الابرياء الذين يقفون في صف الخلاص الطويل :

كم على الارض ضحايا ،كم على الارض جناة
وبناة شردوهم يا لتشريد البناة
وسقاة حرموا الشرب فآه للسقاة
وطهاة جوّعوا اواه من جوع الطهاة
واكول بطر قد اتخمته الرقات
ويد تجني ولكن منحوها السلطات
هذه الدنيا مجال الشر مهد النزعات
وملاك العدل فيها تائه في الفلوات

ثلاث مراحل تلاحظ في شعر منور صمادح الذي ظل ينتج مدرارا .. ما جف نبع ابداعه .. وما ونى .. أو تعاسر . مرحلته الاولى هي التي كان عرضها لماما لكثرة ما انتج الشاعر خلالها . ومرحلة ثانية زخرت بما كتبه عن الاحداث الوطنية ، وبما نظمه من شعر الهيام والتشبيب حين انفرجت أزمته المادية النفسية ، واعتقد انه وضع في الركاب ساقيه . وما عتم ان عصفت الظروف بالشاعر فاصبح يلغز، وكثرت الإشارات والدلالات في شعره فكان اقرب ما يكون الى شعر المواجد ، واقرب من يكون الى المتصوفة . ورويدا رويدا يدب الصحو الى نفسه ، والبرء الى جسمه وعقله فيبارح سجف الوهم ليطل من جديد على عالم النور ، فيتبصر انه لم يفارق مواطيء قدميه منذ ان بدا اول خطواته ، فكتب رائعته « المناجل » ثم « المطارق » ، ليلتحم بصوته القديم الذي كان صوت الجياع والمستغلين من ابناء هذه الارض :

حتام فيها سادة وبها حشم — من سوّد البيضان في السودان
الناس قد جاءوا لبعضهم خدم — فبلا حدود عشت يا انسان
اني سفحت على السفوح الخمرا — للشعب نشرك يا دمي المسفوح
ولثمت هاتيك الورود الحمرا — في كل جرح من اخ مطروح

وفي آخر هذه المطولة الشعرية التي يشيد فيها بمجد الانسان ، وعظمة الانسان ، ويوم الانسان الذي سيطل قريبا ، نجده لا يخاطب بسطاء القوم وحدهم ، أولئك الذين نذر دمه لهم ، وانما يخاطب السادة ايضا ، فان اسماعهم المرهفة بمقدورها ان تستوعب نداءه الذي قد لا يسمعه الفلاح البائس المستلب . ان الشاعر يعتقد ان «السادة» اكثر اصغاء لكل من يخاطب « عبيدهم » . وهو في ندائه لا يطلب منة او فضلا ، ولكنه يدعوهم الى تحرير انفسهم من القيد الذي يشدهم :

سجناء خوف ايها الاسياد — تحيون ملء الشك وهو يقين
من همنا أن تكسر الاصفاد — فيفك سجان بها وسجين

تلك وجوه ثلاثة .. اصوات ثلاثة . غاب من بينها صوت الشيخ واسطة العقد مصطفى خريف بينما ما يزال الصوتان الاخران يعدان بالطريف المستعذب وهما في عنفوان الدفق ، احتفظا بالوفاء لتقاليد القصيدة العمودية ، ولم يجريا ايا من الاشكال المستحدثة ، وربما لم يفكرا في ذلك اذ لم يسمع لهما صوت فيما دار من مجادلات حول شكل القصيدة .

على ان هؤلاء الثلاثة الذين عددتهم في تيار الخمسينات يقاسمهم هذه المرحلة بضعة شعراء آخرين لم تبدأ شهرتهم على نطاق واسع بين القراء الا منذ الستينات .

ـ ٤ ـ وفي هؤلاء يعد : احمد اللغماني، ونورالدين صمود ،ومصطفى الحبيب بحري ، وجمال حمدي ، وعلي شلفوح ، وزبيدة بشير ، وجعفر ماجد ، والشاذلي زوكار ، والهادي نعمان ، وابن الواحة ، وعبد المجيد بنجدو ، وعبد العزيز قاسم ، ومحي الدين خريف ، والميداني بن صالح ، وعلي عارف ، واحمد القديدي .. وهم كل الجيل الذي يمثل الشعر التونسي الحديث ، من ملتزمين بتقاليد القصيدة العمودية الى المتحررين ، الى المزاوجين بين الشكلين في آن واحد . ومن الانصاف ان يحسب في عداد المقلعين عن الكتابة منذ حين : مصطفى بحري ، الشاذلي زوكار ، علي شلوح ، ابن الواحة ، عبد المجيد بنجدو ، وعبد العزيز قاسم .. فهؤلاء الاخيرون نادرا ما اخذوا ينشرون في السنوات الاخيرة الا اذا كانوا يدخرون ما يكتبون من قصائد . بينما فترت ايضا همة العدد الباقي من الشعراء في العامين المنصرمين ، اذ قل عدد القصائد التي ينشرونها اذا ما قورن ذلك بمعدل انتاجهم في السنوات الماضية .

ويعزى هذا الخمول الى فتور حركة النقد عندنا التي يمارسها غالبا الهواة من الكتاب الذين يستهلون خطواتهم الادبية عن طريق اسداء الثناء لهذا الشاعر او ذاك . ثم ما ان يشقوا طريقهم حتى يصبحوا من الشعراء او من القصاصين . اما النقاد الجامعيون فيترفعون عن تذوق الشعر الحديث لاسباب لها علاقة بتقاليد الجامعيين عموما . والسبب الثاني مرده تباطوء حركة النشر اذ ان الشاعر الذي يرى له ديوانا يطبع في حياته لا يجب ان يفيق من هذا الحلم على طبع مجموعة اخرى من شعره . ذلك ان الناشرين هنا يتوهمون ان الشعر غير مقروء في حين ان جلّ ما طبع من دواوين شعرية في اواخر العقد المنصرم وبداية السبعينات نفد معظمه من الاسواق .

والسبب الاخير من اسباب ازورار الشعراء عن نشر شعرهم في الايام الاخيرة ، يجاهر به الشعراء انفسهم ، فهم يأبون ان تقبر قصائدهم بجانب ما ينشر من اشعار « نثرية » تسيء في نظرهم الى حركة الشعر عموما ان لم تكن هدفها هدم الذوق العام الذي ساعدوا على تنميته بين القراء . وهذا او هي الاسباب واقلها وجاهة .

تتحدد اهتمامات هؤلاء الشعراء الذين كتبوا خلال هذه المرحلة ،

وهي مرحلة الستينيات ضمن تيارين هامين : تيار غنائي ، وتيار واقعي .. وان تداخل هذان التياران احيانا من شاعر لاخر . فليس هناك شاعر من هؤلاء لم يجرفه تيار الواقع ولم ينكفيء الى اعماق نفسه يناجيها . فعند بعضهم ، كمحي الدين خريف ، جعفر ماجد ، علي عارف ، واحمد اللفماني .. ينحد الموضوعي بالذاتي ، والواقع بالغنائية المفرطة ، فلا نبصر لك حدودا بينها .. ولكنها تقسيمات تستند الى خيط واه من الحدس .. فحسبت ان التيار الواقعي الذي دعا الى ثورة اجتماعية وأيد الاشتراكية مذهبا ، ولوحظت مظاهر تمجيد الفلاح والعامل في شعره احد وانصع اشراقا هو الذي يمثله : الميداني بن صالح ، احمد القديدي ، مصطفى بحري ، محي الدين خريف ، علي عارف .. بينما يستمد التيار الثاني معظم موضوعاته من الاحداث الشخصية . وكما قلت ايضا فهو يستمدها مرات اخرى من الاحداث الاجتماعية .

وينقسم هؤلاء ايضا الى ثلة وجدت في الشعر الحر وفي الموسيقى الجديدة للقصيدة العربية متنفسا لها ، تنفث في منفسحه ما سلف ان ساهمت القصيدة الرتيبه المتوازية المؤطرة ضمن شطرتين متوازيتين في كبته واخماده . بينما يرى انصار القصيدة العمودية ان الكتابة في الشعر الحر اشبه ان يتنفس المرء برئة واحدة .

ولأمر لا اجد له تعليلا ان الذين عاضدوا حركة الشعر المتحرر في مستهلها يقومون الان بحركة انسحاب تدريجي الى صفوف كتاب القصيدة التقليدية كما ظهر ذلك جليا في قصائد :جعفر ماجد ، ونور الدين صمود الاخيرة . يمثل التيار الغنائي كما اسلفت خمسة شعراء: احمد اللفماني ، نور الدين صمود ، جمال حمدي ، جعفر ماجد ، زبيدة بشير ، كتب جميعهم شعرا رقيقا في الحب والذكريات والليالي المنصرمة التي تركت في نفوسهم اثرا منها . وتستطيع ان تقرأ في هذه الاشعار قصة كل واحد بل أقاصيصه المختلفة منذ عرف الهوى سبيلا الى قلبه حتى اللحظة التي استحال فيها ذلك الهوى الى تنهدات وكوم من الذكريات المبددة .

تلك الايام التي جعلت احمد اللفماني ، عندما لاحت ظلال الاربعين في نفسه ، يكتب مضمار التحسر عن الشباب المضاع قائلا :

أيام كنا والشباب جناحنا ... كالطير بين خمائل وروابي
تبعاثنا تلقى على هرج الصبا ... وعلى انتفاضة عمرنا الوثاب
نمضي الى آرابنا لا ننثني ... لا شيء يرجعنا على الاعقاب
نسعى الى اللذات وهي متاحة ... سعي الفراش لنفحة الاطياب
تلك العهود ؟ فهل لديك حديثها ... هل من رجوع للصبا وايابي

وهو في هذا التحسر لا يبكي شبابه برغم شدة حنينه اليه ، وبرغم النذرات التي يظهرها لائما حسيرا . لقد كان عصي الدمع واثقا من نفسه ، لا يصغر امام هذا القاهر العنيد . احتفظ في كل شعره بطابع الاعتداد ، وبعناد سافر يابى الخضوع لتصاريف الايام :

لست ابن عشرين لكن لم يزل نضرا ... عودي ولم تبد في وجهي التجاعيد
سخرت مما بدا في الغود من وضح ... فلم يرعني انذار وتهديد
ما العمر الا الليالي المشرقات فلا ... تعد من عمري ايامي السود

واللفماني من بين شعراء العربية المعاصرين القلائل الذين يجيدون كتابة القصيدة العمومية . هو شاعر يملك موهبة البناء واللغة الشعرية والصورة . ثابر بعصامية وجلد كي يصبح الشاعر الذي يستسيغ قراءة شعره حتى أولئك الذين يناوئون البناء التقليدي للقصيدة ، وينصبون انفسهم خصوما لهذا الشعر .

وحديث الامس ، والذكريات ، والهوى يبدو الموضوع الموحد بالنسبة للشاعر نور الدين صمود الذي يدعو في احدى قصائده محبوبته أن تتركه وحيدا يعيش على التذكر بدلا من ان نعيده الى حبهما الذي انقطع بتصرف خاطيء منها :

أتركيني هنا فلن يخضع الدهر فؤادينا للغرام الكذوب
واذهبي .. اذهبي فاني خليّ .. مات في القلب كل حس حبيب
وانقضى الامس حينما كنت طيرا أتملاك وسط روض عشيب
تبعثين الحياة والفرح المعبود والدفء والرضى في القلوب

والمتملي من ديوان صمود « رحلة في العبير » يجب أن يعرف كيف يسدد خطاه ، اذا اقدم على هذه الرحلة بين تلك القصائد المضمخة بالعطور والارج المنتق ، وأكوام الورد ، وأعشاش الحمام ، وأجنحة الفراش الكثيرة الاشتهاء والتلاوين .. وبين جثث ضحايا هواه والقلوب الكليمة المعفرة في حمأة غدر عاشق مماطل ، والحبيبات اللائي ينتظرن موعدا مع غروب يوم ربيعي مشمس ، فصمود يبدو في قصائده رساما اكثر منه شاعرا . ولعل لطبيعة البلدة التي ينتمي اليها المحاطة بالخضرة والبحر والسحر من كل طرف أثر على ما يكتب ان لبعضهم الحق كل الحق في أن يصنفوه في عداد الرومنسيين الجدد الذين خلصوا الرومنسية من طابعها النحيبي .

واذا كان صمود يستمد الوان شعره ، وصوره من طبيعة الارض وفتنتها فان جعفر ماجد يأخذ من عناصر الطبيعة الهاماته الشعرية . فهو على جناح الخيال يرتاد الجزر الوهمية ، ويفترش الخيال ، ويعبيء جيوبه من النجوم . ويغوص في لجة البحر ليبحث عن صدفتين لحبيبته او ليجدف في عينين خضراوين واسعتين .

وهو في الظلماء يحلق من غير ريشة ، لتقذف به الارياح الى المهمه القفر ، فيرسي كالسندباد الضال عند كل مرفأ مهجور :

أنا في الليل افترش الخيالا ... وأغزل من أشعته ظلالا
واملأ من نجوم الافق جيبي ... وأركب عند مرفئه الهلالا
فأقلع مثل ملاح غريب ... مدى الايام يحترق الضلالا
واضرب باليدين هنا فتجري ... جواري ينحنين لي امتثالا
نحيلات كلالاً المرايا ... عواري لسن يحملن النعالا
تنفسن القرنفل والخزامى ... وقلن الشعر بالطبع ارتجالا
وافترش الشعور على ضفاف ... شربن الفل ماء حين سالا

انه خيال شاعر ولا شك .. شاعر يتوهم انه بسط سطوته على الكون ، وانه ملك الخاتم السحري فيسير الملكوت بمشيئته قادر حتى انه كان يخير حبيبته شيئا مما يعجز عن تلبيته عادة :

قولي : اريد الشمس تعبر راحتي ... تفصم من الفلك الرحيب حباله
وتحركي هذا الوجود كلعبة ... وتهن عليك بحاره وخياله
او فاطلبي ملك الفضاء وعرشه ... تتقد لحكمك شهبه وهلاله

اما زبيدة بشير فهي المرأة التي ظلت وفية لذلك الحب المخلد في شعرها .. عبرت في قصائدها عن طابع الانثى ، وجموح عاطفتها ، واخلاصها المطلق ، واذعانها للرجل المؤمل . وكتبت عن غدر الرجال، وتلونهم ، وصنوف خداعهم . وهي في كل ذلك لا تتقمص فقط مشاعر المرأة وحدها .. ولكنها تعيش تجربتها الفريدة ، وحنينها النازف من شريان الذكريات التي ابت ان تطرد ذلك الغادر المتصارم . فالقلب في نظرها ، لا يخفق الا مرة واحدة :

حبيبي اذا جاءك المفرضون
وقالوا لغيرك غنت

وقبلت كانت أحبت
فلا تلق بالا لما يدعون
فما كان يمكنني ان احب
وهل في الوجود سواك يحب .

والمأساة التي عبرت عنها زبيدة بشير لا تبلغ في عمقها عمق الجرح الذي ظل مغفورا لشاعر عانى المرارة وعاش الحزن ، وتشرب الآلام بعنف ، وحيدا مضاعا بين لداته واحبابه ، هو جمال حمدي الذي تجمعت في شعره نقمته على كل شيء ، خصوصا نقمة مدمرة على المرأة ، فقد كان لها من اللعنات ما لم يشف غليله بعد . وأنحن فيها طعنا منذ شرع يكتب الشعر في سنة ١٩٥٢ وحتى اليوم . ومن المؤسف حقا ان لا يكون لهذا الشاعر ديوان مطبوع بعد .

خيبة اثر خيبة فجر عمري ، وعذاب صباحه ومساؤه
وفراغ ايامه قد تقضت ، وبها ودع الفؤاد رجاؤه

وأنا ها هنا خيال غريب تائه اللحن في وجوم حزين
أتملى الوجود فبرا لاحلامي الحزانى وخافقي المغبون .

لا شك أن في هذه الصورة المبتورة عن تيار المنشدين ، ممن كتبوا شعرا غنائيا ذاتيا ظلما أكيدا لكل اولئك . ولكنها مجرد خطوط عامة لتيارهم ، وليست التفاصيل .

اما ابرز شعراء التيار الواقعي فهم : الميداني بن صالح ، محي الدين خريف ، علي عارف ، احمد القديدي ... تقل في شعرهم جميعا احاديث الذكريات والحب والامس ، وقصص الحبيبات ، في مقابل ما تزخر به قصائدهم من دعوات اجتماعية وشعارات سياسية ، وتعاطف مع الكثرة الممتهنة التي لا نجد لها مناصرا ، ولسانا يعبر بخلجات صدرها الذي يضيق ولا متنفس له .

فالميداني بن صالح منذ بدأ يكتب شعار الانتصار للاشتراكية ، ولم تصده تلك الحملات الادبية التي اتهمت قصائده بافتقادها الكلمة الشعرية ، واعتمادها الكلمة النثرية المبتذلة ، والوضوح المطلق بدل الايحاء الشعري ، ورأت ان الموضوعات التي كان يقع عليها متشابهة في معظمها ، مدارها العامل والمحتاج ووجوب الانتصاف لهما . ولربما زادت تلك الحملات من اصراره على النهج الذي اختطه ، اذ كان يؤمن على الدوام ان الشعر يجب ان يكون الخبز اليومي للكثرة من الناس ، وانه آن الاوان كي يغض الشعراء الغلاف السحري عن قصائدهم وكلماتهم الايحائية لينظر فيها أولئك الذين لا يقدرون على الغوص .. اولئك الذين ينهجون الحرف :

شعري لهاث الكادحين على الدروب .
شعري اهازيج الشعوب ،
من صارعوا الامواج والبحر الغضوب ،
من غالبوا الاقدار ، واقتحموا الخطوب ،
من عبّدوا الطرق المديدة في الجبال
وفي الصحاري والسهوب

ويشاركه في تعاطفه ، وفي الاهتمام بمشاكل الطبقة العامة معظم شعراء هذا الاتجاه . لكن اسلوب قصائدهم يختلف كليا عن الاسلوب الذي يكتب الميداني بن صالح فيه ، فالبافون يحاولون ، ما استطاعوا ان يرضوا الشعر بما يلائم من الكلمة المنتقاة التي تقع في القلب واحة اطمئنان ، وتبعث الراحة والدفء في الجوانح .. انهم يذهبون الى ان على الشعراء ان يكتبوا بمشاكل هؤلاء الكثرة من ابناء وطنهم ، ولكنهم يجب أن يوفوا الشعر حقه ، وأن لا يكون الموضوع ذريعة لانتهاك حرمة الشعر .. كما هو الحال في شعر محي الدين خريف الذي يؤاخي بين الموضوع وبين الفن :

انا انسان جديد
جئت كي أطعم أفواه الجياع
عدت كي أفتح عين الليل عن فجر وليد
أزرع الشمس بأيام شتائي
أعصر الافراح من قلب الشعاع
وأدك الصخر بالعزم الشديد
وأغني بشموخ وإباء :
أنا انسان جديد

هذا الانسان الجديد ، هو العامل .. وهو الفلاح ، وهو رجل الشارع البسيط الذي رآه ذات يوم علي عارف يجوب طرقات «ليون» في مغتربه الفاسي ، باحثا عن مرتزق له في بلاد نائية . باردة العواطف والمناخ :

نعم اني رأيتك في « ليون » وديعا غير ان الصدر يغلي
تجيش النفس ليلا حين تأوي وتفتقد الصفار ودفء خل
عزاؤك واغترابك ، يا صديقي، شعور مرهف في خير قول

اما الشاعر احمد القديدي ، فقد حملته الارض كنوزها وخيراتها ووعدها لذلك الغائب الذي سيأتي ذات يوم يخلص هذه الارض مما تشكوه من المظالم .. يخلص الفلاح من عوزه .. السجين من منفاه . .يحرر النفوس الحبيسة والآهة المختزنة في صدر كظيم .

الارض .. الارض التي يحبها الشاعر دوما ، ويثار لمن يجد الاهانة على اديمها بعد ان يكون قد سقاها عرقه ودمه :

حملتني الارض للغائب حبات عنب
حملتني الزيت والخبز له
حملتني بغض حب وغضب
حملتني بسمة الاطفال
اعطتني من الفلاح عزما وتعب
ايها الغائب في الصمت
كتبنا لك بالرفض الادب

ان النماذج القليلة وهذه الصورة المبسرة عن تاريخ عشرين سنة من الشعر التونسي الحديث لا تعدو ان تكون علامات .. مجرد اشارات الى ذلكم الطريق المليء بالعثرات والمغامرة والبذل ، فطعمه الشعراء وهم يحاولون دون ونى اووهن عزيمة ان يوصلوا هذا الحاضر المؤثل بذلك الماضي الخالد ، وان يداخل الاجيال القادمة الشعور بان لها تراثها العربي وامجادها وحضارتها ،وان بالامكان الثورةعلى هذا التراث والتمرد عليه ومحاولة اعادة صياغته . وان النكر لهضرب من الانتحار الفاجع .

كل ما كتبوه لم يكن توهم البعضسدودا وعقبات وضعت في وجه التجديد . ان هذا التاريخ على مداه كان دعوة للثورة وتمهيدا لها ، ونبوءة بها . فهل هناك من يثور ؟.

محمد صالح الجابري

اربعة مقاطع للمدينة والفراغ

١ ـ الفن في السلاسل

وقفت خلف الباب
مقيد الشعور واليدين ،
مسهد الجفنين ،
أنتظر الايـاب
تخمد نار العزم في مفاصلي
تشدني سلاسلي
أبكي ولكن دونما أهداب
يا جيرة البان ويا روائح الخزامي
مرت شهور والوباء ينخر اليتامى
مواسمي قحط . وخمرتي الفراغ
وخيط ماض غابر يربطني بالقاع

٢ ـ مناخ الجهات الشمالية

لا شيء من حرارة الجنوب
لا شيء من ظلاله
أيرد من عواطف الرجال في المقاهي
صباحنا الموثق في اغلاله
على العيون والشفاه رجفة الجليد
وخلف كل حائط
تثاءب الكآبـة
وفي الربيع تذبل الورود
وترتخي الاوتار في الربابة
تهاطل الامطار كل يوم
وتعصف الرياح
والقحط ما زال على الاعتاب
ينتظر الصبـاح

٣ ـ الحديقة المهجورة

تهجرني الاطيار
لانني حديقة
خلت من الاشجار
لانني صحراء
قضيت سنين عدة
يحرقها الظمأ
أبصر لكن دونما عيون
أحلم في كون بلا شجون
أمشي ولا اعلم ما كان
ولا ادري بما يكون
يا صاحبي « الخيام »
أين ترى تنصب لي الخيام
أريد أن أنام
بعد عنا التجوال
ألف عام

٤ ـ أم موسـى

يا أم موسى
لن يرجع من مدين بعد اليوم
فلتحزني
فالحزن بيتنا
وضوءنا وزيتنا
وخبزنا المشبع بعد الصوم ،
لان ما نحمل من متاع
أرخص من أن يشترى
يوما وان يباع
وجلّ ما يقال :
ان الحروف الخضر في شفاهنا
قد أصبحت حبال ...

محي الدين خريف

المقـــفع

قصت بقلم
فاطمة العلاني

اني لاذكرها أمي « الهانية » ! ممشوقة القوام ، صلبة العود.. حادة النظرات .. غليظة الصوت .. خشنة اليدين .. اني لاذكرها ، والمذراة على ظهرها والحمار أمامها .. رجلاها الحافيتان تـدق بهمـا الارض دقا كأنها تنتعل حذاء جندي الميدان . اني لاذكرها ـ أوان الحرث ـ تحرث وتسمد ، وتشذب ، وأوان الحصاد ، تحصد ، وتدرس ، وتصفي ، وتخزن . هي في الحقل كذلك ، وفي البيـــت تغدو امراة ككل النساء ترقق صوتها ، وتلاطف زوجها ، وتعجـــن الخبز وتنضجه في الطاجين ، وتقطع « الشكشوكة » وتعدها حارة زكية الرائحة .

كانت تحبني ملء قلبها وتقول لي :

ـ عليك أعول ، يا اسمر .. أنت سندي

وكنت اهتز واقفز حولها واصرخ :

ـ لا يا أمي ، أخي شعبان أثير عندك ، تحبينه أكثر مني .

ـ وما يدريك ، يا سنان ؟

ـ أين هو الآن ؟ وأين أنا .. هو في الدار يتمتع مع ابيه بالظل الظليل .. وأنا هنا معك ، يا أمي ، في حرق الشمس ، ولفـــح السموم نحصد ونجمع ونعبيء .

ـ يا سنان ، هل يصح ان يلوث أبوك الحاج المؤدب المبرور يديه بالتراب ؟ هل يصح أن يتعرض أخوك شعبان لحرق الشمس ، وبشرته سمحة بيضاء وقد عاد من الجندية منذ ايام بعد أن غاب عنا سنوات طويلة ؟.. وعلى كل ، فكر في أن العامل أفضل من الخامل .

ـ لولا انني احبك ، يا أمي ، وأشفق عليك ، لكان لي موقف آخـــر .

ـ اعتمادي على ذراعي القويتين وغزالي الاسمر . هيا بنا ياسنان .. أحزم شبكة السنابل ، واربطها بالحبل على ظهر الحمـــار .. هيا يا ولدي هيا .

* * *

تعالت الزغاريد ، ودقت الطبول ، ولعب الفرسان فوق الخيول ببهلوانية تفتح الاحدا قوتثير الحماس . وكنت أدعي الشباب ، وأنا في أواخر الطفولة ، فاستعرت حصانا مسرجا مدربا بديعـــا ... واستعرت بندقية مملوءة . وشرعت أتفرسن .. اظهر فروسيتي فـــي يوم عرس . وقفت فوق الحصان . واطلقت البارود وصرخت لتحي الحرية ، ليسقط الاستعمار .. واختلطت في أذني الاصـــوات . ودارت الارض من حولي . وفر الحصان من تحتي .. ودهستنيسنابك الخيل ... وفقدت الوعي ! ...

ـ أفق يا ولدي .. ارحم أمك .. أجبني .. أجبني !.

وفتحت عيني بصعوبة . ووضعت كفي اليمنى على راسي فاذا به قد من نار بينما تمددت ذراعي اليسرى بجانبي وكأنها قطعـــة من خشب ليست مني ، ولست منها .

ـ خبريني ، يا أمي ، ماذا حدث لي ؟

ـ أواه، يا ولدي ، أنت لم تشعر بشيء .. قل لي ، يا ولدي، ماذا تحس بيسراك ؟

وحاولت ان أحرك ذراعي فصرخت من الالم المر :

ـ آه ! .. آه .. ! ماذا حدث لي ؟ أين أبي ، يا أمي .. أين اخي ! ..

ومن خلال دموعها المسكوبة انسكاب المطر قالت :

ـ ما زالا في دار العرس يسهران .

واضافت بنبرة ذات معنى :

ـ ويأكلان الكسكس واللحم .

* * *

وأصبح صباح وأمست بيتنا جموع جديدة ككل صباح . وكانـت يدي معلقة في عنقي ، وقد زاد انتفاخها حتى صارت في حجم المزود المملوء .. وكان صراخي متعاليا للسماء ، وأنيني يقطع ضلوعي ويثير حولي الرثاء والدموع ، والاخذ والرد .

ـ الراي أن نذهب به الى زيارة الولي الصالح «سيدي سلامة» فبركاته معروفة وطالما شفى امراضا مزمنة .

ـ ولكن لا بد من التمسيد بزيت الزيتون المحمى اربع مـرات في اليوم .

ـ او نسيتم جبيرة دقيق الحمص ؟

ـ لماذا لا نجرب الكي بالنار ؟

ـ ولا تغفلوا عن كلام الله العليم الحكيم ، فهو خير شاف وعاف.

وتتنهد أمي طويلا قبل ان تقول :

ـ لو كان لي مال لبعثت بابني الى طبيب المدينة .

* * *

كانوا يعتلون صهوات الجياد ، ويضحكون بأعالي الاصـوات ، ويتناوبون الحذاء .. أخي شعبان وابناء عمي ، وعلي ، وأبو القاسم والامين .. كانوا يفيضون صحة وشبابا وحيوية تكاد الدنيا لا تسعهم من فـرط ابتهاجهم بالربيـع والنـوار والشمس والريـح والامـل

المنشود .

كانوا يمشون في المقدمة وكنا ، انا سنان المتعب العليل ومجموعة شيوخ الاحمرة ، نسير في المؤخرة .. يلفنا صمت ثقيل .. انا أنوء بهمي وألمي والاحمرة تنوء باحمالها الثقيلة من حب وزيتون وسمن وعسل ودجاج وأرانب وسويق وبيض .

وفجأة تاخر شعبان عن أصحابه ليقول لي :

ـ أترك لي الحمار .. ان ركوبه أربح من ركوب الحصان

ـ ولكن لا قدرة لي على الاهتزاز مع فرسك الجموح ، يا اخي .

ـ قلت لك اترك لي الحمار . ولا تتكلم كثيرا .. كاني بك نسيت من أنا ، ومن أنت !

ـ ذكرني من أنا ومن أنت !

ـ عندما نعود أسأل « الهانية » أمك تخبرك .

فقدت توازني على ظهر الفرس ، ولعبت الخواطر السوداء برأسي . ومن خلال الالم والضعف والدوار رأيتني فارسا واقفا على صهوة جواد أطلق النار في الفضاء .. ودارت الارض من حولي .. وفرّ الحصان من تحتي ودهستني سنابك الحمير .

* * *

ـ اسمع يا سي شعبان . هذا الولد قريبك .

ـ نعم ، ياسيدي الدكتور ، هو أخي .

ـ افهمني جيدا .. ذراع أخيك في حالة خطيرة تقتضي عملية جراحية .. ادفع خمسين الف فرنك وعد بعد اسبوع لتاخذ اخاك من مصحتي وقد زال عنه كل خطر .

ـ خمسون الف فرنك يا دكتور .. هذا مبلغ كبير يكفي لتجهيز عروس لي .

ـ اذن اذهب لتجهز عروسك . وخذ اخاك معك يشاركك في الافراح والمسرات .

وصفق الطبيب الفرنسي الباب وراءنا بقسوة وهو يشتم ويسخر، وفي طريق العودة انتحبت .

ـ يا شعبان ، يا خوية «ما يحس الجمرة كان الي يعفس عليها»

ـ يا سنان تذكر قدرة الله .. كم من أناس مرضوا وشفوا .

ـ خمسون الف فرنك يا شعبان تكفي لانقاذي .

ـ خمسون الف فرنك ، يا سنان تكفي لشراء قطيع من الاغنام .. تكفي لشراء عدة هكتارات من الارض .. تكفي للقيام بمصاريف زواجي .. ألا تريد أن تفرح لي ؟ سأشتري لك اجمل كسوة في المدينة ...ألست سخيفا حين تفضل اعطاءها لذاك الرومي الحلوف ؟

ـ يا شعبان ، يا خوية ، ذراعي توجعني .

ـ اعتمد عليّ ولا تخف .. انظر هذه المخلاة ! لقد ملأتها لك بالمراهم والعقاقير ، تصيدتها من كل مكان .

* * *

وفي يوم كان فيه والدي مستغرقا في لعب الورق مع شيوخ القبيلة يشربون الشاي الخاثر ، ويتجادلون : يذكرون المعمر ، والجندرمي ، والحرب ، والثورة ، والنار ، والدمار ، كانت أمي تجمع حوائجي وزادي ، ثم تشيعني بعد حين حتى الطريق المعبدة خلف القرية وتقبل رأسي وتقول « ليوفقك الله يا اسمر ، ليشفك الله يا ولدي .. اذهب الى العاصمة واقصد المستشفى الكبير ... واعتمد على نفسك فانت رجل واي رجل . »

وفي العاصمة الغريبة عني عرفت في ايامي الاولى التيه والجوع والبرد والنوم على الارصفة ، والصد ، والنفور ، وانتهى بي المطاف ان اصبحت نزيلا طويل الاقامة بمستشفى « الرابطة » . لقد تعقد مرضي فتعقد علاجي وطال . جرحوا علتي مرة أولى ، وجبسوا يدى مستقيمة لمدة أربعة أشهر . ويوم كشفوا عنها الجبس وجدوها خشبة لا تتحرك فاعلنوا فشل العملية .. جرحوها مرة ثانية وجبسوها مطوية الى أعلى وبعد أربعة اشهر كشفوا عنها الجبس فوجدوها حديدة لا تتحرك .. فاعلنوا فشل العملية وقرروا بترها .

فهمتهم بالرغم من تحاورهم بلغة غير لغتي .. فهمتهم بحدسي وعذابي ويأسي .. وكانوا يقررون وكنت أقرر .

* * *

جلبوا ابي عن طريق السلطة الرسمية وسلبوا منه امضاءه على وثيقة البتر .. أقنعوه بان حياتي في خطر ، وأن خير الحلول البتر ، اما أنا فلم يستشيروني في شيء ، يا لها من ليلة لا أنساها ما حييت !.. ترصدت فيها القوم حتى ناموا . ثم تسللت من سياج الحديقة وفررت .. ففررت بروحي وبذراعي التعيسة . وما فكرت في شيء .. كنت اجري ، والهث ، وأتساقط على غير هدى ، والعرق يتصبب مني ويخلط برذاذ المطر .. فررت بمنامة المستشفى القطنية الخفيفة وتركت كل ما أملك من بسيط المتاع حتى الدريهمات التي جمعتها طيلة اقامتي في المستشفى من خدمتي للنزلاء العابرين تركت كل شيء وفررت .. ويل لي !. اترضى بي ابنة عمي زوجا لها وانا مبتور الذراع ؟

ولكن الى أين ؟

لقد ضبطتني الشرطة وأعادتني الى مصيري المحتوم .

* * *

قد يدهشك يا حفيدي العزيز اذا قلت لك : انني تقبلت بعد ذلك مصيري المحتوم بكل رضا ، واقتحمت حياتي من بعد ، وشيدت مصيري بساعد واحد ومع ابنة عمي البدوية الوفية .

لقد أقنعني هو رحمه الله ذاك السيد الفرنسي الكريم .

لقد كان طبيبا سمع بتفاصيل قصتي بعد أن ذاعت في المستشفى ، وكتبت عنها حتى الجرائد ، واثارت شتى التعاليق .

فاستدعاني الى مكتبه ـ قبل الدخول الى بيت العمليات ـ ورحب بي . وقدم لي كأسا من عصير الموز ، وحدثني بقصة له قديمة فاذا هي شبيهة بقصتي وظروفي

ـ انظر يا سيد سنان ان لي رجلا من خشب ومع ذلك فانا رجل كامل كما تراني .. طبيب .. مثقف .. رب عائلة .. ولا تعجب ياسيد سنان اذا قلت لك : انني كنت طفلا مهملا وان بتر رجلي هو السبب الوحيد الذي حفزني الى شق طريقي في الحياة بشجاعة . فانكببت على الدرس والتحصيل ، واعتمدت على نفسي في كل شيء خشية أن يتهموني بالعجز ، ويشفقوا علي ، ويمدوني بالمساعدة .

* * *

كان ما قاله الطبيب اهم درس لي في الحياة .

فاطمة سليم العلاني

لغة القصة الحديثة في تونس

بقلم البشير بن سلامة

عندما يستعرض الباحث اللغة التي يكتب بها القصاصون التونسيون يجد انها لا تخرج عن أنماط اربعة : اولها اللغة القريبة من لغة الكلام العادي المستنبطة منها ، واسميها اصطلاحا « اللغة الحديث » وثانيها اللغة التي يتوافق فيها المعنى بالمبنى ويكون المعنى على قدر الكلام ، وأنعتها « باللغة التوافق » وثالثها اللغة التي تكثر فيها القوالب وهي عندي « اللغة القوالب » ورابعها « اللغة التجاوز » وهي صهر للغة جديدة وتفجير لها لم يسبق اليه .

ان هذا التقسيم للغة القصة في تونس لا يخضع لمدرسة من المدارس اللغوية ، بل هو مستنبط من واقع الكتابة عندنا وهي حصيلة مزج غريب لثقافتين تغلغلتا في نفوس الكتاب التونسيين ، وهي الثقافة العربية الاسلامية بنوعيتها وخصوصيتها ومؤثراتها البيئية والثقافة الفرنسية بل الغربية ، ولهذا حاولت ان اقرأ حسابا لهذه الظاهرة وان احلل لغة القصة في تونس تحليلا شخصيا فيه من المجازفة ما فيه . ولكنه مرتبط ، على الاقل ، بالنصوص كما هي .

فاللغة الحديث ، والحديث هنا اسم يقوم مقام النعت كما تقول العزم الحديد ، تختص من حيث رصيدها اللغوي وجملتها بخصائص مضبوطة ، فرصيدها اللغوي ، اي الكلمات ، مأخوذ من اللغة الدارجة التونسية في عدد عديد منه ، فيرد تارة من دون تهذيب ولا تشذيب ، وتارة اخرى ينصهر في العربية فيتقولب حسب اوزانها وصيغها ، كما نجد في رصيدها اللغوي كلمات فصيحة طرأ عليها مفهوم جديد اقحمه الكاتب اقحاما ودل على معناها السياق او نجد كلمات فصيحة ولكنها قريبة من اللغة الدارجة قربا كبيرا .

ولقد أثر هذا الرصيد اللغوي بطبيعة الحال على الجملة وخاصة على مستواها الصوتي اذ هي اصبحت في نفسها وروحها قريبة من اللغة الدارجة متدفقة كتدفق الكلام العامي ، فالجملة اصبحت في الغالب لا تمثل وحدة بل هي متضامنة مع جمل اخرى لتكون فقرة متلاحمة متماسكة ، ولعل السكون الغالب في العامية لعب دورا في التأثير على الجمل ، واصبح بمثابة العطف للجملة اذ اصبحت سجينة الفقرة كلها ليظهر الكلام في عفويته وانطلاقه وتلاحقه حيا ، في حيوية العامية .

وفي مستوى المعنى ضربت هذه الروح على الجملة حدودا فهي واضحة وضوحا تاما لا يحتاج معها القارىء الى اعادة او الى رجوع النظر في المعنى ، فلغتها فيض سهل ينصب انصبابا في الاذن ولا تحتاج الى اشارة او تلميح او رموز ، وهي حتى وان احتاجت الى ذلك ففي حدود معقولة ، ثم هي كاللغة العامية لا ترسخ رسوخا في الذهن بل تستهلك الى ابعد حدود الاستهلاك ويتلاشى اثرها بسرعة كسرعة انطلاقها وهي الى ذلك تقريرية بحت تعتمد السرد كأداة من ادوات القصة ولا تخرج عن الوصف ، ولا تحيد عن الملموس المحسوس من الصور ، والا قيل اذ تبقى فقيرة الى المجرد من الافكار. اذ العنصر الفعال في كل هذا والعامل الكيمياوي المؤثر هو الحوار بالعامية وهي الادارة الاصلية في قصة اللغة الحديث ، المهيمنة على جميع الادوات الاخرى . وهي تقوم بدور عنصر الملامسة في الكيمياء فتعطي الاشارة الى العمل الكيمياوي وتسهله وتعمل على نجاحه ، فينعكس كل هذا على ما حولها من لغة ومن محيط واجواء واشخاص فاللغة الفصحى تتأثر بها وتنصهر فيها ومحيط القصة وجوها واطارها يبقى مشدودا الى الحياة الواقعية التونسية .

ومما يستنتج من كل هذا ان غاية اللغة الحديث هو ان تختطف من هذه الحياة صورة تنطبق على الواقع ولا تروم ابدا التأثير فيه او تسليط رؤية معينة عليه وحتى اذا عمل الفن عمله فانه يظهر عفويا بسيطا . وهو اختيار واع حر منبثق عن نظرة خاصة للادب اقدم عليها من اختارها ، مقدرا لكل ما ينجر عن ذلك من ثمن باهظ .

وهذا الثمن الباهظ يتمثل في خلو هذه اللغة من الاسلوب . ذلك ان هم الكاتب انصب نحو تغيير اللغة باضفاء العنصر الواقعي الحي عليها ، وأعرض ـ عن روية ـ عن كل ما يطبع اثره بطابع شخصي اي الاسلوب الذي يعطي للاثر نوعية خاصة .. والروعة الادبية لا تتأثر في اعتقادي الا اذا تضافرت عليها ركيزتان اثنتان وهما تغيير اللغة من دون المس بعبقريتها وتطويرها وصهرها صهرا جديدا من جهة واضفاء ثوب الاسلوب على هذه اللغة حتى لا تبقى عارية عادية من جهة اخرى .

واهم الآثار التي تمثل هذا النوع من اللغة هي آثار البشير خريف (قصص : برق الليل ـ افلاس ـ الدقلة في عراجينها ـ مشموم الفل ...) ورشاد الحمزاوي (بودودة مات ـ طرنتو ..) والطيب التريكي (قصص كثيرة طبعت في طبعات خاصة للاطفال) ومحمد العروسي المطوي (حليمة ـ التوت المر ..) .

اما النمط الثاني من اللغة ، وهو اللغة التوافق ، فان اصحابه راموا ان تكون كتابتهم فيه بعيدة عن اللغة الحديث ، ظاهرة

في مظهر كلاسيكي متين لا ينبع عن هفوة وطلاقة تستهلكهما الاذن بسهولة بل انهم حرصوا على ان يبقى للفتهم اثر في النفس لفرط الصهر واحكام التمرين .

فرغبة المتانة والكلاسيكية ظاهرة في هذه النزعة المنصرفة الى الاعتماد على رصيد لغوي لا تشوبه شائبة ، فهو الفصيح الصافي لا غرابة فيه ولا اسفاف ولا تعقيد ، وهي رغبة بارزة ايضا في الاعتماد على هياكل من الجمل عجمها كتّاب من قبل وابرزوا في براعة تامة قدرتها على احتمال المعاني وتقبل الصور وامتحان مختلف نبرات الصوت ، فليس هناك مجازفة في حمل الجملة على ان تتبنّى هياكل اخرى صوتية نابعة عن لغة لم تستحكم مقوماتها الفنية الثابتة مثل اللغة الدارجة او منجرة عن ضرب من التجريب ما زالت آثار المخبر عالقة به وهو الى ذلك غير قادر على الاستقلال بكيانه في ثوب فني متكامل .

فاللغة التوافق هي في الواقع تاليفية تعتمد الجملة الايجازية في معناها العربي والجملة المطنبة (Période) في مدلولها الغربي، فهي لغة لها من الناحية الصوتية والمعنوية ركيزتان اثنتان لا تخرج عنهما وحاولت ان تنطلق منهما لتفجر في العربية نمطا جديدا لا يحيد عن الروح العربية في ايجازها القديم ولكنه يبتعد عنها في موسيقاها واقتضاب معانيها ليضفي عليها ما في لغة الخطابة اللاطينية او الفرنسية من تقصّ للمعاني وتفريغ لها وطول نفس .

ولكن يقول القائل ما هي الجدة والطرافة في لغة تعتمد على هياكل قديمة للغات متعددة بعيدة عن العربية في الظاهر ؟ الطرافة الاولى هي القدرة على التاليف بين هذا كله وخاصة التاليف بين متناقضين في الظاهر بين الايجاز والاطناب في معناه الحقيقي لا في المعنى المتردد الذي يضفيه البلاغيون القدامى عند وصف الكلام الذي يقابل الايجاز . فالجملة التاليفية الغالبة على نمط اللغة التوافق حافظت على ما في الايجاز من « عبارات قصيرة » و« صور شديدة الوقع » ثم هي منحت كل هذا طول نفس الجملة المطنبة التي نجدها عند خطباء الفرنسيين واللاطينيين مثل بوسي (Bossuet) وشيشرون مثلا .

وهذه الجدّة كامنة ايضا في انها تبنت طريقتين متباينتين امتازت بهما لغة الخطابة بالنسبة لجنسين من اللغات العربية والاعجمية ، الطريقة العربية المعتمدة على الايجاز وحرارة اللفظ وتوثب العبارة والطريقة الاعجمية الموجودة في الفرنسية واللاطينية المرتكزة على الجملة المطنبة . وهذا التاليف الناشىء في الواقع على انصهار ثقافتين والتاثر بهما مباشرة او عن طريق الترجمة والاحتكاك ، هو الذي ابرز جدّة هذه اللغة واتاح لها ان تكون حريصة اولا ، على استيفاء المعنى في قدر من العبارة موافق له لا يزيد ولا ينقص ،وثانيا، على ان يكون لها موسيقى ونبرات متوازنة متوازية لا تخرج عن متانة اللغة وسلامتها .

وهذا الاتجاه الخطابي المبني على الابلاغ حرص على ان يؤكد ما في اللغة من رصيد مشترك يتداوله جميع الناس حتى طغى على الانا الموجود في الكاتب وهو الاسلوب . اي ان اللغة التوافق الظاهرة خاصة في الجملة التاليفية لم توفق الا في القليل النادر الى ان تكسو هذه الجدة والطرافة بكساء خاص بالكاتب يحمل طابعه ويشير من بعيد الى ان هذا السبك له ، ذلك ان الجملة التاليفية الجديدة لم تاخذ شكلا متجددا في كل مرة ولم تحمل نبرات معينة ولم تنطبع بايقاع خاص بل هي تتحسس وجودها في بناء جديد متكون من مواد عديدة . واكبر الظن ان هذا البناء غايته هو الكفر بالاسلوب اي تغليب الانا ، ومطمحه الحرص على ان يقدم للقراء نمطا من اللغة قريبا من كافتهم مفيدا لهم مؤديا ابلغ تادية .

هذا النمط من اللغة كتب فيه مصطفى الفارسي (المنعرج القنطرة هي الحياة ..) والطاهر فيفة (اقاصيص عديدة نشرت خاصة في مجلتي قصص والفكر) وحسن نصر (سقيا يا مطر) ورشيد الفالي وغيرهم هؤلاء كثير .

اما النمط الثالث الشائع في تونس ايضا هو ما اسميه :اللغة القوالب ، وهي هذه اللغة التي لا تعتمد الا الاسلوب في الكتابة اي انها في ارضية لغتها ، اختارت انماطا من اللغة قديمة في هياكلها ورصيدها اللغوي ومستوى جملها الصوتي والمعنوي وحاولت ان تطبع ذلك بطابع شخصي ولكن من ورائه نستشف ارضيةقديمة فنقول هذا الجاحظ طابع فيها او ابن خلدون او ابوحيان التوحيدي. وهذا من السهل وجوده مثلا في جماعة الرسالة القديمة ، فيكتابات احمد حسن الزيات والرافعي ، ذلك انهم اقتنعوا اقتناعا ليس بعده اقتناع بان ما كتب به افذاذ اللغة العربية في عصور الازدهار من الواجب ، لا الرجوع اليه فقط والتاثر به، بل تقليده والسير على نمطه ، ولهذا لم يتورعوا في الكتابة على نمط ابن المقفع والجاحظ وغيرهما ، ولكنهم اضفوا عليه من اساليبهم ما جعله جميلا مستساغا ولقد مضى على هذا السنن كثير من القصاصين التونسيين لم يبرزوا بروزا في هذا الميدان وكثير منهم انقطعوا عن الكتابة .

واخيرا النمط الرابع وهو اللغة التجاوز الذي امتاز به خاصة في تونس محمود المسعدى في بعض كتاباته (مولد النسيان ـ السد ـ احاديث ابي هريرة ..) وهذه الكتابة استوفت شرطين اثنين : سن نمط من اللغة فريد في بابه ليس فيه شبه بالقديم واضفاءاسلوب عليه اي طابع شخصي خاص يلوّنه ويخرجه عمن اشترك معه في هذا النمط ، وهو اسمى ما يمكن ان يصل اليه الكاتب : ان يكون في رصيده اللغوي وفي التئام الالفاظ بعضها مع بعض وفي سبك جملته من حيث مستواها الصوتي والمعنوي نسيج وحده ثم هو يعطي من نفسه ومن غزارة اناه ، ومن ثراء شخصيته ما يلوّن اللغة فيلتذ لها القارىء والسامع ويستسيغها بحيث تصير اصبعا يشير اليها دائما

وهو ما فطن اليه والى جله الكتاب الشبان في تونس ، فلقد انكروا على انفسهم ان يكونوا اصحاب اساليب فقط يعيشون على ما نسجته اقلام من سبقهم بل تصدّوا الى اللغة بضرب من الكيمياء ، يفجرونها ويولدون منها العبارات الجديدة والتراكيب المستحدثة وهياكل الجمل الطريفة ، وهم في هذا مرة موفقون ومرة اخرى مخطئون ويمكن ان نذكر منهم عزالدين المدني (خرافات ـ (خرافات ـ الانسان الصفر ...) وسمير العيادي (صخب الصمت ..) وعبد القادر بالحاج نصر (صلعاء يا حبيبتي ...) وغيرهم ..

هذه خلاصة لدراسة طويلة عن لغة القصة اذيعت في حلقات وقد اعتمدت فيها على النصوص والامثلة المضبوطة وبينت انّاختيار نمط اللغة من شانه ان يؤثر على حركة القصة وشكلها وادواتها، وقد آثرت الا اتعرض الى هذه الناحية وقصرت الخلاصة على اللغة فقط وحصرتها في التحليل المجرّد من دون الالتجاء الى الامثلة خوفا من الاطالة .

البشير بن سلامة

ملاحظة ـ لزيادة التعمق في هذا الاتجاه في تصنيف لغة القصة الحديثة في تونس والكتابة بصفة عامة راجع للكاتب :

ـ اللغة العربية ومشاكل الكتابة ـ الدار التونسية للنشر ـ ١٩٧١

ـ اضواء على القصة التونسية المعاصرة ـ مجلة الفكر التونسية ـ السنة ١٦ العدد ١ ـ اكتوبر ١٩٧٠ .

جمجمة فارغة

قصة بقلم
حمودة الشريف

سرت في الطريق ، استوقفني احدهم ، سألني أسئلة متعددة ، لم اجبه ، اكتفيت بالاشارة الى جمجمتي ، نظر اليها ، اشتد ضحكه لعنني في نفسه ومضى :

اعترضتني موسى تستفتيني في عملها :

انـا

« الانا » مخاضها عسير .

أريد أن أقول « الانا » .

« الانا ، والنحن » الواحد ضمن المجموعة .

الظـروف .

الظرف والظروف شيء واحد .

مشاكلي النفسية والاجتماعية .

جمجمتي وأنا شيء واحد .

يلزم النظر الى أصل الشيء بقطع النظر عن الاوصاف التي تلحقه فيما بعد .

الفراغ والامتلاء شيئان خارجان عن الجمجمة .

للمجتمع مفاهيم يكيفها كما يشاء ويتغنى بها يومه . أما الفـد فشي مجهول

مفاهيم وضعية متغيرة .

لو كانت جمجمة المجتمع نظيفة لتغيرت نظرتهم اليّ انا مجبـرة على ان اقدم للانسانية الخير والمحبة ، لولاي لوقع المجتمع في المهالك فطهارته مستمدة مني أنا .

تلمست جمجمتي ، نقرت عليها نقرا خفيفا وقلت :

لو كانت الجمجمة فارغة .

ذاك نعت من نعوت المجتمع .

اشرت الى الشرطي ، هربت وهي تلعنني قائلة :

جمجمة لا تفهم المشاكل النفسية والاجتماعية .

احسست بالفراغ حاولت ان اتناسى .

قلت لصديقي :

ـ احقا ما يقال عني .... ؟

ابتسم قائلا :

ـ ثمرة كل شجرة لا تكون في الغالب الا وقت اشتداد الحرارة .

وافقته ولكني في نفسي قلت : « غبي لا يفهم »

حاولت أن أقنع نفسي بأن النعت الذي الصقه بي المجتمع خاطيء رددت في نفسي : « .. بما أن المجتمع له مفاهيم متغيرة من وقت الى آخر ، وبما ان له تقاليد متوارثة يسير بها ولو كانت خاطئة ، فعليّ ان لا اعترف بمفاهيمه ، وعليّ ان احتقر تقاليده اذن يلزم ان اؤمن بأن جمجمتي ليست فارغة .. »

في المقهى رأيت جمجمتي على حافة الكأس .... تأملتها ... خاطبتها بلهجة عاطفية : « يا جمجمتي العزيزة ... لك الف تحية .. لك أعز ما عندي اياك ان تفتري باقوال المجتمع ، باعماله ، بحركاته »

أشرت الى الشرطي . سخر مني وقال :

ـ أتتمتع بمداركك العقلية حتى تفرض عليّ الاوامر ... ؟

قلـت :

ـ كيف تسألني هذا السؤال وأنا صاحب الجمجمة ؟

قـال :

ـ جمجمة فارغة .

قلـت :

ـ ليس لك الحق في التجسس على الاسرار .

قـال :

ـ اعطني الاوراق الثبوتية لاعرف النسبة المئوية

ضحكت ، وقلت :

ـ أنت من المجتمع .

اشتد غضبه فاعتلى الجمجمة وقال :

ـ ايها الناس ، هذه جمجمة فارغة .

انفجرت الجمجمة وتحطمت الكأس وادخلت بيتا ضيقا .

نظرت الي عجوز وقالت :

ـ شفاك الله ، يا بني

اشتد ضحكي ، سالت دموعـي ، تلمست جمجمتي فوجـدت حرارتها مرتفعة ، صحت :

ـ كل عجوز افنت عمرها في المأخور لها قصر عرضه السماوات والارض في جنة المسلمين .. »

في المدرسة صاح التلاميذ :

ـ جمجمة استاذنا فارغة !

استغربت وقاحتهم ، تلمست جمجمتي خفية ، نقرت عليها ، تبين لي صدق قولهم ، أظهرت الجد وبصرامة حازمة قلت :

ـ أنا صاحب الامر هنا ، والعلم مقصور عليّ انا ، وانتم ليست لكم القدرة على التمييز

تقدمت الي تلميذة ، ناولتني قلما احمر ، أسرت في اذني :

ـ هذه هدية صغيرة .. في الليل ضع القلم في الجمجمة ليكون الالم والتحول .

اغترت بكلامها .. كونت أملا. خرج التلاميذ ينشدون نشيـد الجمجمة الفارغة .

قال لي رئيس المعهد :

ـ أحقا ما يقول عنك التلاميذ ؟

ـ ليتهمني كل متهم .. أنا أعتقد أن الزمن الحراري سيأتي عما قريب ، وسيطلبون مني العفو

* * *

كنت في البحر أسبح .. انتبهت .. عرفت أن جمجمتي فارغة .. حاولت أن ارجع الى الشاطيء .. كانت مدينتي خالية. ضحكت وقالت:

ـ رئيسنا جمجمته فارغة .

قطبت جبيني ، قالت :

ـ مسكين رئيسنا ، ليس قادرا على تنظيم الاوامر .

وقفت امام الجمهور ، نظمت ربطة عنقي ، وضعت النظارات ،

تنحنحت ... صفق الجمهور ، شربت قليلا من الماء قلت :

ـ « أيها الجمهور ... أيها الجمهور ... أيها الجمهور . »

صفق الجمهور ، تلمست جمجمتي ، طفقت أكرر الجملة ، كان خطيب آخر في ركن من القاعة يلقي خطبة عاطفية .. حاولت ألا انتبه اليه ، كان الجمهور يصفق ، ينتظر ما أقوله ، حاولت أن أتكلم ... أن أنظم جملة أرضي بها عواطف الجمهور .... اخيرا قلت لهم :

ـ هوذا أنا في ركن القاعة .. انظروا اليّ كيف أخطب ....

صفق الجمهور ، تنفست .. ضحكت ضحكة عريضة .. شعرت بارتياح .

* * *

قال بعض الناس : انه مجنون ، وآخرون قالوا : انه رجل معقد، وآخرون قالوا : انه تفلسف كثيرا فجن . واخرون قالوا : انه من سلالة مجانين ، واخرون قالوا : انه من يوم ان وقع له ذلك الحادث اصبحت تعتريه حالات جنونية ، كثر القول ، نظروا اليّ مليا ومروا ضاحكين .

جمجمتي أصبحت مشكلة لي ، يدي دائما تتلمسها . حاولت أن أقرأ كثيرا ، أن أطالع كثيرا عل شيئا ينبت في ركن من أركان الجمجمة في الليل لم استطع النوم . فرحت وقلت :

ـ عله ألم التكون أو ألم المعرفة .

في الصباح وقف الشرطي أمامي في المرآة ، حاولت أن اتناساه ، قال لي :

ـ انك متهم بما نويته البارحة .

قلت :

ـ وهل يحاسب الانسان على ما ينويه ؟

قال :

ـ الاعمال بالنيات .

ضحكت كثيرا .. ضربته على رأسه .. انفجر عقله صائحا :

ـ كنت ، يا سيدي ، ليلة كاملة تحاول أن تنشيء شيئا ... شيئا سريا خطيرا .. وانا مكلف بالقبض عليك .. ارجو ان تسمح لي بذلك

قلت :

ـ لست أنا الذي أردت . أنا احسست بالم في الجمجمة وهي المسؤولة عن ذلك .

قال :

ـ أنت والجمجمة شيء واحد .

قلت :

ـ فلنعتبر هذا الالم الذي في الجمجمة جريمة فهي لم تتجاوز ذاتي والقانون لا يعاقبني على ذلك .

قال :

ـ ألم جمجمتك لم يقتصر عليك انت ، فالجماجم الاخرى أصابها تصدع .

قلت :

ـ أهذا عمل يخالف القانون ؟

قال :

ـ القانون لا وجود له ، انا الذي صنعته . وانا اصنعه كما اريد واقول لكم : هذا هو القانون .

قلت :

ـ اذن لا يحق لي التنفس والشعور بالهواء الخارجي .

قال :

ـ الشعور بالهواء الخارجي او مجرد التفكير فيه يعد جريمة اجتماعية خطيرة يعاقب صاحبها بالشنق

كان الشبان يصفقون ، قلت لهم :

ـ أهكذا تسكتون على فعله ؟

قالوا :

ـ ماذا ترانا فاعلين ؟

قلت :

ـ ايحق له ان يتهمني !. سيأتي دوركم !

انهالت علينا الحجارة ... نظرت حولي .. ألفيت جمجمتي ملقاة على الارض ، حملتها وانا أردد : « مسكينة أنت يا جمجمتي ، يتهمونك بالفراغ وأنت تحملين هم العالم »

اضطربت جمجمتي ، سعادة وخوف في آن واحد ... كانت المغامرة صعبة .. خرجت من نافذة من نوافذ جمجمتي أضواء كاشفة غمرتني ، صعقت اعصابي .

* * *

نظر اليّ رئيس المحكمة ، ضحك ، ضحك الجمهور ، تلمست جمجمتي ، تجمهر الذباب فوق رأسه الاصلع ، كان فأر يجري وراء قط صرعت امرأة من الجمهور ، تقدم شرطي بتقرير يبين جريمة القط :

ـ كان عليه الاستسلام والامتثال لاوامر الفأر أحسن من أن يدخل الفزع في قلوب الآمنين .

قفزت صاحكا :

ـ ما أغبى الآمنين !

قال الرئيس :

ـ « .. وحيث ان القط لم يتأدب وحيث انه لم يظهر الاحترام

وحيث انه أدخل الفزع على المرأة

وحيث انها ولدت أربعة توائم

وحيث ان هذه الاعمال منافية لمباديء المحكمة

فقد تقرر :

ان يعدم الذباب .. »

استوى الشرطي قائما فوق صلعة الحاكم .. أطلق النار .. اهتزت الجماجم فرحا .. انفجر الدماغ ، فتصاعد منه الدخان وقال الرئيس « تعلق ميدالية ذهبية لهذا الشرطي نظرا لاجتهاده وحزمه في خدمة الوطن »

* * *

ذات مرة غافلت والدي وخرجت راكضا وصحت في أبناء الحومة:

ـ « تعالوا ... تعالوا ... »

انصتوا اليّ وأنا أحرضهم على البطش بسيدنا المؤدب والثورة عليه .

صاح المؤدب :

ـ اقرأوا .

نظرت اليه وضحكت ، صحت في وجهه :

ـ « مؤدب مجنون ! »

صاح التلاميذ :

ـ « مؤدب مجنون ! »

قلت :

ـ انه لا يفهم ما يقول .

رددوا :

ـ انه مجنون .

قلت :

ـ انه كبغل الطاحونة .

رددوا :

ـ انه مجنون .

دخلت الكتاب خلسة ، وجدت عليا متجها نحو الحائط وسيدي المؤدب فاتح ازرار سراويله ، صحت :

ـ « مؤدب مجنون »

احمرّ وجهه ، بصق عليّ وقال :

ـ أتتهم سيدك الذي يعلمك الاخلاق ؟

صحت في وجهه :

ـ أنت مصدر الايمان وبيدك مفاتيح جنة الآخرة .

في الصباح وجدت أن المؤامرة التي خططها أبي والمؤدب قد نفذت تلمست جمجمتي .

اشار الي الاستاذ « ان افتح الباب » فتحته .

قـال :

ـ من فتح الباب ...؟

قلـت :

ـ أنـا

قـال :

ـ انها قدرة الله

فلت ساخرا :

ـ بشهادة التلاميذ أنا الذي فتحته بيدي هذه يا سيدي .

قـال :

ـ الله هو الذي أعطى ليدك القدرة لتتحرك .

قلـت :

ـ أنا الذي أتحكم في حركاتي ، وأنا مسؤول عن نفسي .

قـال :

ـ ستحاسب عسيرا .

قلـت :

ـ ان عذابي شديد ، فانا جائع ، وأبي مريض ، واخوتي صغار ، وأمي مطلقة

قـال :

ـ هذا في الدنيا . أما في الآخرة ...

قلـت :

ـ وهل الآخرة شيء آخر ؟

قـال :

ـ عذاب جهنم شديد

ضحكت .. ضحك التلاميذ .. تلمست جمجمتي .

احتد قائلا :

ـ كيف تتصور الجنة والنار ؟

قلـت :

ـ كما يتصورها العقلاء .

قـال :

ـ أقصد كيف تتصورها انت ؟

قلـت :

ـ أيعقل ان تكون في الجنة الحور العين وانهار من عسل وثمر مشكل الالوان ؟ واذا افترضنا ذلك فاين ستوضع زبالة الآكلين ؟ ولماذا تبدل جلود الكافرين في النار ؟

على هذا المفهوم يصبح لا قيمة للخلود والنار !

وضع أظافره في وجهي ، وصاح :

ـ تلميذ كافر ، عليك اللعنة الى يوم الدين

من أعلى المنبر صحت :

ـ ايها الناس ، ان الجمجمة تقول : « ان الله لم يخلقنا بمحض ارادته ، انه مجبر على ذلك . »

ـ اشتدت الحرارة ، كان التفجر .

قال لي الرئيس :

ـ اينها الجمجمة الفارغة، المزعجة، اعلني عن توبتك امام الجمهور

قلـت :

ـ حضرة الرئيس المحترم ..

قـال :

ـ لا أريد خطبا .. انتهى عهد الخطب .

قلـت :

ـ سيدي الرئيس . ان عدد السبعة يشغل الجمجمة ، فانـا أريد أن أفهمه .. فلماذا خلقت السماوات والاراضي في سبعة ايام ولم تخلق في يوم واحد ؟ ولماذا عدد ايام الاسبوع سبعة ؟ ولماذا السماوات سبع ؟ والاراضي سبع ؟ وايام فرحة الزواج سبعة والسبعة في لعب الورق لها قيمتها ؟

قـال :

ـ سبحانه لا يسأل عما يفعل ، اعلن عن توبتك ..

قلـت :

ـ نور الشمس ضروري ، ورائحة الزهرة ضرورية ، ووجودنا ضروري ، فالله شمس ونحن اشعتها . والله زهرة ونحن رائحتها . اذن ليس من المعقول أن تكون شمس بدون أشعة . واذا انتفت الاشعة انتفت الشمس ، فاذا كانت القيامة لا يكون لوجود الله معنى ، ولذلك فلا أتصور ان يكون يوم قيامة ...

كان الجمهور خارجا من قاعة المحكمة وهو يحمل جنازة :

رحمان يا رحمان هذا عقلك واليوم يا رحمان قاصد فضلك

انتشيت وأنا استمع الى أصواتهم المنخفضة المرتفعة ، الناتئة ، اللينة . تلمست جمجمتي .. قفزت فوق القبر صارخا

* * *

قلت لامي :

ـ أحقا ما يقول أبي عني ؟

داعبت شعري وقالت :

ـ ستكون عظيما .

قلـت :

ـ ومتى ، يا أماه ؟

ناولتني قطعة حلوى وقالت :

ـ عندما تكبر وتصبح عاقلا ولا تثور في وجه مؤدبك

قلت لها :

ـ ان أبي يعيرني دائما ... أنا أكرهه

قالت :

ـ والدك يحبك ... جمجمتك ليست ....

شد أبي وثاقي .. ضربني .. بكت امي .. هددها بالطـلاق .

قال لي :

ـ كل الناس يشكونك ، انك مجرم ، اذا لـم ترجـع عن غيـك فساعرف ما افعل لجمجمتك .

في الليل حركت جمجمتي فاذا هي ثقيلة ، فرحت وقلت فـي نفسي : « امن كل مكذاب ، أبي غير قادر على ما قاله ، ان جمجمتي ليست فارغة ولا يمكن ان تفرغ ، اني أعقل أن والدي كذاب ، فـاذا عقلي موجود فيها ، ولو كان غير موجود لما أدركت أن والدي مكـذاب ولما ادركت افعال المؤدب .

صحت بأعلى صوتي :

« جمجمتي ليست فارغة ! »

فتح والدي الباب .. أنار البيت ، تناومت .

* * *

صاح الناس :

ـ .. يا سيدي « تليل » !

تقدم عجوز الى التابوت يتمسح به ، وهو يبكي . امراة محمولة على الاكتاف قالوا ان الجن صرعها ، بخور يتصاعد ، تضرع الى الولي

قالت لي أمي :

ـ قبّل التابوت عل الولي يرضى عنك فيشفيك .

قلـت :

ـ أحي هو أم ميت ...؟

قالت :

ـ لا تضحك على الاولياء .

صاح الناس :

ـ « جمجمة فارغة ! »

قال الرئيس :

ـ « وحيث انك لا تؤمن بالجن

وحيث انك لا تؤمن بالاولياء

وحيث انك بلت فوق التابوت

وحيث انك جمجمة فارغة .. »
قلت :
ـ « حيثياتكم جمل محفوظة لا معنى لها ..
وجدت امي في ثياب شفافة ، نظرت اليّ وقالت :
ـ اني امك ولا يحق لك ان ....
قلت لها
ـ هذا هو منطق الحياة
قالت :

ـ انا ما أزال في عهد المراهقة وانا اصغرك بعشر سنوات .
قلت :

ـ القانون يقول ما كان محرما بالامس يتغير اليوم ويصبح حلالا.
قالت :

ـ القانون هو القانون .
قلت :

ـ حواء بنت آدم ومع ذلك عمرا الكون .
كانت اختي واخي في خلوة غرامية صفقت وقلت :
ـ « كذا الحياة العصرية »
صلوحة وحفيدها يتعاتبان :
ـ منذ أن كنا صغارا وانا ...
ـ أنا أكثر منك
ـ هل تذكر العهود ...؟ كنا نمارس الغرام تحت الشجرة
ـ لله ما أحلاها ....!
ـ تغيرت كثيرا يا حبيبي
ـ الله يعلم ، لم أخن العهد
ـ كيف حال سفراتك ...؟
ـ سفرات سندبادية
كانت امي والاخرون يصيحون :
« جمجمة فارغة ! »

* * *

قلت لشيخ الحومة :
ـ باسم قرن الحريات
صاح الاطفال :
ـ رجل مجنون
صحت :
ـ لي الحق في التمتع بكامل حقوقي
صاح الاطفال :
ـ رجل مجنون
قالت العجوز لحبيبها الصغير :
ـ انت أعز ما عندي . ساهبك شبابي .
قال لها :
ـ رغم شيخوختي وصغر سنك فاني أجد متعة في الجلوس اليك
قال لي الشرطي :
ـ انت المسؤول يا سيدي .
قلت :
ـ عم ....؟
قال :
ـ لم تنم البارحة . وهذا مخالف للقانون كما تعرف .
قلت :
ـ ما هو القانون ... ؟
قال :
ـ القانون هو القانون .
قلت :
ـ زكام اصاب جمجمتي .
صاح الاطفال :
ـ « جمجمة مزكومة ! »
قال الشرطي :
ـ كثرة الذباب تقلقني
قلت :
ـ شان الحياة
قال لي حاكم التحقيق :
ـ الانكار لا يفيدك شيئا
نظرت اليه ضحكت ، تلمست جمجمتي .... نقرت عليها . قال :
ـ يلزمك الاعتراف .
قلت :

ـ اعترف أنك ستكون في يوم الآخرة حاكما في الجنة التي بشر بها المؤمنون .
قال :
ـ جزاك الله خيرا .
قلت :
ـ جمجمتي ليست فارغة .
قال لي السجان :
ـ رأيت البارحة فارا ياكل قطا .
قلت :
ـ تلك هي الحقيقة .

جلدني حتى الموت ، تلمست جمجمتي ، ضحكت ، شكرته على صنيعه وقلت :
ـ لم ار عظيما مثلك . وأعتقد أن ربك سيجعلك في يوم الآخرة جلادا للمؤمنين
قبّلني وبكى وقال :
ـ وان عمل الآخرة خير وابقى .
كان أبي والاستاذ والمؤدب وشيخ الحومة والجموع يصيحون :
ـ « جمجمة فارغة ! »
بين الحين والآخر كنت احس بوجع يداخل جمجمتي .. فرحت

* * *

أحسست بدويّ ورائي ، خفت الاصطدام ، نظرت في مرآة السيارة رأيت مدينتي خربة تأكلها الجرذان ... بكيت ، انفجر الزمن الزمن الحراري .. انطلق دخان من الجمجمة ما لبث ان تكور على نفسه فكان العملاق
قال الراوي :

« حفر الفار جحرا في صلعة الحاكم . وطار الذباب وانتهى . كان ياما كان . وغرق السندباد وتحطمت سفينة « اوليس » على شواطيء جربة ، وأدرك شهرزاد الصباح ، وجن هارون الرشيد ، وانتشرت الجماجم المتصدعة في انحاء العالم . »
كان القوم يرددون :
« رحمان يا رحمان هذا عبدك والبوم يا رحمان قاصد فضلك »
حاولت اللحاق بهم . احسست بثقل منعني عن القيام ، تلمست جمجمتي فاذا هي نوافذ مفتوحة على أجهزة الاعلام تعزف موسيقى الضياع .

حمودة الشريف

استاذ بمعهد ترشيح المعلمين
بالقيروان

زمن البكـاء

الرحلة كانت اطـول من عمري
والليل الرابض ، يا أمي ، عند الشرفه
يترصدني ..
وصدى اصوات خلفه
تتوعدني ..
الارض تدور ولكني .. سأغيّر دورتها
وسأغرق أمواج البحر ..

أمي .. وأنا في عتمة ايامي اذرعها
أمي .. وانا وجه مفقود ..
أمي .. وكؤوس بكر اجرعها
أمي .. سأعود ..
القرية نادتني ـ اماه ـ شوارعها
وعيون حبيباتي .. ورموش سود
وأغان ما زالت ـ اماه ـ توقعها
في منجمنا المعطاء .. زنود
اماه سآتي بالاشواق اوزّعها
وبحزمة آمال .. ووعود
وسأحمل وردة حب لك في قلبي .. ازرعها
آه ما احلى ـ يا أمي ـ ان نزرع في الحوش ورود
سأعود لنافذتي الصغرى في الدار واشرعها
سأعود .. أعود .. أعود

قلبي نافورة احزان والم
قلبي شباك اغلقه الفقدان
قلبي في الليل محطة قافلة الاحزان

اماه .. وهل كانت للحزن قدم ؟

تأتيني قريتنا بعيون متعبة سودا ..
بجبال حالمة جردا ،
بدروب تلهث فيها الريح ،
بعبير الفسفاط الازرق ،
بشذى النعناع بأنفاس تتنهدها اعراف الشيح
تأتيني قريتنا .. وانا مطرق
أهدابي اتعبها التلويح
آه يا امي .. الغربة سجن مغلق

لكني يا امي وانا في هذا السجن الرمس
أتوسد حبك في قلبي.. يا طلا ينضح من اعماق الشمس
ياغيمة دفء ورديـه ..
يا أجمل اغنية صحراويه
يا احلى من زغرودة عرس
سفني ما زالت بعدك لم ترس على مرفأ
فبحار الغربة .. قبر الحريه ..
فانوس مرافئها مطفـأ

سأتيه .. أتيه .. أتيه
وغدا سأعود بحفنة ملح
وبجرح عمّقه الاعياء ومات غريبا فيه
أمي .. وسترحل قريتنا في هذا الجرح .

سويلمي بوجمعة

أحذية مهترئة

قصة بقلم نتيلة التابعية

تهرأ السقف ! ...

تهرأ سقف بيتي ، يا أبي ، تساقطت فوقي رماله ..

ثقب ! ...

ثقب سقف بيتي ، يا أبي .

ان الثوب المثقوب ينذرنا ابدا بالنهاية .

ثقب سقف بيتي ... ثقبته الامطار .. فتحت شقوقا في قرميده، تسابقت الي" من خلال فجواته « تقاطرت » « اندلقت » ساحت في بيتي .

أركان بيتي ترتجف ارتجافا بلا توقف ، تتناوح بين شقوقه الرياح .. تتناوح .. تبكي .. قطي سكن .. كلبي قاء صوته عند أقدامي .

المياه ، يا أبي ، تضرب السقف ، ولضربها رجع قوي ، ولضربها ترتجف الجدران ، ولضربها يسكن قطي ، ولضربها يدوخ كلبي عند اقدامي ، ولضربها اضرب كل شيء ، ولضربها اصرخ ...

ان صرخاتنا أجسام تريد ان تجد مكانا في الارض .

ويكثر النواح والبكاء .. ويكثر الزفير والضرب ... ويكثر الضرب والصراخ ، وعلى الطريق أسمع صوت بصقة طويلة « تفو !! »

ثقب سقف بيتي ، يا أبي ، ثقبته الامطار .. فتحت شقوقا كبيرة في قرميدة ، الامطار تظهر ، تندلق ، تسيح على الجدران ، تتعقبني..

انا ايضا كنت تعقبت ، كنت تعقبتك ، يا أبي ، لاني دوما أجهلك ، اجهل نفسي ايضا .. فقط .. انتظرك كامي ، أتفرج عليها ، وهي تخدمك ... تجلس عند اقدامك كقطة أليفة تلمع أحذيتك دوما .

في ذلك الصباح ـ كان حقا صباح مخاض ـ تعقبتك ..

قبل ان تخرج لمعت أمي حذاءك .. كانت تلمعه لك دوما ، حتى في الايام التي تتعب فيها ، ولمعت لك الحذاء ، وساعدتك وانت تلبس المعطف ، وأيضا شيعتك حتى الباب . وكان ان جاء دوري .

انت تسير ... تسير ، يا ابي .. وانا وراءك ..

أنت تسرع ، وتسرع ، تنظر الى ساعتك وانا وراءك ، تمشي ، تسرع ، تتحدث ، وتتحدث وحدك ، تساءلت .. بل انحل سؤالي ، لان مشكلة اضراب اخي عن الدروس ليست من المشاكل التي تحيرك ، فانت تعرف جيدا انه يخاف ، وانه يريد دوما ما يريدون ، ولكنك تتحدث ، تتحدث وتسرع ، انت يا ابي تسير ، تسير بلا توقف. وتمر بجانبك سيارة فخمة ، أشرت اليها ، ظننتك ستركبها وساخسر صفقة تتبعك ، ولكنك ـ فقط ـ حييت صاحبها ، وتجاهلك هذا ، واهتززت ... ماذا فعلت ، يا ابي ؟

هل نسيت ان أمي في ذلك الصباح كانت قد لمعت حذاءك ؟

وتسرع .. تسرع وأنا وراءك ، تسرع وانا خلفك .. ويمر بجانبك بائع الجرائد ، ويحييك .. رايته يحييك ولم تهتم به ، يا أبي ... رايته كذلك يعطيك الجريدة ، يعطيك الجريدة وانت ساكت .. .ودوما تسرع . وغبت عني قليلا .. خلفتني .. خلفتني وراءك .. خلفتني أنظر الى بائع الجرائد .. انه يبتسم .. يبتسم .. ونظرت الى حذائه .. كان حذاؤك مثقوبا، واصبعه الصغيرة تتفرج على الناس منها، وتساءلت في حيرة :

«من يساعدك تلك الاصبع على الدخول ؟ من ، من يلمع حذاءها ؟»

وعدت أسرع ، أجري ، الهث وراءك . ورأيتك تدخل المقهى ، ورايتهم يحيونك . فقط كنت تنظر .. وشغلت بقهوتك ، وشغلت بك، انك اول رجل تشغلني .. انت يا أبي .

وتخرج ، وتمشي .. وأتعب وراءك .. ويحيونك يا أبي وتتجاهلهم وتحييهم ويقتلونك . وتصل الى ، الى لست أدري .. وخفت .. خفت صراحة ، لانك علمتني الخوف ، ولاني كنت دوما أسالك وتسكت ... تصمت كأنك تموت ابدا .

وأراك تنحني .. تنحني أنت ـ أنت يا ابي ـ امام فار يلبس حذاء أجمل من حذائك قلت أجمل .. لا ... ربما أجمل ... ربما أرفع ... لا . ربما أغلى .. ربما أثمن ، ربما .. ربما لست أدري ..

وأراك تخلع المعطف .. ترميه ، وتمشي منحنيا تحت أثقال أكياس الاسمنت .. وارتعبت .. يا أبي ، يا أنت ،،، نرفع أكياس الاسمنت؟

وتنحني .. وتنحني أكثر ، ترفع الصخر ،، والعرق منك يقطر.. وتنحني أكثر .. ومع ذلك تضحك ، وتنحني ، وتحيي ، . وأراك فوق السطوح .. تنظف السطوح .. تدفع المياه .. تدفع المياه لتندفق من الميازيب . وتصورت قدمك بك تزل .. تصورتك، يا أبي ، على الارض، على الارض تموت، تموت وانا أبقى للبرد، ويشيعونك بكلماتهم الضخمة « كان مخلصا ... » ويضيفون اسمك الى قائمة الشهداء .

وتموت ،، يا مامور ، يا أبي .

ماذا يفعل هذا ؟

ماذا تفعل ، يا أبي ؟

انك تعطي .. وتعطي وأنت ساكت ايضا .. ربما تخاف كما علمتني وأخي .. واكتشفت انك تموت فعلا .. أنك ميت ،، أنك تعطي، تستنفد نفسك ، وتسكت ، تسكت أيضا ، ومن يريد أن يعيش ، من يريد الابقاء على ذاته يجب ان يتكلم .. ان يصرخ ايضا .

لقد اكتشفت ، يا أبي يومها ، انك اعطيتني أشياء لم أطلبها منك .. كنت تخفي عني انك ترفع على ظهرك الاسمنت ، وتصمت ، تصمت كثيرا امامي لتجعلني ارضى بما أنت رضيت ، ولمعرفتك انني صعبة المراس ، فانت لا تتركني ألمع حذاءك الذي اكتشفت في ذلك اليوم ايضا أنه يشبه حذاء بائع الجرائد . اكتشفت انه كثير الشقوق ، لكنه لماع ، لان أمي كانت لمعته قبل خروجك . وأيضا ، دون أخي ، كنت تشتري لي الاحذية اللماعة .

ماذا فعلت ، يا أبي ؟

كنت تعطي .. وتعطي .. وتسيت ان كثرة العطاء تولد رغبة الاتكال ....

جدران بيتي تقف فيها الفئران ! تقف فيها مستفيهة ، ولكن ستغرقها الامطار .. ستذهب بها بعيدا .. ستأخذها بعيدا الى بيت آخر لتنحني هناك .. ستذهب بها .. ستأخذها بعيدا .. بعيدا ... بعيدا .

جدران بيتي ترتجف .. ترتجف بلا توقف .. أركان بيتي تحت الامطار صاغرة .. أركان بيتي تحت الامطار قصيرة .. الامطار تندفع جسمي لا يحس بالخوف .. الخوف ينفصل عن روحي .. الصرير ينبعث من جميع خلايا نفسي ... ينبعث هادرا .. الضحكات الهستيرية تنطلق من أعماقي.. التيار يلتهب من حولي ويلهبني . الثقب تتسع أكثر.. الجدران تبتعد عن بعضها أكثر.. الجدران تبتسم.. تضحك.. بغزارة .. بقوة .. الامطار تهلكني ، تضربني على رأسي ، على رجلي،، تتداعى .. تتمايل ، وانا وحدي في ذلك الهول .

قال لي البناء قبل أن يسقط البيت ، وبعد ان لمع وجهه بضحكة كبيرة ..

ـ استطيع أن أسد هذه الثقوب .

ـ تفعل ماذا ؟

ـ اقف بجانبك ..

ـ انت ، أيها الفار ؟

ـ نعم

ـ ما مدى وجودك ؟

ـ انه يمتد مع المد" ...

ـ جميل ... ويجف بعد حدوث الجزر أليس كذلك ؟

ـ أن المدّ فوق كل شيء ..

المد ! . المدّ ! . المد يغطيني يا أبي .. بيتي يسقط .. بيتي ينهار .. جدرانه تنام فوق بعضها .. تتمسح بالارض .. تعانق المياه .

والثوب أبدا ينذرنا بالنهاية .

الجدران تعانق المياه ، وأنا وحدي في ذلك الهول ،، حدثني البناء كثيرا .. يريد ان يعطيني ..يعطيني مثلك ، يا ابي ..

والعطاء الرخيص ، يولد ، عندنا نحن الذين ناخذ ، كره العطاء .. ورغبة الافتكاك ..

ـ أنت أيها الفار ؟

ـ كم من فار داس عملافا ..

ـ أو .. ما كل دوس مطلقا ..

ـ ولا كل شيء نراه صالحا ، هو صالح في واقعه ..

ـ الفرق بيننا ، هو أني أمشي مستعينة بنفسي ، وانت مستعين باسيادك .. تمشي باسيادك ...

سقط ! . سقط البيت يا أبي ! . والمياه تجرجر قواعده ... تكسر سواريه وانا ارتعش باستمرار .. المكان كله يغرق في الارض ، ويغرق معه أشياء كثيرة .. علب اللماع الفارغة الصدئة جدا التي لها وقع مفزع وصورة مفزعة لبيت راحل . لم يكن ثمة شيء يوحي بالقوة. لم يكن ثمة شيء يوحي بالسكينة غير الفئران ، ومتفرج واحد .. وانا المصلوبة ..

القوة كل يوم تصلب ضعيفا . والضعفاء ينفخون في ابواق من رماد .

ان تاريخ الصلب وجد بعد ان كثرت أبواق الرماد ...

الماء يسيح .. يسيح بقوة .. علب اللماع الفارغة تتعثر ... الفئران تتراقص .. تتراقص سعيدة ..

انه لجميل أن نبصق في وجوه الناس ، السعداء البسطاء .

الماء الهائج يغمر كل شيء ! . يحطم كل شيء .. ابتسمت للهائج .. للماء .. تذكرتك ، وانت تبتسم فوق السطوح من بعيد لصاحب الحذاء الجميل ..

تصورتك تموت ، وانت ميت .. فكل ما فعلته في حياتك انك صامت .. وابتسمت ..

ابتسمت عكس ابتسامتك ،

الماء الهائج يصلبني !. يداي تتحركان .. تفاومان .. ان الماء يجهل ان بعضي اسمنت وبعضي الآخر صخر ، والبقية عرق .. عرقك انت ، يا أبي .

الموج يقذفني وأنا مصلوبة .. يجرفني فاهبط ، وأرتفع واقف وأنا مصلوبة .. يدور بي ويدورني ، وأنا مصلوبة .. واقاوم واسكن ، واهدأ ، واستسلم، وانا مصلوبة . وحيث انا مصلوبة أكون موجودة.. وحيث أنا موجودة أكون قد وجدت .. وحيث قد وجدت ادرك حدودي.

براكم الثلج في هذا المساء ، يا أبي ! . سقط كثيرا .. ورافني في مكاني البعيد القريب ، المتصل ، المنفصل ، في خراب بيتي ان انظر الى رجليّ الحافيتين وامامي رأيت ذلك المتفرج .. نفس المتفرج الذي رأيته في الصباح يقف امامي بحذائه الجميل .. رأيته ايضا في المساء ،، نسيت أن اقول لك : ان هذا المتفرج قد احتفظ ببصقته بين شفاهه . وعندما توقف أمامي خلع حذاءه ،،

ـ اني آسفة ، لان وضعي هنا يجبرك على خلع حذائك ..

ـ لا تخجلي ..

ـ انما خجلي من وقفتك ، لانك ستعود بصفقة المغبون .

ـ كلنا نقول هكذا ..

ـ هل أنت مسرور ؟

ـ أجل ! . لان المياه لم تخذلك .. كنت رائعة .. جدّ رائعة .. انك تشبهيني « افروديت » .

ـ دع هذه المجاملات لغيري ..

ـ كنت رياضية .. وكنت امراة ايضا ..

ـ اشكرك للاولى .. وآسف للثانية ..

ـ هاتي يدك

ـ لا استطيع ، فبعد قليل سيجرفني التيار من جديد ..

ـ هاك حذاء أذن ..

ـ أوه ! . أضجرتني .. دعه لك .. تركت أحذية كثيرة في بيت والدي ..

و .. وتركته .. ووراني فذف الكلب بصقته ..

ومن بعيد ـ عبر ميدان المحطة ـ أرى مكاني يخنقه الدمار .. لست أدري ماذا يحس المرء عندما يرى أمامه الدمار ، وعندما يشعر أنهم يجدّون في تمليع الدمار ايضا ..

هل كان الدمار يلوي لسانك ، يا أبي ؟

ان الدمار هو هجاء كل شيء ، يعني الميل نحو كل شيء رغم الظروف والاوضاع ، وكذلك سار كل شيء نحو الهجاء ..

عرفتك في ذلك الصباح ، يا أبي . وكان حقا صباح مخاض حيث تمت الولادة في الاسمنت .. كنت تلمع وجهك .. تحمل الصخر على ظهرك .. رأيت أنفك أنفي يغرقه الاسمنت ، رأيتك ترتعش .. تنحني، تحيي وتبتسم أيضا ..

وكرهتك .. خرجت أبحث لنفسي عن بيت .. وجدت البيت .. ثقبته المياه ، لاني أرفض التلميع .. أرفض الاخذ .. أرفض العطاء .. وثقب السقف .. ثقبته الامطار ، والرياح تتناوح من خلال شقوقه .. والاركان ترتجف .. والقط سكن .. والكلب قاء صوته عند أقدامي..

والثوب المثقوب ينذرنا أبدا بالنهاية ...

والبناء الفار يدوس العملاق ،، والكلب المار مال الى الكفة الراجحة .. وشيعني ببصقته .. وحرمته « أفروديت » والامطار تريد .. وأنا مصلوبة على عمودها كالعلم المنكس .. وعلى رأسي اسير .. وعلى حافة العدم برأسي أسير ، وكل ما امامي دمار ، وفي حدود الدمار أتعثر .. أتحرك مع اتجاهات الرياح البغيضة ، عيناي تثقبان الفضاء حيث الدمار وما بعده ، كل حركة صعبة ... صعبة جدا .. الساحة امامي كبيرة ومملوءة بأحرف الهجاء..الغبطة بالحفاء لا تفارقني وانا مصلوبة وعلى العدم برأسي أسير ، والعدم يمتد أكثر من اللزوم ، أكياس الاسمنت فوق ظهرك ، يا أبي ، تغطيك .. تحجبك عني .. تبعدك أميالا عني .. تبعدك .. تبعدك .. وشعرت بوحشة والاكياس تواريك .. وحشة تحيط بي .. تلفني .. وحشة في قلبي وفي الجو أيضا .

ما أبدع الوحشة ! . ما أبدعها حقا ، يا من وارتك الاكياس .. انها الواقع العاري بلا تلميع .. انها انت .. أنت ، يا أبي .. وعرقك يغسل وجهك .. انها انا .. انا التي تجري .. انا التي تفرّ .. انهم يطاردونني ... يطاردونني ، يا أبي ، وصراخي يسبقني .. لن تنحل ـ يا أبي ـ صرخة وراءها فم مفتوح .

اني أجري .. ألهث .. امزق الطريق تحتي .. وهم يجدّون في الجري ورائي .. يمدون الي أيديا قذرة .. جدّ قذرة .. يقولون .. يقولون كلمات كبيرة أيضا ..

« .. يجب ان نمسكها .. نقطع بعض الشيء من رجليها المفرطحتين .. يجب ان نبني السدود .. أن نقيم الاسوار.. ان نذهب الى والدها » .

الوحشة هي انت انا التي تفر .. أنا التي تجري .. تجري وتصرخ ..

«.. اذهبوا اليه .. اذهبوا الى أبي.. خذوه يلمع ممكم الاحذية .. خذوه ليكون شهيدا من شهدائكم .. أما أنا ، أنا أرفض ، أرفض زواياكم الضيقة ، أرفض كلمانكم الكبيرة ،، أرفض .. ان الرفض وليد ولادتي .. ارفض أيضا هداياكم الرخيصة .. أرفض عطاءكم البخس » .

مللته .. مللته .. صدقوني . مللته ، لانه أخذ بدون تعب ، والاخذ بدون تعب ضربة من فوق ..

اذهبوا اليه .. اسرعوا اليه .. انه يحسن التلميع .. خذوه .. لن يرفض .. لن يقول « كلا » لن تسمعوا منه « لا » .

انه لا يعرف ما معنى « لا » .

أما انا ! . انا أكره الانتصار .. بدون حق .

الصوت الذي تبحث عنه

قصة بقلم حسن نصر

أمضى جابر عمار ما يزيد على الستين يومـا يتردد على دار المعتمدية .. في كل يوم يقطع ذهابا وايابا ما يقرب من الخمسة عشر كيلو مترا سيرا على الاقدام تحت الشمس المحرقة ، ويأتي بعد ذلك امام باب المعتمدية ينتظر الحاجب حتى يأذن له بالدخول .

حائط المعتمدية يبسط ظله المديد على الساحة الكئيبة الصفراء ، والرجال يقفون تحت ظل الحائط منذ الصباح الباكر ، فطار طويـل من العاطلين جاءوا من أماكن متفرقة ، كل واحد ينتظر دوره فـي الدخول .

يتلاقون كل صباح ، يتحدثون أو يتخاصمون من أجل الاماكـن ، وكثيرا ما يركنون الى الصمت الطويل ، وهم يشردون بأبصارهم عبـر الساحة الصفراء أو يذبون الذباب الاسود عن وجوههم ، وفي أوقـات أخرى يتنادرون ويضحكون ضحكات بيضاء سرعان ما تتلاشى أصداؤهـا عبر الساحة ، وقد نسي جابر عمار كل تلك النوادر لان بقلبه كثيـرا من الهموم والذي بقلبه هموم لا يتذكر في غالب الاحيان شيئا .

يجلس الرجال وعيونهم مفتوحة .. الريح تنفخ في الساحة فتهز الغبار ويتساقط على رؤوسهم . وامام الباب الكبير المقوس يجلس الحاجب على كرسي أعرج يراقب بجفنه الدامي كل داخل وكل خارج. فاذا أقبلت الساعة العاشرة من كل صباح يصل السيد المعتمد فـي سيارته الجميلة البيضاء ، فيهرع اليه الحاجب . يفتح له بـاب السيارة ، ويفسح امامه الطريق .

يدخل السيد المعتمد الى دار المعتمدية فيبقى بها ساعة او اقل من الساعة ثم يخرج بعد ذلك ليمتطي سيارته الجميلة البيضاء. وينطلق به السائق في سرعة فائقة مخلفا وراءه سحابة من الغبار ، ويتفـرق الجمع في ذلك اليوم ليعود صباح اليوم التالي من جديد .

في اليوم الستين بالعدد ، سمح الحاجب لجابر عمار بالدخول . وأمره بأن يتوجه راسا الى مكتب التسجيل ، حتى يتم ترسيم اسمه ضمن قائمة الرجال العاطلين ، ويقع النظر في شأنه من طـرف المسؤولين .. لكن جابر عمار أخطأ الباب فتوجه الى مكتب السيـد المعتمد ، ودخل المكتب .

كان السيد المعتمد يجلس خلف مكتبه الفخم العريض اللامع . وقف جابر عمار لحظة ينظر صامتا ، فلما راى المعتمد لم يرفع راسه اليه ، تقدم الى وسط القاعة ، وغطست قدماه في البساط المفروش في القاعة . كان السيد المعتمد منغمسا في أوراقه : ومد يده الـى فنجان قهوته ليأخذ منه رشفته . فوقعت عينه على الرجـل ، فصـاح به حتى اضطربت القهوة بين أصابعه :

ـ ماذا جئت تفعل هنا ؟

ـ جئت يا سيدي المعتمد لاطلب منك ..

ـ من أمرك بالدخول الى مكتبي هنا ؟

ـ لا أحد .

ـ لا أحد ، بكل هذه الوقاحة . وكيف دخلت اذن ؟

ـ دخلت لاطلب منك ياسيدي ...

ـ ماذا ستطلب مني ؟ ومن دلك على مكتبي ؟

ـ لم يدلني أحد .

ـ ما هذه الوقاحة ؟ اخرج من أمامي حالا !

ـ أرجوك ، يا سيدي ، أن تسمح لي بكلمة صغيرة لا غير .

ـ قلت لك اخرج حالا .. أين هو الشاويش ؟

يضغط على الزر بينما يواصل جابر عمار كلامه غير مكتـرث بشيء .

ـ كلمة صغيرة لا غير ، كلمة واحدة .

يقبل الشاويش مهرولا في تلك اللحظة ، يقف امام سيده وهـو يكاد يقبل الارض بين يديه قائلا :

ـ نعم ، سيدي ، ما حاجاتكم ؟

ـ من سمح لهذا المتصعلك بالدخول الى مكتبي ؟

يتطلع الشاويش في وجه جابر عمار كممثل السرك الهزلي ويساله بدوره قائلا في بلاهة :

ـ من أمرك بالدخول الى مكتب سيدي المعتمد ؟

وهنا ينفد صبر المعتمد فيصيح بالشاويش :

ـ انا الذي اسالك . أجبني عن سؤالي قبل ان تتوجه اليـه بالكلام .

يلتفت الشاويش كممثل السرك الحقيقي ويقول مضطربا :

ـ نعم سيدي .. لقد امرته بالذهاب الى مكتب التسجيـل لترسيم اسمه لكنه ...

وهنا يقاطعه المعتمد صائحا :

ـ ... لكنه دخل الى مكتبي .. اصطبل هنا؟ كل انسان يستطيع

ان يدخل ويخرج مثلما يشاء ، ماذا تفعل انت هنا ؟ ما هو شغلك ؟

ـ لقد أمرته بـ ...

يقاطعه المعتمد من جديد :

ـ ألم يمر من أمام عينيك ، ألم تكن لك عيون تبصر ؟

يقول الشاويش في اضطراب واضح :

ـ لم يمر من أمام عيني ...

ـ اذن لقد مر من خلف عينيك .. والان ماذا تنظر حتى تخرجه من أمامي وتغرب انت الآخر عن وجهي بسرعة ؟

يحاول الشاويش ان يدفع بالرجل الى الخارج . لكن الرجل يمتنع عن الخروج ويحاول ان يستعطف المعتمد قائلا :

ـ أرجوك يا سيدي ، ما دمت قد دخلت ، ان تسمح لي بكلمة صغيرة ، كلمة واحدة لا غير .

ويأخذ الرجلان يتدافعان بكيفية واضحة . الشاويش يدفع بالرجل والرجل يمتنع عن الخروج . ويلاحظ المعتمد ذلك من وراء مكتبه فيحاول ان يحسم الموقف ، ويصيح بالشاويش قائلا :

ـ دعه الآن يتكلم ، ما دمت لا تحسن القيام بواجبك .

ثم يتوجه بالسؤال الى جابر عمار :

ـ هيا تكلم قل هذه الكلمة !

ـ كلمة صغيرة لا غير .

ـ أريد يا سيدي : عملا .

ـ عملا ..

ـ نعم . أنني عاطل يا سيدى ، عن العمل .

ـ عاطل عن العمل ! ...

ـ نعم . ولي زوجة وسبعة أبناء ليس لهم احد غيري .

ـ ما هي صناعتك ؟

ـ ليس لي صناعة .

ـ أقصد ماذا كنت تعمل قبل أن تصبح عاطلا ؟

ـ كنت اعمل بالارض . كنت فلاحا احرث الارض وازرعها واجني الزيتون وأقوم بجميع الاعمال الفلاحية .

ـ ولماذا خرجت من الارض الذي كنت تعمل بها ؟

ـ الزيتون الذي اشتغل به فلعنه التعاضدية .

ـ وهل هو ملكك الخاص ؟

ـ أ أنا مجرد عامل ، يا سيدي . أنا لا أملك شيئا

ـ ولماذا أخرجك صاحب الارض الذي كنت تشتغل عنده ؟

ـ ليس هو الذي أخرجني ، التعاضدية هي التي أخرجتني .

ـ وماذا فعلت حتى أخرجتك ؟

ـ لم أفعل شيئا ، يا سيدي . وانما قالوا لنا : ان الارض تحتاج لكل هؤلاء العمال ، وبما أنه لا بد من تنقيص بعض العمال ، فقد أخرجونا . وقالوا ان اصحاب الارض أحق بالشغل منا

وقال المعتمد :

ـ وماذا حدث بعد ذلك ؟

ـ بعد ذلك طالبهم بالشغل فقالوا لي : اذهب الى السيد المعتمد فستجد عنده الشغل .

ـ أنا عندي شغل ؟..

ـ أرجوك ، يا سيدي ، اقبل يدك ، اعطني عملا . أنا لا أريد أن أضطر الى الاسجداء أو السرقة .

وهنا صاح المعتمد غاضبا :

ـ ما هذه الوقاحة ؟ أصبحت تهددنا بالسرقة ؟ سوف نقطع رأسك قبل أن تفكر في شيء كهذا !

ثم ملتفتا الى الشاويش :

ـ اخرجه من أمامي حالا ، ولا أريد أن أرى وجهه !

يأخذ الشاويش يدفع الرجل الى خارج المكتب ، ويأخذ الرجل يصيح :

ـ اعطوني عملا ولن تروا وجهي أبدا .

ويسأله المعتمد :

ـ كم مضى عليك من الوقت وانت عاطل بغير عمل ؟

ـ مضت عليّ ستة أشهر

ـ هه .. تقول ستة اشهر ، غيرك مضت عليه ست سنوات وهو ينتظر دوره ، ومع ذلك لم يجرؤ على الدخول الى مكتبي ها هنا .

وفي هذه الآونة يكون الشاويش قد دفع بالرجل خارج المكتب ؟ ويكون جابر عمار قد أصبح وراء أسوار المعتمدية ، ومع ذلك يستمر المعتمد يصيح بأعلى صوته الى أن يتشقق صوته وهو يردد :

ـ اخنوه من أمامي ، لا أريد ان ارى وجهه ، لا أريد ان اسمع صوته .. لا أريد ان ارى وجوهكم ولا ان اسمع اصواتكم .

حسن نصر

الثورة الجنسية

تاليف جورج بالوشي هورفات

ترجمة الدكتورة سامية أسعد

يعالج هذا الكتاب احدى المشكلات الهامة التي يواجهها عصرنا اذ يتحدث عن ثورة حقيقية في الاخلاق ، اي عن احلال نظام جديد محل النظام القديم البالي ، فيما يخص العلاقة بين الجنسين قبل الزواج ومدى اباحتها ، وفي اثناء الزواج وما يترتب عليه من اجهاض وطلاق وانجاب الخ .. وتتلخص النتائج التي انتهى اليها المؤلف في ان العالم شهد ثورتين جنسيتين نقلتاه من التزمت الى الاعتدال تارة والى الاباحية والانحلال تارة اخرى ، وفي ان المراة في العالم اجمع بدات تتحول من كائن طالما احتل مرتبة ادنى من الرجل الى كائن حر له مكانته الاجتماعية ، بل له مكانة تفوق مكانة الرجل احيانا ، كما في اميركا حيث المراة متسلطة ..

وقد عالج المؤلف موضوعه بطرق مختلفة ، ففي السويد مثلا اجرى تحقيقا مع الطلاب ، وفي افريقيا طالع « بريد القلوب » وفي فرنسا رجع الى تحقيقات المجلات النسائية المتخصصة التي يقارنها براي الدارسين مثل اندريه موروا وسيمون دو بوفوار ، وفي ريو دي جينيرو شرح بسيكولوجية الذكر في اميركا اللاتينية ، وفي اسبانيا عبّر عن دهشته لنيران الجحيم التي ما تزال تسود روح المراة وحسها . وتحمل له المانيا والولايات المتحدة واليابان وايطاليا والعالم الاسلامي حصادا من الحكايات ذات المغزى ووقائع طريفة من الحياة .

والخلاصة ان هذا الكتاب الذي لا يعالج موضوع الجنس من الناحية البيولوجية يعتبر اول محاولة شاملة لدراسته من الناحية الاجتماعية على الصعيد العالمي ، باسلوب مشوق جذاب ..

صدر حديثا عن دار الآداب — الثمن ٥٠٠ ف.ل

اطار تمهيدي لدراسة

أدب المذكرات في تونس

بقلم محمد مصمولي

١ ـ ادب المذكرات في تونس (*) جزء لا يتجزأ من ادب المذكرات العربية عموما ، بل من أشدها قربا الى المفهوم المعاصر لهذا النمط من التدوين الكتابي الذي انفرد به ادباء الغرب ايما اتقان ، واصبح يتبوأ مكانة ممتازة تهم القارىء والناقد على حد سواء ، استهلاكا جماهيريا ، وسعة رواج ، واثارة لاهتمام نقاد الغرب لما تتيحه لهم من كشوف ، ولما تفتتحه امام نظرائهم الفاحصة من نوافذ في منعطفات التحاليل الادبية والنفسية والاجتماعية ، وتعاريج التأويل النقدي، وعتمات الابهام الفني ... اذ لا يخفى ان الكاتب في لحظة « تحويل الدم الى حبر » ـ وهذه العبارة عبارة (اليوت) ـ يكون كائنا على المسرح ممثلا وجمهورا ، « جريحا وسكينا » ، جلادا ومحكوما عليه ، تداخلا بين افنعة الحقيقة واقنعة الفن . وهذا يعني ان الفن ذاتية في موضوعية حتما ، لان الفنان على درجات متفاوتة من ممارسته لادوات ابداعه ، وبالخصوص بعد تجاوزه لكتابه الاول ، وبعد اتقانه لقوانين اللعبة ، يخلق مسافة وبعدا بين شخوصه وذاته ، مع مزج وصهر للكل في بهلوانية وتجريب ومعاناة ، وفي تناغم بين اصدائه الباطنية واشباح وافنعة ـ ولولا هذه اللحمة والانصهار لما كان « جوته » ، « فاوست » و (ميفيستوفيليس) في الآن الواحد ، ولما كان « فلوبير » (1) ما دام بوفاري و (فلوبر) معا ولما كان مونترلان Henri de Montherlant يرد على النقاد بالنفي حين ذهبوا في تأويل بعض شخصياته الروائية الى ضروب من الوهم لا اساس لها اطلاقا من الصحة . ذلك ان رجال الدين الذين ابدع في تصويرهم هذا الكاتب الفرنسي لا يمثلونه بالضرورة كما توهم بعض النقاد ولان النجاح في رسم ابعادهم لا يعني ان « مونترلان » منشبع بالضرورة بالاحساس الديني ـ والا بماذا نفسر نجاح « مونترلان » في رسمه لنماذج من بني آدم هم على النقيض تماما من رجال الدين ؟

من هنا ، كان هذا الاقبال الى حد التهافت من نقاد الغرب المعاصرين على مذكرات الادباء وتشريحهم بواسطتها لادب الكاتب في حذر وذكاء ، مع تحليل ومقارنات وتحقيق ومراجعات للمسافة والبعد بين الكاتب الانسان في حقيقته اليومية الخالية من جل أقنعة الفن ومقتضيات احوال الابهام الفني وبين الاثر الابداعي في التواءاته ، وتوتره وتعاريجه ومنعطفاته .

والمذكرات من زاوية الاديب ليست دائما شبكة لاصطياد الجمهور ونقاده بطريقه اكثر ذكاء من اقنعة الفن ، وليست دائما تبريرا لسقوط في الخط التصاعدي ، او لاخطاء في الانتماء السياسي او الاجتماعي او الادبي . كما أن المذكرات ليست دائما تصفية حساب مع عصر كامل او جيل من الاجيال ، وانما منها ما يكون بحثا عن الذات وتحليلا لنموها ودراسة صارمة لارهاصاتها وتفاعلها مع العالم الخارجي كما فعل اندرى جيد في بعض « كناشاته » ـ بل قد تكون المذكرات تفاعلا مباشرا مع انتاج الكاتب . فهذا (جيد) في « مذكرات مزيفي النقود » يتحاور مع بعض انتاجه ، وهذا سولس بروديوم يحيل مذكراته الشخصية الى مادة خام لقصائده ،وهذا كيسرلينغ في كتابه « مذكرات رحلة فيلسوف » يقول لنا ان هذه المذكرات تتضمن بذور كافة انتاجه المقبل .

بازاء هذا التنوع الذي لا يكاد يقع تحت حصر في طريقة صياغة المذكرات ، ونظرا لتكيف هذه المذكرات بأمزجة الادباء وبالضغوط الخارجية وبغيرها من عوامل ، لم يقف نقاد الغرب من هذه الاثار المشعبة موقف الحيرة وانما قاموا بعمليات التصنيف والتبويب والتشريح لمادة المذكرات مستخدمين في ذلك كافة ادوات العلوم الحديثة . وبذلك تمكنوا من السيطرة النسبية المتطورة على هذا الفن المتحرر من القيود الفنية بقدر خضوعه لشخصية الفنان في ادق خصائصها المميزة .

فالمذكرات في نظر الدراسات الغربية ليست كل ما يكتب بالضرورة تحت هذا العنوان ، وهي لئن فصلت وأطرت في اصناف ،قد تكون في الآن نفسه مذكرات مختلطة (Journal mixte) شاملة لنوعين فاكثر كما انها ليست دائما وبالضرورة بقلم الاديب وانما قد تتخذ طابع « الشهادة » وتصبح (مذكرات ـ بواسطة) كما هو الحال بالنسبة للشاعر الفردي موسيه الذي كتب عنه شقيقه في الرد على جورج صاند ، او كما هو الحال بالنسبة لفكتور هيغو وتولستوي وقد كتبت عنهما زوجتاهما ، او بالنسبة لشاعر البحيرة (لامرتين)الذي تحدثت عنه امه او بالنسبة للاديب اللبناني جبران خليل جبران الذي كتبت عنه امرأتان من اميركا ، ومذكرات الاولى « بربارة يونغ » ، قد نشرت اما مذكرات الثانية (ماري هاسكل)ـ وهي الاهم ـ فما زالت مخطوطة الى الان ولم يهتم بها الا عربي واحد وهو « توفيق

(*) فصل من كتاب للمؤلف تحت عنوان (ادب المذكرات في تونس).

(1) فلوبير عندما قال : « Madame Bovary C'est moi »

صايـغ » (٢) .

والا .. كيف يمكننا ان نصل مباشرة الى مـا كتبه في زمن ما بين الحربيـن بونس صاحب « جولة بيـن حانات البحر الابيض المتوسط الساعـر والقصاص والكاريكاتوري علي الدوعاجي ، وما كتبه قبلـه الشاعـر والصحفي صاحب (مذكرات المنفى) محمود بيرم التونسي ، وما كتبه قبل هذا الاخير وقبل الذي قبله الشاعر الكبيـر الذي لـم يمض الا ربع قـرن فقط في عالم الناس واعني به ابا القاسم الشابي؟

يقينا ان معرفـه الجزء لا تاتي الا بنظرة سابقـه لهـا على الافق العام لادب المذكرات العربية ككل . هذه المذكرات التي تفرض عليّ شخصيـا لدى التصدي اليهـا صربا من العبوس الاكاديمي الذي قد يتماشى مع طرائـه مقصى الحال الذي لم يهم النقد العربي قط وانما امتده طويـلا وكان نقادنـا المشارقـة والمغاربة قـد استخفوا بمـا لادبنا العربي في باب التراجم الذاتية والمذكرات الشخصيه من كنـوز ولما يبيحـه كشف تلـك الكنوز مـن فرصة الفاء « الضّوء اللامع » علـى ادبنا القديم والحديث وهـو ادب يحتاج الى قراءة حديثه وتحليـل معاصر .. وطبعـا ، المقصود مـن اشارتي الى « الضوء اللامع » ليس كتاب المذكرات الحامل لعنوان « الضوء اللامع » والذي فاخـر فيه الشيخ محمـد عبدالرحمن السخاوي منذ قرون بعدد من مشايخه في فـروع العلم والتعلم وانمـا المقصود هـو أن يتسلح نقادنا العرب بكافـة وسائل البحث العلمـي ليغتلـوا التراث بحثا وتشريحـا وشرحا بعد تنظيفه من غبار الاهمال وقداسـة الارث المحفوظ المعلّب (وقـل التراث بحتـا يعني احياء التـراث) .

ـ ونتيجة لوجود تراث متراكم من تراجم فلسفيه وصوفيه كالتي كتبها محمـد بن زكريا الرازي ، والغزالي والحـــارث المحاسبـي .

ـ ونتيجة لوجود تراث متراكم لتراجم وثائقية كالتي كتبهـا ابن سينا ، وابن رضوان المصري ووصف فيها كل منهما تاريخ حياته وتتلمذه وتفكيره الـخ .

ـ ونتيجة لوجود تراجم ذاتية مال فيهـا اصحابها الى تبريرات لاشياء وقعت او تقط تحول طرات كالتي كتبها السموأل بن يحيى المغربي في اقحام اليهـود ، بعد اعتناقه للاسلام . وكالتي كتبهـا حنين بـن اسحق في تفسير ما اصابه من « اعداء الامتياز » الذيـن اوقعوا بـه وكادوا لـه عند الخليفـة حتى كـاد يسافـر بلا تأشيرة الى العالـم الآخـر ..

ـ ونتيجة لوجود سخافات من المذكرات من نوع ما حفظه لنا ياقوت في « معجم الادباء » تحت عنوان « مشارب التجارب » هذا الكتـاب الذي حاول فيـه الشيخ علي بن يزيد البيهقي (المتوفي سنة ٥٦٥ هـ) ان يثبت لنا فيه نسبه بأبينـا آدم .. وقـد اوهى أمر هذا الشيخ شيخ من عصره وطرازه وهو الشيخ احمد بن علي بن المأمون (المتوفي سنـة ٥٧٦) حين قام بنفس الرحلة « معرجا على المأمون الخليفه فـي طريقه الى آدم » .

ـ ونتيجـة لوجود ما اعتبره الاستاذ عبدالرحمن بدوي : « اسمى صورة للتراجم العربيه » ويعني بهـا تلـك التي ظهرت في القـرن الثامن على يـد لسان الديـن بن الخطيب (المتـوفي سنة ٧٧٦) ومعاصره الاصغـر منه ، عبدالرحمن بن خلدون (المتوفي سنة ٨٠٨) » (في الترجمتين حديث حول النشاط السياسي الـى جانب النشاط العلمي والعقلي) وهذا النوع من المذكرات هو ما اصبح يسمى في الغرب بالمذكرات السياسيه ولكنها في الآن نفسه شاملـة لنوع آخـر مما يجعل منهـا مختلطـه mixte على نحـو ما نجـد عند جوليان غريـــن وسويفـت Swift وغوت Got وغيرهم .

نتيجـه لوجود ما اسلفنـا ذكره من تراث نقابل عنه نقادنـا فـي الشرق والغرب ابتداء من جيل الرواد الى يوم الناس هذا (ونحن نلوم الاخير زمانهم « دون اعفاء رواد نهضته الادبيـه الحاليـه الذيـن مارسوا كتابه المذكرات الشخصيه ولم يمارسوا نقدهـا كمـا فعـل العقاد فـي كتابه (انا) ، واحمـد امين في مذكراتـه (حياتي ، وميخائيل نعيمه في (سبعـون) وغير هؤلاء كطه حسين في كتاب(الايام) الـذي تحدث فيه بصيغـة الغائب عوض صيغـة المتكلم على نحو مـا فعل بعض كتاب فرنسا وقبلهم صاحب كتاب « ذيل الروضتين » ابـو شامة (المتوفـي سنة ٦٦٥ هجريا) .

نتيجـة لذلك كـان على تلـك التراجم العربيـة ان تنظـــر مستشرقـا المانيـا هـو الاستاذ ـ فرنتس روزنتال Franz Rosenthal الذي نفض الغبار عـن التراجم الذاتيـة الاسلاميـة في فصل طويـل له بمجموعة الابحاث الشرقيـه سنـة ١٩٣٩ لخص فيـه اهم التراجم في مرحلة سبعـة قرون ابتداء من القـرن الثالث الهجري وتحدث عـن النماذج التي احتذاهـا المؤلفون في العربية . فقال ان هذه الامثلـة اتت الى العالم الاسلامي من مصدرين الاول يوناني والآخر فارسي. ونحن من خلال « تلخيص التخليص » الذي نفصل بالقيـام به الاستاذ عبـد الرحمـن بدوي في اعتمـاده على النص الالماني للفصل المذكور ، نقـدم اربـع ملحوظـات :

اولا : دراسة « الاستاذ روزنتال » أثبتت للعرب ان لهم مذكرات شخصية هامة يمكـن ان تدرس باعتبارهـا فنـا مستقلا بذاته خـلافـا لما كـان يعتقـده الدارسـون العرب والكلاسيكيون منهم بالخصوص من ان التراجم الذاتيه مجرد هوامش .

ثانيا : العيب الوحيد في هذه الدراسه الفريدة من نوعهـــا والهامة الى اقصى حد انهـا كتبت في سنـة ١٩٣٩ في حين ان دراسة هذا الفـن قـد تطورت حاليـا في اوروبا تطورا مدهشا ولهذا فقـد اصبحت هذه الدراسة قابلة للنقاش على ضوء المفاهيم الاصطلاحيـة الحديثة لادب المذكرات . وهذا يعني أن على العرب ان يترجموا فصل الاستاذ فرنتس روزنتال من الالمانية لاعادة كتابته ولاعادة تصنيف وتبويب التراجم العربيـه والشروع في اعداد « انثولوجيات » معاصرة مـع محاولة ايجاد خط تصاعدي في تطور هذا الفن الى يومنا هذا ..

ثالثا : ما كتبه عبدالرحمن بدوي في كتابه القيم «الموت والعبقرية» عمل هام ولكنه قد تجاوزته الاحداث وذلك لاحكامه الاخلاقية المثالية التي اطلقهـا على هذا النـوع من التدوين الكتابي الذي ينبغي ان تقال فيه الحقيقـة عارية الى اقصى حدود العري ، وان تسقط فيه الاقنعـة والبراقع .. وان ينسى فيه الكاتب المفتيات الفنيـة وجثة الجمهور المعلقـة عادة على قلمه عندمـا يخاطب الناس في قصة او قصيـدة او مسرحيـة بذهنيـة القارىء او بذهنيـة التأثير الفني على القارىء.

رابعا : من خلال الخطوط العامة لدراسـة « الاستاذ روزنتال » والاستنتاجات الشخصية التي استنتجها عبدالرحمن بدوي ، قد نستطيع منذ الان ان نكـوّن فكرة غير نهائيـة حول المذكرات العربيـة من القرن الثالث الى العاشر هجريا فنقول ما يلي :

المذكرات عند العرب قلّ ان كانت تحليلا للذات ولتعقيدات (الذات) كما انها قلّ ان كانت مسألـه بيـن الكاتب ونفسـه اي ضربـا مـن التدوين الذي يقصد منه محاسبه الذات بشكل يلغي فيه تماما فكـرة القارىء او تسير فيه ذات الكاتب في صراحـه عارية سافرة . وهـذا الرأي يصح حتى في مذكرات رجال التصوف ورجال الدين ولعل ابرز مثال لهؤلاء « الغزالي » في الطريقـة التي انهى بها تجربته وهي طريقة شبيهـة كما لاحظ عبدالرحمن بدوي بطريقـة الحارث المحاسبي ولهـا

---

(٢) التعريف بأدب المذكرات في تونس ـ مرحلة ما بين الحربيـن العالميتين ـ هـو في الواقع كالتعريف بأدب المذكرات في لبنان ، او بمصر ، او بسوريا ، او بالجزائر ، او بغيرها ، وحرج من يتصدى الى هذه المبادرة كحرج من يقترف المرور من ارض الى اخرى او من زمـن الى آخـر بدون جسر او سجادة طائرة او بدون خيال المعري ودانتي في وقـت واحـد .

طبعا تبريرها الموضوعي وملابساتها التي لسنا الان بصدد البحث فيها .. ومن جهة اخرى ، كافة المذكرات العربية قد كتبت لغرض ارشادي مثالي ولم تكن وليدة رغبة مجانية او خاصة كشن معركة بين الاحساس بالعجز على تغيير الواقع وبين الطموح الى تحويل القيم الى تجسيم : أو كتأمل في عزيز فقد أو حبيب اختطفته يد المنون (تجربة الخنساء مثلا بعد فقدانها لشقيقها « صخر » قد وجهت قريحة هذه الشاعرة الى الافراط في تحدي حقيقة الموت استحضار الميت بواسطة القصيدة هذه التجربة مثلا قد عاشتها الكاتبة « مانسفيلد » K . Mansfield بواسطة المذكرات بعد فقدانها لاخيها وكذلك قد عاشها الكاتب نوفاليس بعد فقدانه لخطيبته صوفي)

وما قيل عن اللهجة والمضامين والطابع والغايات يمكن ان يقال عن نظرة العرب النقدية طوال العصور الى هذه التراجم الشخصية الفاقدة للوعي باستقلالية هذا الفن عن بقية اغراض الكتابة الاخرى .. فنحن الى يوم الناس هذا ، قلّ ان وجدنا نقادا نظروا الى المذكرات الشخصية وفق مقاييس خاصة وبوصفها (أي المذكرات) فنا خاصا مستقلا عن بقية فنون التدوين .

٥ ـ ادب المذكرات في تونس في « مرحلة ما بين الحربين » كان نقطة تحول مفاجئة في تاريخ التراجم العربية وتمهيدا غير مباشر للتطور الذي اصبح يحياه ادب المذكرات العربية . في كافة اجزاء العالم العربي وبالخصوص في المشرق على ايدي رواد النهضة الادبية امثال طه حسين ، احمد امين ، العقاد ، ميخائيل نعيمة ، توفيق الحكيم . ثم على ايدي اميين نخلة ، الشناوي ، السباعي . وكل هؤلاء دون استثناء قد تفننوا في كتابة المذكرات الشخصية بعد الشابي والدوعاجي وبيرم التونسي هذا الثالوث الادبي التونسي الذي لم يعرف العالم العربي عن مذكراتهم شيئا ، ولم يكتب عنهم شيئا باستثناء تعليقين سريعين بمجلة (الفكر) وذلك بعد تعليق سريع ايضا اثبته الدكتور فريد غازي في كتابه « الرواية والاقصوصة في تونس وهو تعليق مقتضب على مذكرات الفصاص علي الدوعاجي الذي اعتبره الدكتور غازي رائد فن الاقصوصة في العالم العربي اثر مقارنة بين تكنيك « عين الكاميرا » الذي استعمله هذا القصاص في مرحلة « ما بين الحربين » والنزعة الاخلاقية الموجودة في الاقصوصة العربية عموما في تلك المرحلة .. كذلك يرى الدكتور ان الدوعاجي يمكن تشبيهه من بعض الوجوه بجون دوس باسوس وبجاك لوندن و« جيروم » .

وهذا الصمت الذي قوبلت به المذكرات التونسية والشرقية لئن كان من السهل تفسيره بما أسلفنا ذكره من استخفاف النقاد العرب عموما بفن ادب المذكرات فان المسالة بالنسبة لمجهولية ادب المذكرات التونسية لدى التونسيين انفسهم يمكن تفسيرها باضافة عناصر اخرى اهمها اوضاع النشر والتوزيع ، ثم وبالخصوص مسالة الاهتمام بالشابي بوصفه شاعرا والتغافل عن بقية جوانبه التي نعتبرها نحن من الاهمية بمكان . ذلك ان الشابي الذي جدد في الشعر قد كان في نظرنا ومن الزاوية التاريخية مؤلف احد الكتب النقدية الاربعة التي مهدت لتطور الادب العربي المعاصر ونعني بها كتاب « في الشعر الجاهلي » لطه حسين ، كتاب « حصاد الهشيم » للعقاد والمازني ، كتاب « الغربال » لميخائيل نعيمة وكتاب « الخيال الشعري عند العرب » للشابي ولا ينبغي ان ننسى ان هذا الكتاب الاخير قد صدر سنة ١٩٢٩ وكان مؤلفه في ربيعه او خريفه العشرين فقط . ومع ذلك فقد كان محاولة من أكبر محاولات النقد العربي « الطليعي » في ذلك العهد .

بخصوص الدوعاجي وبيرم فان التونسيين وغير التونسيين لم يدرسوا مذكرات هذين الاديبين بسبب « تأطير » الاهتمام وصبه في الناحية القصصية بالنسبة للاول وفي الناحية الصحفية بالنسبة للثاني مع التغافل او نسيان جوانب اخرى لهما . وبالمناسبة لا سبيل لحصر ما أهمله النقاد التونسيون وغير التونسيين من جوانب جد هامة في ادبنا التونسي قديما وحديثا لان مجال ذلك ليس مجال هذا البحث ..

والان كيف كانت المذكرات التونسية نقطة تحول مفاجئة في تاريخ ادب المذكرات عند العرب ؟

للاجابة يمكن ان نقول ما يلي : التراجم الذاتية كانت على اختلاف أنواعها كتابة الغاية منها تنحصر في نقطتين وهما اما لتبرير أحداث سياسية أو علمية عاشها المؤلف او الارشاد الديني او الاخلاقي أو الثقافي بواسطة تجربة عمر في العلم او في التأمل الديني كما فعل ابن سينا والغزالي وغيرهما ..

ثم خلافا لذلك نقرأ أولى المحاولات الجديدة التي قام بها كتاب النصف الاول من هذا القرن فنجد في مقدمتها وابتداء من فترة «ما بين الحربين» ثلاثة أدباء تونسيين يكتبون ثلاثة أنماط من المذكرات على غاية من المعاصرة والجدة ووفق مفاهيم مغايرة تماما للتراث ، وهي نفس المفاهيم تقريبا لتلك التي وجدها قراء العربية فيما بعد حين بدأ رواد النهضة صياغة مذكراتهم على نحو ما فعله طه حسين وأحمد أمين والعقاد وتوفيق الحكيم وميخائيل نعيمة وغيرهم ...

فهذا الشابي منذ فراغه من القاء جام تمرده النقدي في كتابه « الخيال الشعري عند العرب » يأخذ القرطاس والقلم ، ويجلس في سكون الليل ليفكر ويستعرض « رسوم الحياة الخالية التي تناثرت في شريط » « لياليه وايامه فينظر » الى غيابات ماضية ، ويحدق بظلمات الابد الغامض الرهيب .

واذا بالمذكرات العربية ابتداء من «الشابي» تأخذ منعرجا جديدا، فاذا « بالجانب الشخصي » الذي كان غائبا في كافة التراجم الذاتية العربية يصبح « بيت القصيد » واذا بالمذكرات تصبح تحليلا للذات في نبضها الساخن وفي ارتعاشها امام الحياة والموت ، وفي لحظات « تشوفها الى الصباح الجديد » وفي لحظات انسحاقها أمام «سوقية» الرتابة اليومية الخالية من المعنى وامام المنطق « الافقي » اللامنطقي لتسلسل الاحداث العادية .

« والشابي » عندما حوّل المذكرات العربية الى تحليل الذات، قد أحدث ثورة كبرى في هذا الفن العريق الذي هو « المذكرات » لان هذا الفن كان ـ كما رأينا ـ تلخيصيا خشنا تختنق فيه الذات أمام الاستعراض التراكمي لانجازاتها « الايجابية » الهادفة التي كان يقصد بها المؤلف العربي القديم التفاخر بمشايخه أو بتخطيه للعراقيل او يفتخر بحصاد مطالعاته وتآليفه ، فهذا الفيلسوف محمد بن زكريا الرازي يدفع عن نفسه تهمة وجهها اليه خصومه والمتمثلة في ابتعاده عن مثله الاعلى «سقراط» . وهذا ابن الهيثم لم يكتب مذكراته الا ليحدثنا في « مقالة له فيما صنعه وصنفه من علوم الاوائل » وهذا حنين ابن الاسحق ما كان ليتحدث عن « المحن والمصائب » التي أصيب بها الا ليكشف عن مكائد حساده ، وهذا « المحاسبي » لم يترك للناس « نصائحه » الا ليريهم كيف انتهى الى الايمان ، وهذا الغزالي يقتفي أثر الحارث المحاسبي فيحدثنا عن تجربته التي انتهت الى « نور قذفه الله في قلبه » ، وهذا ابن سينا يرسم لنا تاريخ حياته مع تركيز أكثر على الناحية العلمية من ذلك التاريخ ، وهذا ابن رضوان المصري يقوم بنفس العملية ويصل الى نفس النتيجة .. وهلمّ جرا ، الى ابن خلدون والى ما بعد ابن خلدون ..

كل هذا لم تعد تجد له اثرا في سنة ١٩٣٠ تحت قلم الشابي الذي لم يكتب لينصح ، أو ليبرر ، أو ليكون مثالا يحتذى ، او يقتفى اثره ، وانما ليصغي الى ذاته « في سكون الليل » واضعا مسافة بينه وبينها ، راسما على الورق ردود فعله اليومية بازاء الحياة والاحياء ، فاحصا « لاناه » ولجراحاتها مراقبا للخط التصاعدي في نموها ، وعبورها الكوني وفي مدها وجزرها وسذاجتها وتفلسفها وصراعها واستسلامها ..

السنا مع « الشابي » ومنذ مرحلة ما بين الحربين العالميتين وجها لوجه وربما لاول مرة في تاريخ التراجم الذاتية العربية مع ادق وأوضح المفاهيم المعاصرة للمذكرات الشخصية التي تعرف في الغرب باسم ـ Journal intime ـ أي هذا النسق من التدوين الذاتي « المحدد » بزمان ومكان ، والذي يمارسه صاحبه يوم بيوم ، أو ساعة بساعة ، أو على الاقل بشيء من الانتظام المستمر .. والا فأي معنى لليوميات ان لم تكن خاضعة لهذا الترتيب الزمني ؟ ثم أي معنى لليوميات الشخصية ان لم تكن سبرا وتحليلا لردود الفعل الذاتية أمام الحياة ؟

والمتتبع المتأمل الفاحص لاحداث الدراسات المعاصرة قد لا يجد اهم ولا أصدق من هذا التعريف الذي ضبطه « اميال » . (Amiel)

« Ne faut-il pas que toute la vie subjective , plus immédiatement Saisie dans sa conscience que racontée dans ses acles , rentre dans le Journal »

تأكيد كهذا على ضرورة رسم اختلاجات الحياة الباطنية في اليوميات قد وضع الحد الفاصل بين اليوميات الشخصية وبين ما يوضع عادة تحت هذا العنوان من تراجم وسير واعترافات ..

ونحن أن أردنا أن نلتمس خطاتصاعديا فيما كتب ابتداء من مرحلة الشابي من طرف علي الدوعاجي في « جولته بين حانات البحر الابيض المتوسط » ومن طرف بيرم التونسي في « مذكرات المنفى » الى ما كتب فيما بعد من طرف أمين نخلة وطه حسين والعقاد والحكيم ونعيمة وأحمد أمين ويوسف السباعي وكامل الشناوي وغيرهم لامكن ان نلاحظ ما يلي :

ـ أولا : المذكرات العربية المكتوبة بعد الشابي والدوعاجي وبيرم قد تطورت تطورا ملحوظا دون ان تفقد في جلها الفكرة القديمة للتراجم العربية التي كانت تصاغ في أخريات حياة المؤلف دفعة واحدة لا يوما بعد يوم ، وبشكل مباشر على نحو ما فعل الشابي . لهذا يمكن القول بأن التطور الذي نعنيه بعد الشابي في المذكرات العربية كان يتمثل في التركيز على ذلك المؤلف لا على الوعي الكامل باستقلالية فن المذكرات من حيث هي تدوين تدريجي منتظم لاحداث يومية معاشة ضمن أطر معينة ، فهذا الدوعاجي يكتب عن الرحلة بعد الرحلة ويتحدث عن نفسه وعن الناس بشكل لم يعرف من ذي قبل عند الرحالين العرب كابن جبير أو النيجاني أو ابن بطوطة ـ كذلك بيرم التونسي في « مذكرات المنفى » يرسم بدقة وضعيته في المنفى ويقدم أروع لوحات الالم الانساني ، ولكن بعد مرور الازمة وبشكل يتسم بالروح القصصية الاصيلة ..

وكذلك طه حسين يتكلم بصيغة الغائب ويكتب مذكراته على الطريقة المعروفة في التراجم العربية لكن مع التركيز على الذات بشكل لم تعرفه التراجم العربية في اقتصارها على تسجيل انجازات الخارجية للذات ..

ثم احمد امين ، والعقاد ، وجل من كتب المذكرات وابدع في كتابتها وما قيل عن طه حسين يقال عن هؤلاء .

ثانيا : ثورة كبيرة على صعيد الاشكال قد طرأت على أدب المذكرات بعد الشابي والدوعاجي وبيرم . وأعني بها هذا النمط الجديد الذي خلقه أمين نخلة في « المفكرة الريفية » وكان فيه نسيج وحده ثم ما فاجأنا به يوسف السباعي في كتابه « من حياتي » وأخيرا هذه الطرافة في الشكل والمضمون التي خلقها كامل الشناوي بهذا الثالوث من أدباء الشرق وكذلك بصاحب « مذكرات دجاجة » ايضا ، قد تحققت ثورة كبرى على صعيد المبادرات التي ظلت مبادرات الى يوم الناس هذا في مجال تفجير الهياكل القديمة التي كانت تصاغ فيها التراجم العربية .

والمتأمل في ثورة الاشكال التي ابتدعها هؤلاء الادباء يحس بأن كافة الاعذار التي يقدمها النقد العربي المعاصر تبريرا لصمته هي مجرد أعذار فقط ذلك اننا مع أمين نخلة في « المفكرة الريفية » نقف للمرة الاولى امام مذكرات في شكل قصائد منثورة على نحو ما نعرفه عند « فرنسيس بونج » (Francis Ponge) في كتابه Leparh - pu'ses choses من جهة وعلى نحو الكمات الجامعة التي كتبها الفريد دي فينيي A . devighy في مذكراته وبول فاليري Paul Valery وغيرهما ..

وقد يبدو هذا المنحى غريبا من أمين نخلة بالذات الشاعر الكلاسيكي الذي لم يأتي بجديد في قصائده المنظومة الموزونة المقفاة ..

وما قيل عن نخلة ، يمكن ان يقال عن كامل الشناوي الذي لم يخرج عن اهابه حين سجل مذكراته تحت عنوان « ساعات » وهي مذكرات خالية من أطار الزمان والمكان ، وقصائد متحررة من الوزن والقافية ، مع تركيز على حبيبة أحبها الشاعر وجعل من كل «ساعاته» نافذة بطل منها عليها .. دون اشارة الى اسمها وكأنه كان يراها ويرى كل العالم من خلال غيمة شفافة .

ومع يوسف السباعي ، نجد أفقا آخر ينفتح فجأة في المذكرات ، هذا الافق هو المقالة الفكهة الباسمة المكتوبة بقلم قصاص ذكي لا يريد ان يتجهم كالشابي ، أو يتكلم بجدية أحمد أمين ورصانته . وانما يريد ان ينظر الى حياته وطفولته وشبابه من خلال نكتة قد تذكرك بروح المازني وبروح على الدوعاجي . ولكنها نكتة اخذت شكلا صحفيا مقاليا خفيفا .

أما صاحب « مذكرات دجاجة » فهو في مذكراته المفعمة بالنقد الاجتماعي والسياسي يتخلى عن الشعر والمقالة والتجهم معا ويعيد الى أذهاننا جو « كليلة ودمنة » لكن في شكل مذكرات طريفة الى أقصى حد ..

محمد مصمولي

● بعض مراجع :

ـ « العبقرية والموت » تأليف عبد الرحمن بدوي

ـ « مذكرات المنفى » تأليف محمود بيرم التونسي (الشركة التونسية للنشر والتوزيع) .

ـ « جولة بين حانات البحر الابيض المتوسط » تأليف علي الدوعاجي .

ـ « مذكرات » تأليف : أبو القاسم الشابي (الدار التونسية للنشر) .

ـ مجلة (الفكر) ـ التونسية ـ .

ـ مراجع أخرى .

- Le Roman et La nouvelle en Tunisie
Ferid Ghazi (M.T.E)
- Les Journaux intimes - par Miehéle Leleu
(Presses universitaires de France)
- Alfred de vigny (Journal d'un poete) Bordas , 1949
- Henri de Montherlant (Carnets) Laffont .. 1947
- Journal des Faux - Monnayeurs (Gallimard)
- Henri - Frédéric Amiel (Journal intime
- Henri de Montherlant (Carnets) Laffont ..

رحلة الضياع

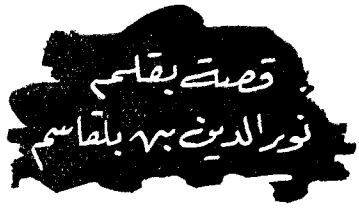

الاهداء :

الى الذين يتعذبون في أقطار الارض فينهكهم الظلم وتعصف بهم الانانية .

والى الذين يزعمون بناء الحضارة الحديثة باليمين ، ولكنهم يهدمونها بالشمال من حيث لا يشعرون .

غابة البؤس :

بكت زوجة « آرم سترونق » لما عرفت اننا قد أخطأنا ، وان المركبة التي نقلنا قد تاهت ، ونزلت على كوكب مجهول .

التفتت الينا وعلى وجهها آثار الدموع قائلة :

ـ لقد انقضى الامر . وكتب علينا الضياع .

ونظرت الى اسفل والدموع تتساقط من عينيها . فأمسك « آرم » يديها برفق ، فرفعت رأسها ببطء كالعائد من رحلة مضنية، وارتمت على ذراعي « آرم » كالطفل نجهش بالبكاء .

انحنى عليها « آرم » وقبل جبينها برفق ، فقالت له منتهدة :

ـ ان أرضنا الحبيبة يا « آرم » قد انقطعنا عنها . ولن نشاهد البحر من جديد ، ولا نتسلى برؤية الاطفال ، أو نمتع أنظارنا بالرعيان وهم عائدون من الحقول . هنا يا « آرم » لا أغنية فلاح تأتينا ، ولا أغرودة عصفور ... ان كل ما في هذا العالم يملأني حزنا.

وامتلأت عيناها دموعا من جديد ... فرفع « آرم » رأسه يسألني عن أي الطرق نسلك ... لم أكلمه بوضوح ، بل نظرت الى الطريق الممتد امامنا ، وسرت أمامهما سيرة الضائع ... الطريق الذي نسير فيه مغشى بالضباب الكثيف الازرق ، وعلى جانبيه أشواك طويلة مدببة ممتدة تجاهنا كأنياب الافاعي ، وأرضيته مغطاة بتربة حمراء كأنها ممزوجة بالدماء ... نحن مرغمون على ان ننظر تحت اقدامنا ونحن نسير اذ لم نستطع النظر الى بعيد ، لان الخوف ينهش قلوبنا . وازداد خوفنا عندما سمعنا أصواتا غريبة ومتنوعة تبلغ آذاننا من بعيد ، بعضها يشبه مواء القطط ، وبعضها عواء الذئاب ، وبعضها الآخر حشرجة المذبوحين .

ولما سرنا طويلا تباعدت الاصوات ، ولم يبق الا أنين غريب يبلغ آذاننا ، وينقلب أحيانا الى ما يشبه البكاء ...

بدأ الضباب الكثيف يتجلى فظهرت لنا من خلاله هوّة عميقة تمتد على جانبي الطريق ، وبدت لنا أشجار عارية تطل من قاع الهوّة في كبرياء . تطلعنا اليها عسانا نجد ثمرا لنأكل، وقد أحسسنا بأصابع الجوع تعصر أمعاءنا ، ولفحتنا رائحة كريهة عندما كنا نطل على رؤوس الاشجار النامية في قعر الهوّة ... وتعلقت أبصارنا بشجرة قريبة من الطريق جرداء كالاخريات من الاوراق فيها ما يشبه الاكر المعلقة . لم نستطع ان نتبين جيدا ما اذا كان ذلك المعلق نوعا من الثمار أم أنه شيء آخر ، لان الضباب ما زال يغشي ما بيننا وبينها من مسافة ... اقتربنا من الشجرة بدافع البحث عن الاكل ، ودرنا حولها نحلم بالشبع من ذلك الثمر الضخم ، ورفعنا انظارنا الى أعوادها فرأينا رؤوسا آدمية مقطوعة من الرقاب تتدلى السنتها ، وهي معلقة في الاعواد . والموت يطل من وراء الاسنان ليحيينا بابتسامة موحشة ... امتدت الالسنة وطالت عندما وقفنا تحت الشجرة ، وتدلت تجاهنا كأنها تريد أن تلعقنا ...

لم نستطع ان نفعل شيئا لما دبّ الجمود في أعصابنا ، فبقينا نعرض النظر لبعضنا بعضا .. وحركنا صوت قوي مدوّ وصيحة عالية تشبه الانذار فافاقت عند ذلك زوجة « آرم » من دهشتها وانهلت عيناها الجميلتان دموعا . وحثثنا على الرجوع الى الطريق...

حاولنا أن نتخطى الاشواك المتشابكة بحذر ، ولكنها كانت تخزنا كابر العقارب عندما كنا راجعين الى الطريق من جديد ... أما الاشجار الاخرى فقد بانت تطالعنا في كبرياء ، وقد علق في كل واحدة أطنان من الرؤوس الآدمية المقطوعة .

لم تكف زوجة « آرم » عن البكاء حتى في الطريق ... كانت تبكي حتى أبكتنا معها ، ذاكرة الانسانية والعالم والمصير في غدغمة البكاء ... فزاد ذلك من غربتنا ، وضخمها ما رأيناه من تبدل الاشياء وتغير سحنة العالم ، وخوفنا من مفاجآت الاحداث ...

لما تجلى الضباب لاح لنا في الطريق جمع من الناس غفير ، ذو وجوه غريبة تحاكي وجوه سكان القبور .

اعترضوا طريقنا وهم يسيرون بالدوي ، ويتحدثون بالصياح . وبافترابهم منا كثرت اشاراتهم وهمهماتهم والتفاتاتهم ، وكلمونا بكلام لم نفهم له معنى ... ولحق بالجمع شيخ يجري على قدميه ، ولما اقترب منا وتبين ثلاثتنا ، نظر في وجوهنا نظرة المتأمل الفاحص وخاطبنا متعجبا بكلام أرضي :

ـ غريب أن أراكم في هذا المكان !

قلنا له :

ـ لقد ضعنا وابتعدنا عن أمنا الارض .

قال وهو يداري ابتسامة :

ـ لقد كنت مثلكم أحب الارض فعمرت فيها طويلا ولم أعرف منها شيئا . وفي آخر الرحلة وصلت الى هذا المكان فاكتشفت سرّ الارض ...

ثم أضاف يسألنا :

ـ هل حملتكم « جمال القدرة »(1) الى هذا المكان ؟

أجابه « آرم »

ـ لقد تاهت مركبتنا ونزلت على هذا الكوكب .

فتمتم متعجبا :

ـ مركبة .. هل هذا نوع جديد من « جمال القدرة » ؟

---

1 ـ تقول الاسطورة الشعبية المنتشرة في ريف « هبيرة » ان « جمال القدرة » هي عبارة عن نوع من الملائكة تحمل المظلومين والخيرين من كافة أنحاء الارض الى مكة ليدفنوا أو يحيوا هناك . ولكنني في القصة قلبت واقع الاسطورة ، فجعلت « جمال القدرة » تحمل الناس اختلافهم من الارض الى العالم الذي ضاع فيه نايل آرم سترونق عندما تاهت به المركبة ، والذي هو عبارة عن مرآة للارض .

قلت له في حماس :

ـ اننا صرنا أقوياء في الارض . وانت ترى أننا أتينا الى هذا المكان ، واننا صنعنا « جمال القدرة » بانفسنا .

ابتسم الشيخ كالساخر وقال :

ـ لقد جلبتكم المصادفة الى هذا المكان الذي هو مرآة الارض... وسترون حقائقنا الارضية في هذا العالم عارية من الزيف ...

صمت الشيخ وحانت منه التفاتة الى زوجة « آرم » ، فرأى على عينيها اثار الدموع ، فسألنا عن سبب بكائها .. فأخبره « آرم » عن الرؤوس المقطوعة المعلقة في الاشجار وعن الهوّة السحيقة التي تحف بالطريق .

قال الشيخ ببطء واشفاق :

ـ هل دخلتم غابة البؤس ؟

قلنا لم مستفسرين :

ـ وما غابة البؤس ؟

قال بحزن :

ـ هي تلك التي يوجد على أشجارها رؤوس معلقة .

قلنا له :

ـ لقد دخلناها لنبحث عن طعام .

قال ، وهو يداري حزنا عميقا :

ـ أنتم أول من دخل « غابة البؤس » وخرج آمنا على نفسه .

سألته زوجة « آرم » عن الرؤوس المقطوعة في ارتجاف :

ـ لماذا علقت الرؤوس بين الارض والفضاء ؟؟

قال الشيخ :

ـ كلما قطعتم رؤوسا آدمية في الارض ظلما الا وحملتها «جمال القدرة» من بينكم الى هنا . حتى تعلق في غابة البؤس .

أردفت زوجة « آرم » :

ـ ولكن مأساة كبرى أطلت عليّ لما رأيتها .

قال الشيخ :

ـ المأساة الكبرى تطل على العالم كلما فتكتم بالابرياء .

قالت له في استفهام :

ـ ولكن خير لتلك الرؤوس ان تقبر من أن تظل معلقة في الفضاء.

عقب الشيخ على كلامها قائلا :

ـ كل رأس من الرؤوس المقطوعة يبقى على عوده ، ليستنزل اللعنة على قاطعه .

ـ اضافت في لجاجه :

ـ وكيف تحمل الى هنا ؟

قال الشيخ :

ـ كما حملت أنا وحمل الكثيرون بواسطة « جمال القدرة » الحمّالة للخيرين والمظلومين والمحبين المخلصين ، والظالمين الشررة ليأخذ كل ذي حق حقه منهم .

وصمتنا ، والسكون يلفنا .

العالم الذي نحن فيه هو عالم الاقذية القاتلة ، ونفوسنا الملأى بالمخاوف ستبقى على الدوام وقودا لحمى القلق النامية في مستنقعات المآسي ... أطراقة الشيخ الحزينة تحمل هموم الف عام وعام . نظر الشيخ في وجوهنا لما رآنا نتطلع الى اخر الطريق ،وسار معنا ، وهو يحدثنا بلهجة ارضية .

قال :

انكم لن تستطيعوا فهم ما يقوله سكان هذا العالم ، لانكم غرباء. وأخشى أن تموتوا خوفا أو أذى اذا لم أرشدكم الى ما تفعلون .

قلت في اندفاع الماسك بخيط امل :

ـ ألك ما تشير به علينا ، يا شيخ ؟

تكلم بهدوء مشيرا بيده الى الامام :

ـ عندما تصلون نهاية هذا الطريق ستجدون نهرا كبيرا يسلك بين جبلين يدعى « نهر الغرباء » ، تطهروا بمائه ، فستعرفون بعد ذلك كل شيء عن هذا العالم ، وبامكانكم ـ بعد التطهر ـ أن تعرفوا أنفسكم وتعرفوا حيانكم ومصيركم .

قال « آرم » في استغراب :

ـ ولكن ما شأن النهر وهذا ؟

أجابه الشيخ :

ـ ذلك سر ليس من المروءة ان افوله ، وقد اؤتمنت على حفظه .

ثم تكلمت زوجة « آرم » ، وقد بدا عليها العياء :

ـ ان الطريق ، يا شيخ ، يزيد تعبنا ، وقد تعبنا من قبل ، وتكدس على أقدامنا غبار ملايين السنين .

ضرب الشيخ ناصيته كمن تذكر شيئا وأشار علينا باتباعه . حاد قليلا عن الطريق ، وقصد شجرة بدت عليها أوراق كثيرة حمراء ، وقف بقربها ، وأشار اليها متحدثا :

ـ هذه « شجرة القوة » كلوا من أوراقها فسيزول عنكم التعب، وتستطيعون التنقل بأقدام أرسخ من الجبال ، لانكم ستمسكون ناصية الالفة ... وتخضعون حتى الابالسة عندما تتقنون لغة القوة .... كلوا من هذه الاوراق ... كلوا منها ... ولكن ليكن أكلكم هذا بعد النطهر في نهر الغرباء ...

نط « آرم » وقد اخذته نشوة الفرح كالطفل ، وقال ، وفي عينيه أطنان من الامل الغريب :

ـ اذن سأزيل طوايا بطني بالاكل منها ، لانني اكره الضعف كرهي للشيطان، ولانني أرغب في القوة رغبتي في الحب والحرية ..

قال الشيخ محذرا :

ـ اياك ان تأكل اكثر من عشرة اوراق ، لان القوة يسقبها الغرور وتنميها الخيلاء ... وهي تفاعل التيار المتعارض ... انك ستأكل ذاتك بذاتك اذا زدت على اللازم ... وأخشى ان تهلك رفاقك في الطريق ... بصر المرأة الجميلة الضائع فيما حولنا يثير في النفس الشجون ، وعدم سماعها لما تحدث به الشيخ يرمز لضياعها في هذا العالم ...

جمعت من « شجرة القوة » عشر اوراق ، وجمع « آرم » عشرين ورقة ، وعدنا الى الطريق نساير الشيخ الصامت الناظر تارة الى الامام ، وطورا الى الهاوية السحيقة التي تحفنا ... وعلى لحيته الطويلة الواصلة الى اسفل صدره بياض الثلوج ، وفي أعلى رأسه صلعة قد انعكس عليها نور احمر يدفع به نجم من النجوم . وفي قصر قامته وحدة نظراته جاذبية خفية تزيد منها أثوابه البيضاء التي لم نر مثلها من قبل ... رفع رأسه بعد صمت استغرق مسافة قائلا :

ـ عليكم ان تصلوا الى النهر قبل وقت الغروب ، لانكم ستسحقون بالجموع الآتية الى النهر في مثل هذا الوقت ، تطهروا قبلكم وستمسكون شغاف قلوبهم .

سألت الشيخ عن المدينة وعن وقت الوصول اليها فأجاب :

ـ المدينة بعيدة . وستصلونها في نهاية الرحلة .

فقالت له زوجة « آرم » ::

ـ أين سننام هذه الليلة ؟

ـ قال :

ـ في الخلاء .

انحنت امامه رافعة نحوه يدها الصغيرتين وهي تخاطبه في استعطاف :

ـ ألا تستطيع مرافقتنا ، يا شيخ .. لاننا بدونك سنضيع ، ولا نعرف الطريق .

قال لها :

ـ اليوم لا يمكنني أن أرافقكم ، لانني ذاهب الى حفلة عزاء . ولكن في صباح الغد سألاقيكم على ضفة نهر الغرباء قبل ظهور النور .

ثم ودعنا واتخذ طريقا آخر يحاذي غابة البؤس ، وغاب عن أنظارنا بين الاغوار .

الصمت يلفنا ونحن نسير ، والهوة التي تحف جانبي الطريق ما زالت تحاذينا .

تقدم « آرم » الى حافة الطريق ليحدق في اعماق الهوة . نظر في أعماقها والتفت الينا وقد تغير وجهه ، ثم نظر ثانية وأشار علينا « ان تقدموا » فخطونا نحوه ونظرنا الى حيث ينظر ، فرأينا في أعماق الهوة هياكل عظمية بيضاء مكدسة ، وجماجم كثيرة متناثرة . وفوق العظام تزحف أفاع كبيرة فتبتلع العظام بيسر . ولما رأتنا ننظر الى أسفل أحدثت أصواتا ليست بالزعيق ولا بالفحيح وانما هي اصوات موحشة أثارت في قلوبنا الخوف ، وزادت في شعورنا بالغربة .

حاولت الزواحف ان تتسلق الينا ، ولكنها لم تستطيع فتزحلقت الى أسفل وارتطمت أجسامها بالجماجم والعظام فأحدثت قرقعا تشبه خبط الطبول ...

أشار علينا « آرم » بالمسير ، وهو ما يزال يحدق في الهوة . والتفت فرأى المرأة الجميلة قد تغير لون وجهها الوردي الى صفرة ورآها تتهاوى على الطريق ، فأسرع اليها وأسرعت معه فوجدناها قد اغمي عليها . لم تستطع هذه المرأة الجميلة ان تتحمل اعباء سفرة طويلة مع المخاوف التي تعترضنا في رحلة الضياع .. حاولنا علاجها بأن يضع « آرم » ورقة من أوراق « شجرة القوة » وقطر ماءها في فمها الصغير .. وبعد لحظة فتحت عينيها الجميلتين فوجدت نفسها بين أيدينا . ابتسمت من وراء شفتين صغيرتين قرمزيتين ابتسامة الرضا المشوبة بوهن قديم ... ثم قامت وسارت معنا ببطء . ولكنها لم تمش طويلا حتى عجزت عن المسير ..

قال لها « آرم » في حنان :

ـ هيا اصعدي على كتفي .

وتربعت بتودة على هامته . وسرنا على مهل ونشيد الحزن يتردد في أعماقنا .

لم يبق بيننا وبين النهر الا مسافة وجيزة عندما بدأت رفيقتنا تتألم من الاعياء الذي أصابها ..

تحدثت في شبه هذيان عن رحلة طويلة بدأتها منذ الازل فلاقت فيها مشقة وصعوبة ، وضروبا من الامتحانات كثيرة . وسقطت أثناءها كثيرا على الطريق ...

ثم تحركت مرافقتنا فوق ظهر « آرم » وألقت رأسها الجميل على احدى كتفيه فتهدل شعرها الناعم على صدره . ثم قالت مأخوذة بشبه حمى :

ـ رغم رحلتي الطويلة التي تمرغت فيها كثيرا على الطين استطعت ان أبقى شابة محافظة على فتوتي ، وتمكنت من أن أتزوج « آرم » فأبلغ معه قمة مجدي مما أنساني أتعابي القديمة .

وانهلت دموعها على صدره متتابعة .. دموع اختلط فيها الفرح بالذكريات القديمة المؤلمة ..

ثم أضافت هاذية :

ـ لقد كان لي أبناء كثيرون أكل بعضهم بعضا ، وتطاحنوا وتدارسوا والفجر لما يظهر بعد ..

أطبقت أهدابها السوداء وسكتت ، فنظرت الى « آرم » مستغربا من هذيانها فلم يلتفت الي ، بل رأيته يفتش عن مواضع أقدامه في الطريق ، حتى لا يعثر في حفرة او حجرة ناتئة فتسقط محبوبته من فوق ظهره .

ملامح « آرم » تنم على عزيمة قوية يطوف عليها طائف من ألم دفين .. لقد انبثق النور في قلبه وعليه ان يبلغ الغاية والا فليمت دونها شهيدا .

وصلنا نهر الغرباء قبل المغيب . فوجدنا النهر عظيما ينحدر بين جبلين مقوسين كحاجب الحسناء . وينبع من جبل ثالث ماء يبعد عن الآخرين قليلا .

قال لي « آرم » :

ـ علينا بالوقوف على المنبع قبل التطهر في مياه النهر .

سرنا حيث يخرج الماء فلاحت لنا عين كبيرة في سفح الجبل . لم تكن كالعيون التي ألفناها . بل كانت عين آدمية كبيرة ملتصقة في جنب الجبل ترشح دموعا باستمرار ، وقد جذبتنا بأهدابها السوداء ولونها الازرق المشوب بخضرة . ودموعها المنهمرة تتساقط في مصب النهر فتزيد في هيجانه ، وزادتنا شعورا بالمأساة عندما رأينا دموعها تتكاثر باستمرار ونحن نحدق فيها .

أشار « آرم » بأن نذهب الى مكان على ضفة نهر الغرباء تبدو فيه آثار اقدام . ثم قال لنا ، ونحن نبتعد عن العين :

ـ هيا نتطهر قبل الظلام .

قلت في لوعة :

ـ أبالدموع ؟؟

قال :

ـ ليكن ذلك اذا استطعنا بالتطهر فهم العالم وحب من فيه .

لما وصلنا المكان المقصود ، أنزل « آرم » المرأة الجميلة من فوق ظهره ، وأخذ ورقة أخرى من « شجرة القوة » وأطعمها اياها ، فانتعشت قليلا ، وذهب عنها الدوار . ثم غرف « آرم » حفنة من مياه النهر ومسح بها وجهها الوردي ، فزالت عنها صفرة خفيفة تشوب بشرتها الصافية ، ولكنها بدأت تبكي لغير سبب .. انحنى عليها « آرم » بحنان وقبل جبينها ، فرفعت نحوه عينين ناعستين ، ونظرت الى مياه النهر كأنها تلومه على اتيانه اليه . ثم تكلمت بعد صمت :

ـ ان العيون كثيرة ، يا « آرم » في هذا العالم ، وجميعها يبكي على الدوام ، فكيف لي ان أشربها وان اغتسل بها وأنا اكره الدموع ؟

ربت آرم على كتفيها باشفاق ونظر الى بعيد كمن يستشف شيئا مجهولا ، ثم نزع ثيابه وبدأ يتطهر . ففعلت مثله ..

قبل الظلام سمعنا أصواتا مفهومة ووقع اقدام ثقيلة آتية من وراء الجبل ، فأسرعنا الى الابتعاد عن شاطيء النهر كما أشار علينا الشيخ بذلك . وسرنا ونحن نلوك أوراقا من « شجرة القوة » فشعرنا بنشاط لا حد له .. . ولكننا دخلنا في الخلاء وقد بدأ الظلام يلفنا ، وأحسسنا بارهاق بعد مسيرة دامت قرونا ، فدرنا وراء مصب النهر فلاحت لنا من بعيد بناءات دائرية تشبه الاسوار، تجلت لنا تحت بقايا نور خافت ، فحثثنا الخطى نحوها لنبحث عن مكان للراحة .

مقابر العهد الجديد :

وصلنا البناءات الدائرية فوجدنا أسوارا عالية متباعدة في ذلك الخلاء .

درنا حول سور واسع فعثرنا من الناحية الشرقية على باب واحد صغير كتب أعلاه بلون أسود غليظ « مقبرة العهد الجديد » .

قال « آرم » :

ـ علينا ان نفتش عن حارس المقبرة فانه سيأوينا ..

خاطبته المرأة الجميلة متأسية :

ـ ان في القبور وحشة يا « آرم » ولن يأتيني النوم فيها .

أجابها ، وهو ينظر داخل المقبرة :

ـ سننام مع الحارس .

ضرب « آرم » على الباب برفق . ثم طرق فلم يأت احد . وضرب الباب في آخر الامر بقوة فانفتح ....

دخلنا نجوب بين القبور بحثا عن الحارس ... ففتشناها

ولم نعثر عليه . وفي ركن من اركان المقبرة وجدنا بيت الحارس خاليا .

قال « آرم » :

ـ لا بد أن من عادته النزول الى « نهر الفرباء » في مثل هذا الوقت مع النازلين ، فلنمكث في بيته الى وقت مجيئه ..

جلس ثلاثتنا على ارض الغرفة الضيقة ذات الرائحة غير العادية . ولم يمض وقت طويل على وصولنا الى تلك الغرفة حتى سمعنا صياحا ونواحا ينصاعدان ، من المقبرة ، وسمعنا اصواتا كثيرة تهتف باسم « آرم » ... فخرجنا من البيت في ذعر ، وكانت رفيقتنا عندئذ مستغرقة في نوم عميق فلم تع ما نحن فيه ...

لما خرجنا من الغرفة رأينا الاموات هياكل عظمية قد قامت من القبور.. انهم يعدون في جوانب المقبرة ويصيحون ، بعضهم يبكي ، وبعضهم يندب ، وبعضهم الآخر يرمي الفضاء بالحجر .. لما رآنا الاموات في وقفتنا الذاهلة امام البيت الصغير توجهوا نحونا وفي أيديهم مشاعل من لهب حمراء ... ساروا نحونا صفا صفا يحمل الهيكلان الاولان من كل واحد حجرة عريضة من أحجار القبور، كتب على اللوحة الحجرية الاولى « ضحايا الفيتنام » .

لم يمكث صف الاموات الاول امامنا طويلا حتى تزحزحت الهياكل العظمية البيضاء ووقف مكانها صف آخر من الاموات يحمل لوحة حجرية ثانية كتب عليها « ضحايا كفر قاسم » . فتح الاموات أفواههم وضربوا أضراسهم بعضها ببعض ، فأحدثت طقطقة زادت في رعبنا وجمدتنا أكثر في مكاننا ....

وتسلل هذا الصف من الهياكل والعظام الخالية من اللحم تقرفع بعضها بعضا ، وودعنا أحد الهياكل وذلك بان رمانا بحفنة من تراب ...

أتى صف ثالث تتزاحم فيه الهياكل بالمناكب فيحدث احتكاك العظام البيضاء ببعضها صريرا شبيها بصرير الابواب . وقف هذا الصف وأطال الوقوف ... وألقى الاولون منه أمامنا لوحة حجرية كتب عليها بخط من نار « ضحايا روديسيا » . وضحك الاموات ضحكة عريضة تساقطت منها أسنانهم المرتعشة على الارض ...

كنا في موقف الذاهل الغائب عن وعيه عندما توالت علينا صفوف الاموات تحمل ألواحا كتبت عليها أسماء مختلفة من عالمنا الارضي ... وكأنما شدت اقدامنا الى الارض فلم نتحرك ولم نزعق رعبا ، بل بقينا ننظر الى الاحداث وهي تتوالى امامنا لا غير ...

ووقف هيكل طويل ضخم الجمجمة فوق قبر عال ، وتكلم بصوت مرتفع في جموع الهياكل الشاخصة اليه :

ـ الآن سنفدي الثار ...

وأشار بيده العظمية البيضاء الى « آرم » . وكان صوته قويا حتى المرأة الجميلة التي ترافقنا ، فهبت من مكانها . ولكنها جمدت في باب الغرفة عندما رأت جموع الاموات الكثيرة المحتشدة في شبه مظاهرة امام البيت .

أعاد الهيكل الطويل ذو الجمجمة الضخمة قوله :

ـ الآن سننتقم .

وأشار ثانية الى « آرم » . فاندفع عندئذ هيكل يبكي بكاء شبيها بعواء الذئاب ، وقال رافعا رأسه العظمي :

ـ انه بريء لا شأن لنا معه ...

جمد « آرم » في مكانه لا يتحرك ولا يتكلم . ولكنه ظل ينظر كل ذلك باهتمام يشوبه خوف عميق .

تكلم احد الهياكل الواقفة في حماس ، وخاطب الهيكل الباكي :

ـ أنا الذي كان علي أن أبكي لاني مت ظلما في احدى المجازر الارضية .

هيكل ثان :

ـ اما أنا فقد محت وجودي وعائلتي احدى القنابل الارضية .

هيكل ثالث :

ـ لقد مات أبنائي خنقا امامي ، فحاولت أفتكاكهم فذبحت .

وانطلقت الهياكل تشتكي الواحد تلو الآخر . ثم بدأوا ينوحون نواحا منكرا ، وأخذوا الحجر ولوحوا به للسماء ، ثم غمروا بأصابعهم العظمية الرمل ولوحوا به عن اليمين وعن الشمال .... فالتفتت الى زوجة « آرم » فالتقت عيناي بعينيها الذاهلتين ، فأجهشت بالبكاء ... عندئذ سقطت الهياكل العظمية كلها ارضا . ولم يبق في المقبرة حركة ولا ضجيج ولا رفس .. فنظر نحوي « آرم » في صمت . ثم أجال بصره حواليه في حزن ، وتأمل وجه زوجته فرأى سحنتها متغيرة ... فأمسكني من يدي وأشار عليها بالدخول فدخلت متعثرة ، ودخلنا على أثرها وأوصدنا الباب . لم يأتنا النوم الا قليلا . اذ كنا نشعر بوحشة النازل في مدينة الاموات، وقد زاد في شعورنا بالغربة السكون الذي يملأ أرجاء المقبرة بعد ان ملأتها أصوات الموتى ضجيجا واحتجاجا على قدومنا .

حدثني « آرم » أثناء الليل ، فهمس لي بأقوال لم أفهمها جيدا فقد كان يحدثني عن المصير المجهول ، وعن الحياة ، وعن الموت ووحشته . ويتمتم أحيانا أثناء حديثه كمن يداري سرا خطيرا لا يريد البوح به لغير نفسه ...

سألته وكان الليل ما يزال جاثما على المقبرة ـ عما يقلقه . أشار بيده الى المرأة الجميلة المستغرقة في النوم . قلت له في شبه ممازحة :

ـ ألا تحبها ؟؟

أجابني وهو يعاني احساسا ثقيلا :

ـ أفني فيها ...

قلت :

ـ لم كل هذا العناء ؟؟

قال :

ـ لقد تعبت وأتعبتنا معها ، لانها سلكت طريقا صعبا من البداية..

صمتنا في حزن ، وقد بدأت بوادر الفجر تطل علينا من شقوق الباب ، ومن كوة مخروطية الشكل شبيهة بالحجر ، ملتصقة في أحد جدران الغرفة ...

نهضنا لما عمت أنوار الصباح أرض الغرفة الضيقة . وقصد « آرم » المرأة الجميلة المستغرقة في النوم قربنا .. مسح على وجهها برفق مرتين ، ووضع يدها الصغيرتين في يده اليمنى بحنان، ففتحت عينين ناعستين كحلتا بالجمال .. ونهضت معنا في نشاط .. وعندما هممنا بالخروج كنا في اتجاه الكوة الملتصقة بالجدار الذي تقف بقربه المرأة الناظرة الى الاتجاه المعاكس ..

أبصرنا يدا ذات سبع أصابع ضخمة تدخل من الكوة وتمتد تجاه المرأة ... أسرعت عندئذ الى فتح الباب فعالجت قفله فلم يفتح وقد أخذت اليد تطول شيئا فشيئا ، تجاه المرأة فجذبها « آرم » نحوه في اشفاق حتى لا يخز جسمها الجميل بأظافر اليد الحديدية . عند ذلك انتبهت مرافقتنا للحقيقة فانزعجت وصاحت في ذعر ، فاتسعت أصابع اليد اكثر ، وازدادت اقترابا منها .

ضرب « آرم » اليد الكبيرة برجله علها تحجم عن الامتداد ، ولكنها اقتربت اكثر من المرأة . اما أنا فقد كثرت محاولاتي لفتح الباب بلا جدوى ، اذ كان كمن سمره بحديد من الخارج .

بدأت اليد تتضخم وتملأ جو الغرفة الضيقة ، فتوالت ضربات « آرم » لها بحذائه ... واقتربت أظافر اليد الحديدية من جسم المرأة لتنغرز فيه ، فعلا صياحها ، واضطرب « آرم » اكثر ، وفتش حزامه في سرعة من تذكر شيئا منسيا آن الاوان لاستعماله ، فأخرج من حزامه مدية شبيهة بمدية الجزار .

امسك مقبضها بقوة ، ووقف في السركن القريب من الكوة ورفعها حتى كاد أعلاها يصل السقف ، وضرب بها اليد الممدودة لخنق المرأة ، فقطعها من المعصم ، وسقطت على ارض الغرفة بيننا .... عند ذلك تبدل صياح المرأة الى بكاء . كانت تبكي وتنظر الينا

في حنان ، وقد علت وجهها صفرة خوف ، وتتابعت انفاسها اللاهثة، واصطرب صدرها الناهد في علو وهبوط ..

التفت اليّ « آرم » ونظر في وجهي وكأنه يسألني عما اذا كان الباب قد فتح أم انه ما يزال مقفلا . فاشرت بأن الباب موصد ، وان هناك احدا قد اوثقه من الخارج ليوقفنا في هذا المأزق . قصد الباب وحاول فتحه فلم يستطع ، فوقف مفكرا ووقفت أنا والمرأة ننظر اليه ... ثم اخرج المدية من حزامه وانحنى على اليد المقطوعة واشار عليّ بأن أنحني مثله عليها ، فسألته عن قصده فتمتم :

ـ لنستعمل اصابع الشر آلة لخلاصنا .

قال هذا ، وقطع أطول أصبع في اليد ، وأشار عليّ بأن أحفر بظفرها الحديدي اسفل الباب ، ثم قطع هو ايضا اصبعا أخرى وانحنى يحفر معي .

الصمت يلفنا ونحن نضرب الارض ، والمرأة الجميلة تنظر الينا حينا وحينا آخر تتأمل في دهشة أصابع اليد الغليظة التي كادت تقضي عليها . وعلت بشرة وجهها الصافية دهشة فرح عندما رأت النور يتدفق من أسفل الباب الموصد .

الثغرة التي فتحناها تمكننا من الخروج ... ولكن من يدري من أن أول خارج منا لا يصيبه الشر ؟؟

اشار عليّ « آرم » بأن أبدأ بالخروج فزحفت تحت الباب وخرجت بسهولة ، وخرجت على اثري رفيقتنا وتبعها « آرم »..

وقف ثلاثتنا خارج الغرفة الضيقة وقد شعرنا بفرحة الخروج من المأزق ... ولكن لم نلبث أن هز احساسنا صمت القبور ، وضباب ثقيل يغطي أرجاء المكان .. فسرنا ، ونحن نحس برهبة ، الى باب المقبرة الصغير لنخرج . وعلى حافتي الباب وجدنا هيكلين عظميين واقفين امتاز كلاهما بالطول وبمحجرين واسعين ، وأسنان بيضاء تضحك ضحكة الاموات لضباب المقبرة ، وقفنا قليلا نتأملها في دهشة، وتقدمنا نحو الباب في اضطراب وخوف ، فجذب كل هيكل طرف الباب الواقف حياله فانفتح ، وبعد اجتيازنا له انغلق من جديد ... وبانت لنا المقابر الاخرى جاثية بحزن على ذلك المكان .

مدينة الاموات التي قذفتنا حقيقة خلقتها نزوات من تعرفهم يا «آرم» عدد سكان القبور قد تضخم يا « آرم » . ضخمته نفوس وحشية نمت في مستنقع الاحقاد ، لقد شربت يا « آرم » مع من تعرفهم من مستنقع الكراهية والعالم لما يزل بعد طفلا .

لما شبعت انت ومن تعرف من ماء الاحقاد انقلبت براءة الطفولة في وجه العالم الى حب في الفتك ورغبة في الاذلال ...

اقدامنا تلتهم الطريق والصمت يلفنا ، وصورة الشيخ تطوف في أذهاننا ، اذ قطع على نفسه عهدا منذ أمس بأن يلاقينا على ضفة نهر الغرباء ... وحثثنا الخطى اكثر لما فضح النور الاشياء حتى لا يفوتنا الموعد ..

حصاد الرؤوس :

على ضفة « نهر الغرباء » كان الشيخ جالسا في انتظارنا وقد بدت عليه مهابة ، وشع من عينيه بريق جذاب اختلط فيه الايمان بالحب ، والحلم الكبير بالحكمة الرصينة .

لما وقفنا حياله قام وحيانا بابتسامة وديعة يحللها الوقار . ونظر في وجوهنا مليا . ثم كلمنا سائلا :

ـ كنتم في مقبرة العهد الجديد ؟؟

اجبناه بايماءة حزينة . فاضاف قائلا :

ـ خشيت عليكم من الشر ، اذ نسيت أن أوصيكم مساء أمس بالابتعاد عن مقابر العهد الجديد ..

انتصب عندئذ الشيخ واقفا ، ولوح بنظره الى بعيد كمن يقرأ سرا في اعماق الغيب واشتغلت رفيقتنا بمضغ اوراق من « شجرة القوة » . أما أنا و « آرم » فقد شغلتنا لوحة كبيرة يدفعها الماء المتدافع من مصب النهر وفوقها شيء مضطرب لا يستقر .

اقتربت اللوحة فتبين لنا ان فوقها مجموعة من الافاعي في خصام عنيف ، وظهرت اكبر الافاعي حجما تضرب بذيلها وتعض بأنيابها البقية التي لم تنفك هي الاخرى تنهشها من كل جانب ...

ولما لم تستطع كبرى الافاعي ان تقاوم كما ينبغي وقفت على ذيلها فوق اللوحة ، وكأنها تحس انها بين أمرين : اما ان تقاوم الافاعي الاخرى حتى لا تموت نهشا وعضا ، واما ان ترمي بنفسها في النهر فتموت غرقا . وكأنما شعرت بهذا الخطر ففتحت فمها واسعا ، وأخذت تبتلع صويحباتها ابتلاعا ، فكنت ترى الافعى الصغيرة تقاوم. ولكنها تستسلم في النهاية . ومضت اللوحة يدفعها التيار وفوقها الافاعي في معركة طاحنة ....

همّ « آرم » بأن يسأل الشيخ عن معركة الافاعي ، وعن مقبرة العهد الجديد فنطق الشيخ قائلا قبل سؤاله :

سأسير معكم في نهاية الرحلة ، فلا تكثروا من السؤال عما ترون ، لانكم تطهرتم في « نهر الغرباء » ، وستعرفون وتفهمون كل شيء في هذا العالم بأنفسكم ...

قال هذا وسار امامنا في اتجاه يبعد قليلا عن مقابر العهد الجديد ..

تجلى الضباب الثقيل فبدت العين التي ينبع منها النهر واضحة بأهدابها السوداء الطويلة ، وظهرت جليا حيطان مقابر العهد الجديد. وأشرف الوقت على الضحى لما مررنا قرب المقابر التي غشيت حيطانها بطبقة من الطحالب الخضراء ، وعلقت عليها جماجم آدمية جديدة لم نرها في الصباح .

سرنا مع الشيخ الى مكان لا يبعد كثيرا عن المقابر . وفي غوط ذي تربة حمراء يحوي سهلا منبسطا رأينا انصاف عرايا في أيديهم آلات غريبة شبيهة بالمناجل ... أمامهم على ارض السهل رؤوس آدمية نامية كالفقاع فانحنوا يحصدونها من الرقاب ، وأثناء حصادهم تتساقط الدماء على الارض ، فتنتعش بها بقايا الرقاب ، فترتوي منها التربة ، فتنمو خلف الحاصدين رؤوس أخرى جديدة فيعودون على أعقابهم لحصدها من جديد ... ولذلك فهم في احجام واقدام على الدوام كلما تقدموا مسافة الا ورجعوا بعد زمن على أعقابهم فيها ، يطلبون أثناء ذلك الرؤوس الجديدة ويقطعونها من الاصل ، وكثيرا ما يقلقهم ما نما خلفهم من رؤوس ، فيفور غضبهم ، ويضربون الرؤوس المحصودة بعضها ببعض، فتتحطم الجماجم، وتتناثر العيون ، وتتكسر الاستان ، فتتساقط تباعا على ارض الحقل الحمراء بالدماء المسكوبة .

أيدي حصدة الرؤوس ملطخة بالدماء ، وثيابهم وأجسامهم قد انغمست فيها .. فبدوا في عملهم هذا ذئابا تشرب الدماء شربا ، وتتمسح بها وتتلمظ وتنتظر تدفق شرايين جديدة لتروي غلها منها .

رأت رفيقتنا ذلك ففضت بصرها واحتمت بآرم وبكت في لوعة . ثم قالت بعد صمت :

ـ يا ليتني لم أتطهر بماء النهر حتى لا أعرف الحقيقة .

فاشار عليها الشيخ بأن تكف عن البكاء ، وان تنظر الى الاشياء في صمت ...

ثم مال بنا الشيخ الى ربوة ذات احجار بلورية وقال لنا :

ـ سأصنع لكم من أحجار هذه الربوة نظارات تضعونها فوق أعينكم ...

قلت له :

ـ نستطيع ان نبصر الاشياء بدونها .

وخاطبه « آرم » :

ـ لم يصبنا العمى بعد . فلنواصل الرحلة ...

وقالت له رفيقتنا بصوت رقيق :

ـ افعل ما شئت ، يا شيخ ، فنحن طوع امرك ...

تكلم عند ذلك الشيخ في هدوء الحكيم :

ـ انكم لستم عميانا ولكنكم لا تستطيعون معرفة جوهر الحقيقة، فبهذه النظارات تعرفون كل شيء في هذا العالم اكثر ...

ثم انحنى الشيخ وامسك بأحجار بلورية مفلطحة ، وحكهـــا ببعضها فازدات تألقا وشفافية . ثم دوّرها حتى استوت في شكلها الدائري . ثم ناول كل واحد منا بلورتين ، ثم قال :

ـ ليحتفظ كل ببلورتيه الى وقت الحاجة .

ثم أنطلق يحدثنا عن أشيا كثيرة وهو يسير امامنا في طريـــق ذات احجار مدببة اشرفت بنا على مقابر أخرى كثيرة ومتقاربـــة ، ووسطها ساحة واسعة خالية من القبور ، كتب على لوحة حجرية في مدخلها بخط اسود قاتم « حمام الزعماء » .

في الساحة الواسعة ناس كثيرون يستحمون في برك من الدماء ... ولما لم نتبين الاشخاص جيدا وضعنا النظارات على أعيننا ، فبان لنا من جملة المستحمين زعماء نعرفهم جيدا . كان من بينهم « نيرون » و « جنكيز » . بدا كلاهما غارقا الى الرقبة في بركة من الدماء . ولما عرفهما « آرم » صاح فرحا فلم يشتغل به احد منهما ، لانهما كانـــا يأمران وينهيان جماعة من حصدة الرؤوس كانوا يجرون لهم الدماء في أوان ليست بالقرب ولا بالجرار ولا بالاقماع الكبيرة ، وانما هي شيء من هذا القبيل كله .

كان « جنكيز » قد أخذته نشوة السباحة في بركة الدماء،فشرع يغرف الدماء بحفنته ويزرعها عن اليمين وعن الشمال ، ويسقي بهـا الارض من الامام ومن الخلف .

وأعجبت « نيرون » اللعبة فضحك ضحكة عريضة وشرع بدوره يغرف الدماء بحفنته ويزرعها على الارض ...

وكلما أشرف الدم في احدى البركتين على النضوب ، قدمـــت ثلة جديدة من حصدة الرؤوس ، يحمل أفرادها أواني مملوءة بالدمـاء الجديدة ، فيفرغونها في البرك لتمتليء ، ثم ينثنون على أعقابهـــم للاتيان بدماء أخرى ....

وعلى بعد خطوات من « نيرون » و « جنكيز » وقف الشيـــخ « هوشي‌منه » بلحيته الطويلة وخياله القصير ، وفي عينيه نظـــرة شاردة ، ومن وجهه المفضن يطل ألم عميق وحزن أسود ، فيصفق بيديه من حين لآخر في أسف ، وقد تأخذه أحيانا غمرة الحزن فينحني ليأخذ حفنة من التراب ليذروها فوق الدماء المزروعة .

وفي اسفل المقابر قصر عال اخبرنا الشيخ بانه « قصر الجماجم »..

...وهو مبني على عدة طوابق . أحجاره من الجماجم الآدمية .... وابوابه من جلود بشرية ايبسها حرّ السنين .

فوق قمة قصر الجماجم رجلان قويان يظهران انهما يجلدان رجلا ثالثا . وقفنا نتثبت فيهم مليا ، وقفز « آرم » بسرعة والتفت الـى الشيخ وسأله في عجل :

ـ من هذان اللذان يجلدان « الهر » ؟

وضع الشيخ سبابته على شفتيه ، واشـار عليه بالسكوت ... بينما تعالى صياح « الهر » من الالم . واشتد ضرب قدميه على قمة قصر الجماجم . وألح الرجلان في ضربه بالتناوب ، وكلمـــا ازداد الجلد ازداد صياحه ، وكثرت حركات شاربه المربع الجاثم تحـــت أنفه الطويل ، وزاد تلويحا بذراعيه . وقد خبت حدة نظراته فلـم يبق في عينيه ذلك البريق القوي المزعج ، ولا في صوته تلك الحـدة المخيفة ..

مرّ ناس كثيرون في تلك الساحة يحملون جثثا ملفوفة في أثواب حمراء ... كانت الجثث كلها تبكي . اما الذين يحملونها فقد كـــان الصمت يلفهم وهم يسيرون في صف متتابعين . فلا يسمع الا وقـع أقدامهم على ارض صلبة قاسية .

راقبتهم عن بعد ـ بينما « آرم » ومرافقتنا والشيخ يتأملـون مما يجري في الساحة ـ وقد وقف أول الصف بعيدا عن تلك الساحة خيال « يد كبيرة مقطوعة في الخلاء » انغرس معصمها في الارض ، ودار دورانا عاديا كأن شيئا ما يحركه من أسفل ، بينما أصابع اليـد مشرعة في الفضاء ... ووسط كفّ اليد العظمية توضع الجثـث بأكفانها ... ولما انصرف حملة الجثث وغابوا خلف حيطان المقابـــر قدم ثلاثة رجال يعدون تجاه اليد المقطوعة بلا رؤوس ، اذ كانـــت رؤوسهم تجري امامهم تلقائيا ، وتتصادم ببعضها كالاكر . وعلى مقربـة من اليد المقطوعة ، الدائرة باستمرار والتي بدأت أصابعها العملاقة تطحن الجثث ، سقط الرجال الثلاثة ذوو الرؤوس الهاربة بلا حراك ... ويقابل اليد المقطوعة في الخلاء من الناحية الشرقية جمـــوع كثيرة كل جمع يلتف بقائد يخطب فيه ، فيقول كلاما لا نفهم له معنى. ثم على اثر الكلام الكثير يحملونه على الاعناق ، فتمتد الايـــدي جميعها في وقت واحد . عندئذ يلقي أحد الاشخاص من نافذة مـن نوافذ قصر الجماجم آنية ملأى باللهب وسط الجمع الهاتف بحيـاة القائد ، فتشتعل في الناس النار بشدة ، وكلما أمعنت النار فـي الالتهاب أمعنت الايدي في الامتداد الى أعلى لتبعد عظيم القـــوم عن اللهب . وتستمر النار مشتعلـــة في اجساد النـاس وقتـا ليس بالقصير ، فلا يتضورون الا بمقدار ، ولا يصيحون الا بمقـــدار ، وهمهم هو حياة عظيمهم . ثم تهدأ النيران فاذا الجمع كتلة واحـــدة من اللحم منصهرة ، يقف فوقها ذلك الرجل سليما ورجلاه منغمستان فيها . ثم يتبدد الدخان فتتحرك كتلة اللحم الكبيرة ويبدأ حجمهـا يتسرب داخل جسم الرجل الواقف فوقها عن طريق رجليه ، فتتضخم رجلاه ، وتطول قامته ويعرض جسمه . ولم يمض وقت طويل الاوكتلة اللحم قد تشكلت كلها في جسم الرجل لحما سويا ، فينقلب الرجل الصغير الحجم بيـن ساعـة وساعة عملاقا ذا ايد طويلـة تصـل فوق الكواكب ، وذا عينين ثاقبتين في باطن الارض ...

عند ذاك يبقى واقفا وحده في الساحة ورجلاه القويتان تدكان سطحها ، ورأسه الذي ضخمته قوى الناس ينظر في النجوم ...

وفي ناحية أخرى ، جنوب قصر الجماجم ، كان هناك رجـــال آخرون قد ربطوا جموعا غفيرة من رقابها بسلاسل معقودة في أوتـاد حديدية جمعت بيـن الطول والغلظة وانتصب كل رجل على جمـــع من الجموع جلادا ، وكلما أمعن في الضرب أمعنوا هم في السكـــوت ، وكلما لوعتهم سياط هتفوا بحياته . عند ذلك يطلق رقابهم مـــن السلاسل فيندفعون للسير حثيثا في طريق طويلة تمتد على طـــول « نهر الفرباء » ... ولكن المسك بالسوط يقف امامهم في الطريق فيجلد السابقين منهم ، فيعودون على أعقابهم ويشرعون في دورة حول انفسهم ، ويقف صاحب السوط وسطحهم ويدور معهم حول نفسه ... ويحاول الجمع أثناء ذلك ان يسير سيرا دائريا ولو قليلا على الطريق ، ولكنهم لا يستطيعون ولا يتقدمون خطوة من مكانهم ...

المرأة الجميلة تنظـر في استغـراب وقد كادت تأكل انامله عجبا ... وقد بث في قلبها دواعي الالم استمرار « الهر » في الصياح . والذين يلقون النار من نوافذ قصر الجماجم يلهبون الناس حرائق..

اما حصدة الرؤوس فهم مستمرون دائبـــون في نقل الدماء الـى البـــرك .

ومن وجه « آرم » وملامح الشيخ الكئيبة تطل أحزان ملايـيـــن السنيـن المخزونة في محفظـة الزمـان .

غرفـة الاحلام الارضية :

قال لنا الشيخ ، وهو ينظر الى طريق امامنا :

ـ سنسير في هذا السبيل الممتد على طول « نهر الغرباء » ، وسيحلق بنا ناس كثيرون يسيرون بسرعة لا يلوون على شيء ، لكـن قبل التوغل في الطريق سنستقل « غرفة الاحلام الارضية » لنواصل على متنها الرحلة . وعندما نصل المصب سنمسك ناصية العالم ...

قلت في استفهام :

ـ هل سننام ليلتنا المقبلة فيها ؟؟

وعلق « آرم » في حزن :

ـ أخشى ان تكون ليلتنا المقبلة شبيهة بالتي قضيناها فـــي « مقبرة العهد الجديد » .

قالت عندئذ رفيقتنا :

ـ لنأخذ اذن طريقا آخر اذا كان هذا الذي سيكون ..

أجابني الشيخ بصوت رصين :

ـ « غرفة الاحلام الارضية » هي غرفة صنعتها من شجر الرجاء ... صنعتها بيتا كبيرا فوفرت فيه للاجيال كل اسباب الراحة والدعة ... وهذا البيت متنقل نجره ذئاب كبيرة كالاحصنة ، عاشت في غابة البؤس ، وتربت على أكل الرؤوس المعلقة في اشجارها ، وشبت على لعق الدماء المقطرة من الرقاب .

قال له « آرم » :

ـ نحن نخشى أن تأكلنا الذئاب .

أجابه الشيخ ، وهو ينظر الينا :

ـ أنا الذي سأتولى أمر الذئاب التي تجر المركب ، لانها ألفتني من قديم . اما أنتم فحالما تصلون الغرفة فادخلوها وكلوا من الخيرات المعلقة فيها ، واستريحوا على البسط المفروشة في أرجائها . لان الطريق طويل محفوف بالمخاطر ، ورحلتنا شاقة من الصعب ان تنتهي وأنتم تسيرون هذا السير البطيء على الاقدام .

قلت للشيخ :

ـ ان الغرفة التي تقودها الذئاب من الصعب سكناها .

قال لي في لهجة المطمئن :

ـ أنا خبير بشؤون الذئاب وتسييرها في الطريق .

كنا نسير الاربعة الواحد خلف الآخر ، لان الطريق ضيق . وكنا بين صمت وصمت نتحدث عن مقبرة العهد الجديد ، وبرك الدماء ، وقصر الجماجم ، وصياح « الهر » وحصدة الرؤوس ... فنذكر ذلك فيما بيننا في خوف . أما الشيخ فكان يسير امامنا في صمت . واذا سألناه عن حدث يجد لنا في الطريق فانه يكتفي بان يشير الينا بالايجاب أو السلب أو يلازم السكوت .

بعد مسيرة دامت طويلا وصلنا الغرفة المنتظرة . ولما هممنا بالاقتراب منها أشار علينا الشيخ بأن نقف على بعد منها .

بدت لنا الغرفة بشكلها الكروي مستقرة على شبه عجلات يظهر أنها من مفاصل آدمية وربط في الغرفة من الامام خمسة ذئاب كالاحصنة في الكبر .

كشرت الذئاب عن أنيابها في البداية لما رأتنا نهم بالاقتراب من « غرفة الاحلام الارضية » .

يحيط بالغرفة والذئاب الخمسة المشدودة بأغلال الى الغرفة نفسها شبه دائرة من الاشجار ، في كل شجرة ذئب مربوط بسلسلة طويلة تمكنه من اقتحام الغرفة متى شاء .

تقدم الشيخ نحو الخمسة ذئاب بينما وقفنا نحن ننظر له من بعيد ... نزع ثوبا من أثوابه ، ووضعه مرة على أنف كل ذئب ، ثم أعاده الى مكانه . ثم أشار « أن تقدموا » . سبقنا عندئذ وفتح بابا صغيرا في الغرفة الكروية . دخلناها . كانت من الداخل مربعة الشكل ، واسعة ، يمتد في أرجائها البصر . ودخل على أثرنا الشيخ فوقف ينظر في أنحائها قليلا . ثم التفت نحونا وقال :

ـ هنا تستطيعون اتمام الرحلة ، ومن خلال نوافذ هذه الغرفة ستنظرون احداث العالم وأنتم في الطريق .

قال هذا وهم بالخروج فاستوقفته مرافقتنا بصوتها المتضرع .

قالت له بحزن :

ـ اياك ان تفارقنا ، يا شيخ ، فبدونك سنضيع !

قال في اصرار :

ـ سأمكث معكم الى النهاية .. اما الان فسأجلس خارج المركبة كي اسير الذئاب في الطريق ، لانني اذا تركتها حرة فستتخلى عن الطريق وتسير بالمركبة الى غابة البؤس ، حيث شبت وتعودت لعق الدماء وأكل الرؤوس .

قال هذا وخرج بعد ان أوصد الباب الصغير على أثره باحكام .

لقد احسسنا بالجوع لاننا لم نأكل منذ يومين ، اذ شغلتنا حالنا ومخاطر الطريق عن الاكل . وقد أثار فينا شهية الطعام ما رأيناه في الغرفة من أنواع الثمار الطيبة الرائحة الذكية الطيب ، المعلقة في سلاسل مخروطية الشكل ، مدورة كالاكواب . وأثار فينا حاسة العطش ما رأيناه من أباريق البلور المملوء ماء سلسبيلا ...

« فام » « آرم » الى سلة مملوءة فاكهة ، وكان مختوما عليها بغلاف شفاف رقيق يبدو من ورائه نوع من الثمار ليس هو بالتين ولا بالاجاص الارضي . انما هو نوع من الثمر بين هذا وذاك أحمر اللون ، نشوبه صفرة خفيفة ، حلو المذاق ، فيه لذة لم نعهدها في ثمارنا الارضية .

أكلنا من هذه الثمار حتى شبعنا ، وشربنا حتى ارتوينا . وكان عندئذ المركب الذي تولى قيادته الشيخ قد بدأ يتحرك على طريق مفروشة بالحصباء ...

قال « آرم » وقد سرّح نظره خارج الغرفة من خلال احدى النوافذ :

ـ اننا نخشى أن يصيب الشيخ مكروه من الذئاب ، فلو يصيبه سوء لازددنا ضياعا .

أجابته المرأة الجميلة :

ـ ان الشيخ قد روّض ذئاب المركبة منذ القدم ، وقد عرفت ذلك منذ الطفولة .

قلت مماذحا :

ـ تنادونه بالشيخ وهو يحمل ملامح الشباب وقوته .

علق « آرم » على هذا قائلا :

ـ لكن أغرب ما في الشيخ امتزاج الشيخوخة بالشباب في ذاته . والحقيقة انه لو لم يعترض سبيلنا منذ البداية لكنا من الهالكين ، لان معرفته لهذا العالم قد اقترنت بوجوده .. ووجوده قد ضمن وجودنا ...

قلت في ابتهاج :

ـ الآن ستتم الرحلة بلا مشقة ، ففي « غرفة الاحلام الارضية » من الخيرات ما يغرينا بالمقام ويقينا من الخصاصة في الطريق .

اجابني وقد اثار كلامي شجونه :

ـ يجب أن تعرف اننا في ضياع ، وان مصب النهر الذي نقصده من الصعب الوصول اليه ... ولذلك علينا ان نحث السير علنا نظفر بالوصول ...

من اليسار يحفنا « نهر الغرباء » الذي يجري حثيثا دافعا امواجا متلاحقة منحدرة نحو مصب لا نعرف منتهاه وتحف بضفة النهر أشجار طويلة ليست بالسرو ، وليست بالنخيل ، انما هي نوع يجمع بين هذا وذاك ، فيها ثمار وجدنا بعضها في سلة من سلال غرفتنا... وعلى ضفة النهر نمت حشائش صغيرة تفرقت فيها سلاحف ذات آذان طويلة شبيهة باذان الارانب تقضم براعمها ، وعن يمين الطريق صحراء قاحلة لا نبت فيها ، يختلف فيها بعض نفر متفرقين في اتجاهات مختلفة .

فتح الشيخ نافذة المركب من الخارج ، وأطل علينا بوجهه المهيب بعد أن جلد الذئاب بقوة حتى أعواها ... قال :

ـ نحن الآن قريبون من « صحراء الجياع » ، عندما نصلها سننزل لنستريح بقية اليوم ، ونرى « بئر المطامع » ثم نجتاز « بئر المطامع » ببضع مسافات لنشاهد « مصيدة السراق » ...

قال هذا وأغلق النافذة من جديد . وتلهينا نحن بالنظر الى الصحراء والى الذين يسيرون فيها . انهم مختلفون في الاتجاه ، ومختلفون في الطرق ، ومختلفون في الهيأة . وهم يزورون عن بعضهم بعضا ، فاذا التقى أحدهم بالآخر في طريق ما من الطرق ، تنكب عنه ، وأخذ اتجاها جديدا . وكانت تبدو على ملامحهم أحقاد دفينة وكبرياء مزيفة . وقد يبعد النفر الابيض عن النفر الاسود أو الاصفر عن الاحمر بمسيرة أقدام عديدة ، لانه يكره فيه ذلك اللون ، ويكره منه ذلك الطريق وذلك الاتجاه الذي يسلكه .

توقف المركب عندما أبصرنا جموعا غفيرة تبدو وكأنها هائمة في شبه سهل منبسط ، لا تستقر في مكان ، ولا تهدف الى شيء من

سعيها .

فتح الشيخ نافذة المركب من الخارج ، وأطل علينا من جديد بوجه أكثر مهابة ، ثم أشار علينا : « أن أخرجوا .. »

نزلنا فبانت لنا الجموع الهائمة بوضوح . كانوا يهيمون في تلك الصحراء على وجوههم ... منهم الممسك رأسه بيديه ملتفتا ذات اليمين وذات الشمال في لهف ... ومنهم الواضع يديه على قلبه وهو يتألم . ومنهم الممسك بطنه بقبضتيه منطلقا في ركض متواصل ، صائحا صياحا منكرا .

اما الذي اثار دهشتنا فهم اولئك الغارقون في شبه حفر يملأها الطين الى الاعناق ، الناظرون بأبصار ذاهلة نطل منها الغيبوبة ، والمطلون بوجوه متغيرة السحن تلهبها سياط خفية قاتلة . فهم لا يعون بمن حولهم ، ولا يدرون بما يجري في ذلك المكان .

وعلى بعد خطوات رأت معشوقة « آرم » رجلا غارقا في الطين الى أذنيه وقد بدأ الطين يتسرب الى فمه ليخنق أنفاسه ، فأسرعت بقلب عطوف لانقاذه ، وهمت بالانحناء لانتشاله من هوّته ، فزجرها الشيخ بنظرة قاسية . ثم قال بعد فترة قصيرة من الصمت :

ـ من يبدد أحلام الارض ويلاحق الاحياء والاموات خير له ان يسكن الطين .

والتفت الشيخ تجاه الخلاء وسار أمامنا متوغلا في صحراء الجياع ، مخترقا جموعا هائمة على وجهها بين الحين والحين . لم نبتعد كثيرا عن المكان الذي كنا فيه حتى وقف الشيخ على بئر ذات حوض كبير ، تحيط بها طحالب طافية فوق ماء أخضر آسن ، يخرج من عين كبيرة في جانبها . ووسط الماء الآسن نمت شجرة كبيرة لا ظل فيها ، ذات ثمار مرة كالحنظل ، وقد غطيت اعوادها بأشواك طويلة كالابر . وفي الناحية الاخرى من البئر بالوعة أرضية ينحدر فيها ماء العين بشكل دائري تسمع له فرفرة شبيهة بحشرجة الاموات.

لم يطل بنا الوقوف كثيرا حتى قدمت ثلتان من الجموع التي تركناها خلفنا في الصحراء . اقترب الجمعان منا . كان بعضهم من أولئك الذين يصيحون واضعين أيديهم على بطونهم ، اما الثلة الثانية فهي من الذين تركناهم غارقين في الطين .

ازدادوا اقترابا وهم يركضون في اتجاه البئر ، وبسرعة خاطفة داروا حول الماء الآسن ، وانحنوا فوقه يكرعون متزاحمين بالمناكب ، متدافعين بالايدي ، متناطحين بالرؤوس .

اهتز « آرم » لذلك اهتزازا ، واحمرّ وجهه ، وامسك بحفنة من الرمل ليرميها في الهواء حتى يصيبهم الرمل في أعينهم . ولكن الشيخ أسرع اليه ، وأمسك بيده ، ونفض الرمل منها .

ثم بعد أن شبع الجمعان ماء آسنا أكلوا من الثمار المرة بنهم ، ونظر أحدهم الى صحراء الجياع وانطلق يعدو متوغلا فيها ، فتبعته البقية حتى غاب الكل عن أنظارنا .

عند ذلك تقدمنا الشيخ وسار هو أيضا متوغلا في الصحراء ، ولكن في اتجاه جديد ...

سرنا مسافة ليست بالقصيرة ، فسمعنا ونحن نشرف على غوط رملي صياحا ، ورأينا حركة حثيثة وابتعادا واقترابا بين أنفار كثيرين ... ولما نزلنا في الغوط شاهدنا مصيدة عظيمة طولها مسيرة أقدام . فهي شبيهة بالفخ ذات طرفين حديديين قويين يسدهما من الجانبين لولبان عظيمان . قال لنا الشيخ وهو يشير اليها بسبابته :

ـ هذه « مصيدة السراق » يعصر فيها من سرق الشعوب .

اردنا ان نستفسره في شأنها اكثر فابتعد عنا مشتغلا ببعض شأنه .

في فم المصيدة ناس كثيرون يصيحون ، اذ كانت قابضة على بطونهم ، فظهرت وجوههم محمرة وبرزت ارجلهم الى الخلف ، وكان هناك رجال شداد أقوياء يجلدونهم بعصي من حديد جلدا قويا ثم يديرونهم على ظهورهم بحيث تبقى بطونهم بارزة الى اعلى ممسوكة بفم المصيدة . ثم يشعلون النار فوق بطونهم فيصيحون صيحة واحدة.

« لم نسرق !!! »

يأخذ عند ذلك الرجال الاقوياء شهابا من نار ويمسكون ألسنتهم ويكوونها كيا وئيدا ، فيصيحون صيحه ثانية قوية نطقا بعدها أنفاسهم .

يخرج الرجال الاقوياء هؤلاء السراق النكرة من فم المصيدة وقد فضي عليهم ، ثم يأتون بجماعة أخرى لها لون جديد ، ورداء مخالف للجماعة الاولى ، فيطبقون عليهم في المصيدة ، فينكرون كما أنكر الاولون ، فيعيدون عندئذ كيّ ألسنتهم واشعال النار فوق بطونهم ، فيخرجون من المصيدة ميتين .

تكررت هذه الاحداث أمامنا حتى غطيت ارض الغوط بمن مات من السراق ، الذين طالت ألسنتهم ، وانتفخت بطونهم ، وخرج دمهم من مناخرهم نسكابا .

قالت رفيقتنا ، وهي تمسك بيد « آرم » :

ـ لقد سئمت هذه الصور التي أرعبني ... ان هذا العالم يا « آرم » هو عالم الرعب ..

ربت « آرم » على كتفيها في حنان وتكلم وكأنه يحدث نفسه :

ـ لنسر على الاشواك في صمت .

في صحراء الجياع وقرب بئر المطامع سرنا نبحث عن أنفسنا وسط الطين وبين ضجيج الالم والرغبة ، وعلى أرواحنا تكدست أوضار آلاف السنين ، وفي قرارة قلوبنا ترسبت أوحال كثيرة منذ البدء ....

لقد كنا نتحاشى الغرق في الطين عندما كنا راجعين الى المركب ولكن على الرغم منا يسقط احيانا أحدنا وسط حفرة طينية نخرجه منها بصعوبة .

بلغنا « غرفة الاحلام الارضية » وقد أدمت أرجلنا أحجار صغيرة مسننة منتشرة في الصحراء .

لما بلغنا مكان المركب وجدنا أن الذئاب الخمسة قد أكلته الاربعة الباقية ، لانها كانت جائعة ، اذ نسي الشيخ ان يطعمها .

ضرب الشيخ ناصيته لما رأى ذلك ، واستغرق في تفكير عميق كمن يسترجع ذكريات بعيدة ثم نظر حواليه وتكلم ، واليأس يخالط صوته :

ـ ان مسيرتنا الآن ستستغرق وقتا طويلا في الطريق .

قال « آرم » :

ـ لنأخذ عوضه ذئبا آخر من هذه الذئاب المربوطة في الاغلال .

قال الشيخ :

ـ صعب ان نروضه من جديد .. لقد روضت هذه الذئاب عندما كانت صغيرة .

أبعدنا جثة الذئب المأكول ، ثم خطونا ببطء ودخلنا الغرفة بينما بقي الشيخ يحرسها من الخارج .

لم نأكل تلك الليلة الا قليلا، وقد كان حديثنا همسا، واستغرق « آرم » وزوجته في نوم تقطعه الاحلام المزعجة . اما انا فلم يطف بي النوم تلك الليلة ، اذ كنت احس بقلق يؤرقني ويضيق أنفاسي، شعرت بدبيب في جسمي يشبه دبيب النمل ورغبت في الخروج من الغرفة ...

فتحت بابها الصغير ببطء حتى لا اوقظ الرفاق ... وعندما وضعت قدميّ على أعتابها وجدت الشيخ نائما أمامها . لم يكن هناك ظلام . وانما هناك ضوء رقيق يلوح من الشرق ، فتبدو تحته خيالات بعض الاشجار سوداء كأعمدة دخان لمعامل أرضية . وظهر وجه الصحراء عن اليمين متشحا بثقاب حزين .

خرجت في تلك الليلة بمفردي ، فساورني الخوف . ولكن لم البث أن غمرني فرحة الانطلاق .

وعلى ضفاف « نهر الغرباء » حيث يعدو التيار وتندفع الامواج لتنصب في اللانهاية ، سرت وحيدا ، وشيء خفيّ يجتذبني الى الامام . وقد وخزتني شوكة حادة نامية على ضفته فادميتني . حاولت ان اضمد جرحي ، ولكن لم أجد شيئا يسد فوهة الجرح ،

فسرت ودمائي تقطر على الرمل .

وسمعت على بعد مسافة أمامي صخبا رقيقا يهزّ سكون الليل، ويبعث في حناياه موسيقى لذيذة مطربة ، وارتفعت زغرده حتى نشبه رجع ناي بعيد ... واقتربت أكثر من مأتى الصوت فرأيت على الضفة خيالات غير واضحة تتقارب وتتباعد ... اقتربت في حذر يدفعني حبّ الاكتشاف والمغامرة ، فلاح لي جمع من الغزلان يلعبن على ضفة « نهر الغرباء » وينسامرن غير عابئات بتياره المتدفق وأمواجه المتدافعه ... وقفت بعيدا عنهن بقليل ، ولما رأيتني كففن عن الضحك ، وانضم بعضهن الى بعض ، ومكثن كل منا ينظر الى الآخر. وفي لمح البصر اندفعت احداهن نحوي وكأنما كانت تعرفني من قبل ، واقتربت مني في احتشام ، ووقفت أمامي ، وابتسمت ابتسامه ألفتها طويلا ، ودون أن تتكلمني أخذت يدي برفق ، وهزت فيّ عينين ناعستين أترعتا بالاحلام الحزينة ، وقالت بصوت موسيقي :

ـ كيف عرفت هذا المكان ؟

قلت لها :

ـ لقد صعت ...

قالت :

ـ كنت يائسة من رؤياك ، ولكن ها أنت ذا أمامي ..

وأومأت الى رفيقاتها ـ اللاتي كن يتطلعن اليها ـ بالذهاب فرجعن الى ما كنّ فيه من لعب ومرح ..

وحانت منها التفاتة الى الارض فرأت ان قدميّ تقطر منهما الدماء .. فنظرت اليّ بعينيها السوداوين نظرة لوم ، ثم جثت على ركبتها يدفعها الحنان ، ومدت يديها الى ثوب من ثيابها فنزعته وضمدت به جرحي ... ثم مدت يدها الى جبيني لتمسح عنه قطرات تساقطت عليه من ندى الليل... ثم رمقتني ثانية بعينيها العسليتين، وتحسست جسمي ببصرها كما عهدتها من قبل .. وكانت تغشي وجهها الجميل غيمة حزن رقيقة . وعلى شعرها الناعم المهدل على كتفيها بعض الورود الغابية . كانت تبتسم بهم بلجي وتمرغ رأسها بين ذراعيّ ...

سألتها عما اذا كان هناك ماء لاطفيء به ظمئي الذي لا ينتهي . فاشارت بيدها الصغيرة الى مياه « نهر الغرباء » ... قلت لها :

ـ انها دموع ...

فقالت :

ـ من ادراك ؟؟

قلت :

ـ لقد وقفت على نبع النهر بنفسي .

فكرت قليلا .. ثم أخذت يدي برفق وقالت :

ـ هيا نذهب الى « نبع المحبة » لاسقيك منه .

قلت لها :

ـ لقد شربت ماء كثيرا ولم يطفيء ظمئي ولربما ...

قالت مقاطعة :

ـ عندما تشرب هذا الماء ستحس أنك في حياة راضية ، وان العوالم كلها قد تسربت بين ضلوعك .

قلت في ريبة :

ـ اخشى أن لا يكون هذا ، لانني حاولت أن أفتح عينيّ للشمس فاغلقتا بلا ارادة .

قالت :

ـ هيا لنجرّب .

سارت امامي في ثوبها الابيض الجميل ، وسلكت بي مسالك سهلة وصلنا بعدها الى جبل صغير في سفحه نبع ماء صاف . وحول النبع ناس كثيرون يرتدون ثيابا بيضاء يكرعون من ماء النهر الواحد بعد الآخر في رصانة وهدوء .. وقد علت وجوههم علائم المسرّة ، وانطلقت من عيونهم ـ رجالا ونساء ـ أشعة الامل والحنان ... فهم يجذبونك بلطفهم ، ويأسرون قلبك بتسامحهم ، فتشعر كلما حدثتهم كأنك تخلق خلقا جديدا ...

لما هممت بأن اشرب من « نبع المحبه » ابتعدوا عن النبع قليلا ليتركوا لنا المكان .

أتحنيت اشرب من ماء النبع العذب ، فنهلت منه حتى سبعت بينما كانت رفيقتي واقفه في انتظاري . ولما أطفأت ظمأي بماء المحبه اقتربت مني ، وأخذت حفنه ماء ، ومسحت وجهي بيديها الصغيرتين، ثم انحنت نحوي ، وهمست في اذنيّ :

ـ ادع من جاء معك في هذه الرحله ليشربوا من ماء النبع .

قلت لها ، ونحن راجعون في الطريق :

ـ لقد تعوّد الناس شرب الماء من بئر المطامع ولذلك فهم لا يستطيعون شرب ماء المحبة ..

قالت لي :

ـ لم لا تأخذ معك الزاد من ماء النبع ؟

ـ أجبتها :

ـ ان ما شربته الآن يكفيني الى آخر الرحلة .

وصلنا الى المكان الذي كنا جالسين فيه قبل الذهاب الى النبع فحادثتها قليلا . ثم وضعت يديها بين يديّ برفق وقلت لها :

ـ الآن سأذهب .

قالت في اشفاق :

ـ الى أين ؟؟

قلت :

ـ لأواصل السفر

قالت :

ـ متى تلتقي ؟

أجبتها :

ـ عندما أتم رحلتي هذه .

قالت في استفهام :

ـ وهل أنت أتيت في رحلة ؟

قلت :

ـ رحلة طويله تحفها المخاوف .

قالت في لجاجة :

ـ ومتى ستعود ؟؟

قلت :

ـ عندما أصل مصب النهر .

أجابتني وفي صوتها ضراعة واستعطاف .

ـ ألا تمكث معي وقت آخر ؟؟

أجبتها باشارة تنفي المكوث. ثم أمسكت يديها الصغيرتين ونظرت مليا في عينيها السوداوين فرأيتهما قد ملئتا دموعا ، وغشيت وجهها الجميل غيمه حزن ثانية زادت في حسنها . قلت لها وقد وضعت يدها البيضاء في شفتيّ :

ـ ان الرحلة طويلة عليّ اتمامها ، والطريق مملوء بالمخاطر عليّ ان اتخطاها ، واذا رجعت سألما من رحلتي فسأجتمع بك خارج الزمن على ضفة هذا النهر ! .

انهلت دموعها غزيرة على وجنتيها . وهممت بأن ترافقني فأبيت . وسرت مبتعدا عنها ، فكانت تلاحقني بنظراتها حتى توارت. عند ذلك رأيتها دون أن تبصرني راجعة الى صويحباتها اللائي ما زلن في صخب وضجيج .

في طريقي الى «غرفة الاحلام الارضية» ابتعدت عن الشوكة المسننة الضخمة الحجم حتى لا تخزني من جديد . ولما بلغت لم أجد الذئب الرابع بل وجدت ثلاثة ذئاب فقط . والتفت الى حيث ينام الشيخ فوجدت المكان فارغا ... طفقت أبحث في ساحة المركب عليّ أجد الشيخ نائما قريبا ، فعثرت على جثة الذئب الثالث ملقاة في

ناحية بعيدة عن المركب .

فلت فيما بيني وبين نفسي « لعل الشيخ يبحث هو أيضاً عن الذئب » ودخلت بين الاشجار المحيطة بـ « غرفة الاحلام الارضية » منحذرا من الذئاب الاخرى المربوطة في سلاسل كي لا تسطو عليّ . وفي عانق كبير من شجرة هرمة رأيت شيئا معلقا . اقتربت من الشيء المعلق فلاحّ لي بياضه . ازددت اقترابا فاذا بي أقف امام الشيخ وهو معلق في الهواء . وقد سال من أنفه دم أحمر على لحيته البيضاء... اكتنفني الحيرة وحزنت . وتساءلت عمن شنق الشيخ . ولكن الذي ظننته هو أن الشيخ قد شنق نفسه ، اذ وجدت رباط حزامه في رقبته .

صعوبة الطريق ومخاطر الرحلة ستزداد ، واحتمال التعمق في الضياع سيكون ممكن الوقوع .. مركبنا سيقف لان قوته الجاذبة قد انهارت . والاشواك والاحجار ستدمي اقدام القافلة من جديد ... علينا الآن أن نسير راجلين مرة أخرى . وبسرعة فتحت باب الغرفة الصغير ، ودخلت لاوقظ « آرم » وزوجته . أخبرت « آرم » بأن الذئب الرابع قد مات ، وأن الشيخ الذي يقود المركبة قد انتحر .

ضرب « آرم » ناصيته ، وصاحت زوجته في حيرة من انسدت أمامه سبل الخلاص . وبعد فترة قال « آرم » بصوت الداخل لمستنقع اليأس :

ـ الآن سنعود من جديد الى وعث الطريق .

ونهض « آرم » بهمة قوية . وخرج من الباب الصغير والفجر لما يلج بعد . وقدته الى حيث كان الشيخ مشنوقا متأرجحا في الهواء ورجلاه تتدليان الى أسفل . لم نستطع ان ننزله من مشنقه ، لان رباط حزامه الذي اختنق به كان قد دخل في اللحم ووصل عظام الرقبة . وخشينا أن نحن أنزلنا الشيخ ان ينقطع رأسه فيصير جثة بلا رأس.تركناه على حاله ورجعنا الى المركب لنوقظ رفيقتنا ونواصل الرحلة ... وكنا نطمع في أن نبتدع حيلة تمكننا من استقلال« مركبة الاحلام الارضية » دون أن يؤثر موت الشيخ في مسيرتنا . ولكننا عندما وقفنا حيال المركب راعنا ما وجدناه من جرذان كثيرة ، كانت كلها تثقب العجلات التي يسير عليها المركب . كان الجرذ كبيرا كالكلب الصغير ، وله انياب طويلة كالخنزير .. خشينا على رفيقتنا من هذه الجرذان الوحشية ... ولكن الاطمئنان رجع الينا لما فرت الجرذان يدفعها الذعر عندما وصلنا المركب .. رأينا ان العجلات الاربع قد ثقبت ، وان محاولة استقلال « غرفة الاحلام الارضية » من جديد من المحاولات التي لا جدوى فيها ، فالعجلات مثقوبة ، والذئاب الثلاثة الباقية لا تستطيع جر المركب و « آرم » لا يمكنه ان يحلّ محل الشيخ ، لانه لا يعرف الطريق ، وليست له خبرة بالقيادة ولا بالعالم الذي نحن فيه .

التفت الينا « آرم » بعد اطراق طويل ، وقال لنا بصوت يخالطه الالم :

ـ علينا ان نعود الى الطريق ونتم الرحلة على الاقدام .

ثم سار امامنا فتبعناه تاركين « غرفة الاحلام الارضية » .

سلالم النجوم :

الطريق الذي نسير فيه تملأه الاوحال . والمصب الذي نسير نحوه يفصلنا عنه البعد ... وتزيد من صعوبة الوصول اليه اشواك الوهن التي بذرتها العقول السقيمة ....

لقد ظننا اننا أمسكنا ناصية هذا العالم بمصاحبتنا للشيخ وسكنانا «المركبة الاحلام الارضية» . ولكن ها نحن نعود من جديد الى التعثر في الحفر ، وها نحن الآن نتحمل وخز الاشواك بصبر . لم تستطع رفيقتنا ان تسير طويلا . لقد اخلّ بقواها تعب قديم . قالت لنا ، وهي تعرج من ألم اصابها :

ـ هيا لناخذ قليلا من الراحة .

قال لها « آرم » في لهجة حازمة :

ـ ان « نهر الغرباء » ما زال طويلا . ولا بد ان نصل المصب قبل قوات الاوان .

قالت له ، وهي تبلع ريقها :

ـ سأستريح لحظة .

سألها « آرم » وعيناه تلتهمان الطريق :

ـ كم تستغرق هذه اللحظة من وقت ؟؟

أجابته كالغائب عن وعيه :

ـ بضعة قرون ....

ارتاح « آرم » من قولها . وجذبها من يدها الناعمة برفق ، ثم وضعها على ظهره من جديد ، وسرنا .

كانت صحراء الجياع قد اتسعت عن يميننا أكثر ، وقل منها النفر المتفرقون المتعارضون ، ولكن بدأت تلفحنا برياح سموم حارّة، ولولا نسمة خفيفة باردة تهب من ناحية « نهر الغرباء » لاحترقنا بحرارتها .

لما بدأ الفجر يظهر مع ظهور نور من الشرق لاح لنا على ضوئه خيال أسود في الطريق .. وعن اليمين سلالم تصل ما بين الارض والسماء تم سرنا اكثر الى الامام فبان لنا الخيال الاسود متحركا له فروع طويلة فخلناه شجرة طويلة منحنية على الطريق ... وعندما اقتربنا أكثر تبين لنا أنه حيوان غريب لم نعرف شكله من قبل . فحاولنا الرجوع الى الوراء ، لكن الحيوان نفخ نفخة قوية جمدتنا في مكاننا حائرين ... اقترب الحيوان الغريب منا ، وهو ينفخ كالعاصفة ، فأردنا الهروب ولكن الوزر الذي يثقل كاهل « آرم » منعنا من ذلك .

اقترب الحيوان الضخم نحونا برأسيه العظيمين اللذين لا يشبهان رأس الافعى ولا رأس الحمار ، ولكن شكلهما غريب غير مألوف لدينا ، في كل واحد منهما فم واسع مخيف أشبه شيء بالمغارة .

قصد الحيوان « آرم » فأنزل المرأة من فوق ظهره ، وفتش حزامه من جديد ، وأخرج مديته الكبيرة الشبيهة بمدية الجزار . وحاول الدفاع بها عن المرأة وعن نفسه فقطع قرنين من قرون الحيوان. أما أنا فقد رميت الرمل في عينيه فلم أفلح .

ازداد الحيوان اقترابا ، وصوّت صوتا مزعجا جعل « آرم » يتخلى عن المرأة رغم ارادته ، ويقصد أحد السلالم فيصعدها بسرعة ... ثم تدرج في مدارجها بعزم ... وفتح الحيوان فمه أكثر وقصد اكل المرأة في جلبة مزعجة فجرت امامه صائحة . ولكنه تتبعها ، فلم يعد كثيرا حتى أمسكها بين فكيه . عند ذلك لم تصح المرأة ولم تتكلم بل جمدت من الخوف ... ولكنها كانت بين الحياة والموت تلوح بيديها الصغيرتين الى « آرم » عندما كان يصعد سلالم النجوم ، قال لها بصوت مرتفع ، وقد ابتعد عنها كثيرا في الفضاء :

ـ انك لن تموتي ، يا عزيزتي ، مهما ألمت بك المصائب الضخمة، لان نشوءك قد اقترن بالخلود . ووجودك سبب العالم ... سأعود اليك،يا حبيبتي ، عندما أحمل سلاحا جديدا من النجوم ، وأخلصك من فم الحيوان الضخم حتى تسيري من جديد على الطريق ...

عند ذاك ثارت زوابع عنيفة أهاجت « نهر الغرباء » ففاضت مياهه ، وغمرت السلاحف الراعية في اطمئنان ، وجرّتها الى التيار بقوة ... ولكنها لم تستطع جرّ الحيوان الضخم ذا المنظر البشع الممسك بالمرأة بين شدقية ، لانه كان طويل الاقدام ذا جسم ضخم لا يقوى على حمله الطوفان ...

نور الدين بن بلقاسم